حكايات في بلد فيها حرب

TALES OF A COUNTRY IN WAR

ممدوح صلاح

حكايات في بلد فيها حرب / رواية

ممدوح صلاح

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة , ١اش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢٠٠٥

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٥- ٠

حكايات في بلد فيها حرب

Tales of a Country in war

رواية

ممدوح صلاح

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

أهدى هذا الكتاب لثلاثة ..

الأول كان قارئي الأول خطوة بخطوة منذ بداية الرواية وحتى نهايتها ..

والثانية كانت دائماً تدفعني للأمام في كل شيء حتى في الكتابة وكثيراً ما طلبت مني أن تقرأ الرواية ..

والثالث ربما لا يعلم أنني كنت أكتب رواية جديدة من الأساس..

يا صديقتي،

في هذه الأيام يا صديقتي...

تخرج من جيوبنا فراشةٌ صيفيةٌ تدعى الوطن

تخرج من شفاهنا عريشةٌ شاميةٌ تدعى الوطن

تخرج من قمصاننا

مآذن... بلابل... جداول... قرنفل... سفرجل

عصفورةٌ مائيةٌ تدعى الوطن

أريد أن أراك يا سيدتي...

لكنني أخاف أن أجرح إحساس الوطن...

أريد أن أهتف إليك يا سيدتي،

لكنني أخاف أن تسمعني نوافذ الوطن

أريد أن أمارس الحبَّ على طريقتي

لكنني أخجل من حماقتي

أمام أحزان الوطن...

الشاعر الكبير/ نزار قباني

مولد القصة الأولى

نيران المساء المبدَّدة

فجر الاثنين ١٧ يوليو ٢٠٠٦

الأيام الأولى

الفصل الاول

نيران المساء المهددة

انعكس اللّون البرتقالي المخيف على وجه طفلة من ذوي الاثني عشر عامًا، فالتمع في عينيها بريق لحظيٌّ توهّج مع وهج النيران، وأنير وجهها بنظرة غريبة، ولكنها لا تمتُّ للخوف بصلة... ترى ما هي مشاعر طفلة صغيرة حين تدخل النيران حياتها، وتراها عدة مرّات في يومٍ واحد مُحلّقة في السَّماء، حاملة معها الدخان، وعواء الجرحى والمُصابين؟

لا أحد يعرف... ولا أعتقد أنّ أحدًا سيعرف، وحتى يوجد طفلٌ قادرٌ على التعبير بالبلاغة الكافية... وإن وجد وعرفنا ما يدور بذهنه، فلن نشعر بما عرفناه؛ ما لم يكن لنا قلب طفل، وعقل طفل... طفل حقيقي... لا مثل الذي نزعم أنه يعيش بداخلنا، ونتذرَّع بوجوده حين نرتكب أفعالًا نحسبها صبيانية طائشة، ونتجاهل وجوده تمامًا حين نرتكب أشنع الأفعال طرا... ثم نعود لنبتسم من جديد في أيِّ مناسبة، مبررين سخافاتنا بأنها أفاعيل ذلك الطفل الكائن بداخلنا...

سنوات مضت في هدوء يمكن تسميته بالسَّلام، سنوات فاقت عمرَ الطفلة فلم ترَ نيرانًا مثل هذه من قبل... ومع هذا، لم تخف منها كما هو متوقّع، يا للعجب!! فالطفل المزعوم

بداخلنا هو وحده من يستطيع الكذب بشأن مشاعره، فيظهر حين نشتهي التظاهر بالبراءة، وينعدم حينما يمسك شرنا بزمام الأمور... طفل مسيطَر عليه، بينما الأطفال الحقيقيون لا يمكن السيطرة عليهم، وتخال في كل لحظة ترمق فيها وجوههم الخالية من أيِّ انفعال أنك تجهل من هم في الحقيقة، وما سيفعلونه في خطوهم التالية...

دار هذا الحوار في رأس سماح أم لم يدرْ... لا أحد يعلم، مدَّت يدها لاشعوريًّا، وسوَّت أطراف حجابها المتهدِّل فوق رأسها كعادتها حين تكون متوتِّرة أم لم تفعل... لا أحد يعلم، حدجت ابنتها بتلك النظرة الأمومية التي تجمع المشاعر كلها في خليط غامض أم لم تنظر لها طيلة جلستها الصَّامتة... لا أحد يعلم!! فقد كانت هي خارج كل بؤر التركيز حينما كانت ابنتها تبحر في العوالم الحمراء والبرتقالية النارية القادمة من النافذة، التي لم تنفعل بها، وكأنها قادمة من التليفزيون ولا تعنيها في شيء، والغرفة كلها كانت مظلمة بشكل نسبي، فكانت نيران الانفجارات حين تضيء في الخارج، ترسم بداخل المنزل أشكالًا عشوائية لا تسمح سوى بالإدراك للطابع العام للمكان، أما ما كانت سماح تفعله بالفعل، فقد كان بالتأكيد خارج نطاق هذا الإدراك المحدود...

وثبت سماح بغتة لتحتل في أهميتها أهمية الانفجارات المضيئة والطفلة المراقبة، حينما جرحت إبرة الحياكة إصبعها، ووثب

الدم نثرات من الجرح الصغير، فأصدرت آهة قصيرة... بدت في هذا الصَّمت العميق مدوية، وامتد أثرها لدقيقة على الأقل، كأنها طلقة نارية انطلقت في المكان.

التفتت الطفلة الصغيرة لأمها بعد مرور تلك الدقيقة، وكأنها شدَّت نفسها بصعوبة من المنظر المضيء من النافذة على الرغم من رتابته.

– شو فيكِ؟

براءة صوت الطفلة تتساءل أكثر من جملة السؤال نفسها، مما جعل الأم تبتسم برغم الموقف العصيب، وخرجت الكلمات محشرجة بطيئة من شفتيها، كمن يتكلم بعد صمتٍ ساد دهورًا:

– ما في شي مهم... ما تشغلي بالك.

منحت عبارة الأم – التي جلست صامتة لساعة تقريبًا – الجرأة للفتاة لتعبر عن أفكارها في السَّاعة الماضية، التي أهدرتها تتأمل المشهد المتكرِّر من النافذة:

– وينه البابا؟ هو بدُّه يسافر مثل ما قال، ولّا بيرجعلنا...؟

– الله يعيده سالم، كيف ما صار...

لم تفهم الابنة شيئًا بالطبع من تلك الإجابة المقتضبة الحائرة، لكنها قدَّرت حاجة الأم لعدم الكلام من التنهيدة التي أطلقتها بعد تلك الجملة، وكأنها تطفئ نيران صدرها، ولم تدرك سماح

بأنها أوغرَت النيران في قلب ابنتها بنفس التنهيدة، وأنّ ابنتـــها أدركت بغريزتها الطفولية أنّ شيئًا ليس على ما يرام...

كانت اعتياد الطفلة على النيران، والحـــروب، والأزمـــات السياسية، وتخرصات العامة من الناس منذ صغرها - على الأقل من خلال التليفزيون أو أحاديث أهلها مثل أغلب أطفال العالم العربي الحديث - هو مصدر قلق سماح... وعلى الرغم من أنّ قريتهم كانت بعيدةً لفترة طويلة عن كل هذا، ما كانت تعتقد أنّ ابنتها تقدّر تلك الهجمات النارية حق قـــدرها، ولا أحـــد يستطيع نفي ذلك أو تأييده فالأطفال يُضمرون أكثر بكثير مما يظهرون، ويبطنون أضعاف ما يعلنون... لذلك لم تتوقـــع الأم من ابنتها تقدير أنّ أباها المسافر قد يكون أصابه أيُّ مكروه من جرَّاء تلك النيران التي هبطت عليهم من السَّماء بعـــد ســـلامٍ طويلٍ.

عاودت سماح الحياكة في ضيق، وكأن اللّحظات الماضية التي دوت فيها تلك الجمل القصيرة داخل الحجيرة البسيطة، هـــي لحظات مقتبسة من زمن ماضٍ مجهول، ولا تنتمي للـــسَّاعات الحاضرة حيث كانت سماح وابنتـــها مـــسمَّرتين في مكانهمـــا كتمثالين استلبت حرارة نيران الانفجارات بالخارج كل الحرارة بداخلهما، فأضحيا كقطع الثلج، جالستان منذ العصر تقريبًـــا نفس الجلسة الصَّامتة، حتى عندما غشيت الظلمـــة الحجـــيرة لم تكلّف إحداهما نفسها بإضاءة المكان، وسمعت سمـــاح خـــلال تلك السَّاعات أذانيْ المغرب والعشاء القادمين من الخـــارج في

ميعاديهما، وكأنهما قادمين من بلاد بعيدة... ولم تتحرك حتى للوضوء والصلاة، مما جعلها تزداد توترًا على توترها.. منتظرة لزوجها منقطع الأخبار... كان يجب عليها أن تصلي، وتزيد من الصلاة وتزيد... وتمنحه من دعائها ما يعينه على ما قد يواجهه، وما يعينها على الصَّبر في انتظاره... كان يجب ألا تفارق جبهتها سجادة الصلاة إلا بين السَّجدات المتعاقبة، وإلا يفارق الدعاء شفتيها إلا بين ركعة وأخرى... أما أن تظل هكذا كتمثالٍ بلا حراك، فهو ما لم تفهمه، وما لم ترضَ به.

قامت متثاقلة الأطراف، كأنما ذلك التمثال يتحرك فجأة ليضيء النور، لعله يبدد من الثقَل المترامي في الحجرة كلها، ارتعشت إصابعها وهي تمتد نحو الزر الصغير، وضغطته مرة ثم أخرى، ثم ثالثة، وجالت عيناها في السَّقف المتقشِّر الطلاء في عدة مواضع، حتى استقرت على المصباح الذي لم يتأثر بضغطاتها المتوالية. ظنَّت في البداية أنَّ المصباح احترق، فتحركت يدها المرتعشة نحو مفتاح المروحة وأدارته... ثم عادت من جديد، وارتمت على المقعد الذي أنَّ في هدوء... وحينما لم يلفحها هواء المروحة، ولم ينضم صوت موتورها العتيق إلى الأصوات القليلة في المكان، أدركت أنَّ التيار الكهربائي منقطع... كان يجب أن تتوقَّع هذا، في ظل القصف المتوالي.. أما الطفلة الصغيرة، فالتفتت مترعجة إلى باب الشقة الخشبي الذي تحرك فجأة تحت طرقات عالية حادة، وصاحت الأم بقلق:

- مين ع الباب؟

فحاورها صوتٌ نسائيٌّ منهكٌ:

- أنا يا أم هالة، افتحي هلأ...

قامت هالة الصغيرة التي تعرّفت على صوت جارتهم عاليــا، وجرت مسرعة نحو الباب ففتحته، واندفعت السيدة البدينة من فرجة الباب، بينما سماح تسوّي طرحتها فوق رأسها خشية أن يكون معها أحد ابنيها اللذين صارًا رَجلين... ودخلت عاليـا وحدها، ثم سارت قلقة نحو سماح فربتتْ عليهـا في إشـفاق ولوم:

- شو فيكِ أم هالة؟ ما بتخبريني وينه زوجك، وبعرف من صاحب البقالية، هايدي هي العشرة!

تلتمع عين سماح مقاوِمة دموعها:

- ما كنت بريد أقلقك معي يا أم نجيب... مـا بتقـدري تساعدي، بس بحملك هم...

- شو هم؟ زوجك غالي علينا، وكان ممكن نجيب يساعد.

ثم تجلس على أحد المقاعد، وتنظر نحو التليفزيـون المظلـم الصّامت:

- الكهربا مقطوعة... بس مينا راح لعم حسن تا يجيب لنا الجرانين... بتعرفين شو صعبة بمثل ها الأيام.

ثم تستطرد:

- النسوان بييجوا لألك حالًا وابني مينا، بجيب في البلدية راح لشغله، قولتله ها النهار ما فيك تروح الشغل، شو بيطير يعني لو ما بتروح؟!... بس هو ركب راسه، وفَلْ بكّير...

سماح تقول، وهي تضع يدها على صدرها في شفقة:

- الله يحميه ويحمي ولادنا كلاتهن.

على ذكر الأولاد، تلتفت عاليا فجأة نحو هالة الصغيرة الجالسة بجوارها، فتحتضنها قليلا وتبتسم، وهي تحدثها:

- ما شاء الله يا هالة بتصيري عروسة عن قريب، معقول ما في حدا اتقدملك!!... العرسان عدمت النظر...

تضحك الطفلة الصغيرة بخجل، وتلتفت لأمها التي تقول:

- ثواني، وبعملك الشاي...

همّت بالقيام، فقامت عاليا؛ لتمنعها من الذهاب للمطبخ:

- دخيلك اقعدي، شو أنا غريبة؟ أنا قلت لمينا يجيب الجرنان، ويمرق ع هون تا تتطمني على أستاذ محمود... وما بدي إشرب شاي ولا غيره...

ترتفع الطرقات على الباب من جديد، فتلتفت عاليا ناحيته، وهي تقول:

- هايدا مينا... يا نسوان الجيران...!!

ثم ترفع عقيرتها وتنادي:

- مين ؟

فيرتفع صوت امرأة أخرى:

- أنا خالدة.

تقوم سماح، وتفتح الباب لسيدة رفيعة شابة، سافرة الرأس، ومعها سيدتان أكبر سنًّا، ومع دخولها أضيئت الغرفة بمصباح طوارئ تحمله في يدها، ومصباح آخر في يد إحدى السيدات، وتوزَّعت السيدات الخمس في أرجاء الغرفة على المقاعد، وبعد تبادل السؤال القلق عن زوجها، الذي بقي بلا إجابة، قامت عاليا صديقة سماح الأثيرة، وجارتها الأقرب بالذهاب للمطبخ لإعداد الشاي، وإخراج بعض الحلوى من الثلاجة. وسرعان ما انخرطت سماح في نقاش ضعيف اللهجة مع السيدات، اللواتي لا يعلمن شيئًا عن حقيقة القصف الإسرائيلي المفاجئ على البلاد، منذ أن بدأ بالأمس، وامتدَّ لساعات اليوم!

وتحوَّل جوُّ الغرفة تدريجيًّا من الجمود إلى الحركة، مع ما تبعثه هالة ابنة سماح في الجوِّ من طفولة، وبالطبع لم تغفل سماح عن نظرات النِّسوة المشفقة إلى الطفلة التي تجهل أنها ربما قد فقدت أباها في هذا الهجوم الغريب... وأزعج هذا سماح، فهي لا تزال متشبِّثة بأمل أن يعود محمود في أيِّ وقت لاغيًا سفره إلى سوريا الذي اضطره لترك القرية، والذهاب لبيروت حتى يسافر جوًّا... بالطبع على نفقة الشركة الكبيرة التي يعمل بها،

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٢٣ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٢٣ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

* من ص ١٧ الى ص ٣٢ ساقط من اصل المصدر

أما هو فلم يكن يدري ما هي تلك القصيدة فلم يتأثر مثلهم، ويذكر أنه شعر بخجل أحمر دافئ في أذنيه من جهله بقصيدة لنزار قباني... وقال موريس نجم الشمال – كما كانوا يسمونه– في سرعة:

– أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي؟

فكر الجالسون قليلًا حتى طفت الكلمات على فمه تلقائيًّا:

– المتنبي.

تأمله بعض الجالسين في غبطة، وربت على كتفه صديق له، وفي تلك اللحظة شعر بوخز الحجر الجبلي على عظام مؤخرته، فقام واتجه نحو دخان سيجارة نصري زند الذي أعقب صدوره سعال وشهقات جافة. كان يحب لعبة تخمين قائل الأبيات، لذلك حان وقت إعداد بعض الشاي لمزيد من التسلية. كانت هذه اللعبة لا تشعره بمُضي الوقت، وتعتمد على ثقافة اللاعبين، لذا لم يكن نصري زند أبدًا يلعب معهم، وكان يكتفي بالمشاهدة، فهو على حدِّ قوله لم يكن يفهم سوى في النساء... ومن مظهره لا تثق أبدًا حتى في هذا...

التفت فجأة، وهو يملأ البرَّاد بالماء، حين قال نصري بصوت محشرج خشن مفعم بالسُّعال:

– ظفروا وما ضعفت لهم فرق   رفعوا فما هدمت لهم جدر

قدروا فما ذمت لهم شيم   كرمت لهم ذمم فما غدروا

استصعبت أذنه هذين البيتين المبنيين كليهما للمجهول، وقال حانقًا:

- ما هذا الشّعر الرديء... لا صور، ولا أخيلة...

وجاوب كلماته صمتُ الحاضرين الذين جهلوا جميعًا اسم الشّاعر، ونظرات نصري المبتسمة المغرورة، وكأن أحدًا لن يكشف سرَّ تلك الأبيات... نظراته لا تنسى، لكنه نسيها، ولم يعد يتذكر إلا سعاله وبقايا صوته المتحشرج...

- يلا... بيأشرو لنا...

أخرج ناصر عينيه من الكاميرا عائدًا لعالم الواقع، ونظر للطابق السفلي، فوجد الثعبان أزرق العينين يشير له بالبدء... فأدار زر التسجيل ضابطًا زاوية التصوير، والتفت ليرى العرق الكثيف يغمر وجه نسر القلق، وهو رابض إلى جواره...

كل هذا القلق لمن لن يهاجم أصلًا... ترى ما هي حال المهاجمين الذين يتسللون في تلك اللحظة بالأسفل ؟!

- لمن هذين البيتين؟

تقتحم الحكاية عقله مرة أخرى، وصوت رزق الله الغاضب من ابتسامة نصري الذي كانوا جميعًا يظنون أنهم يفوقونه علمًا بما لا يوصف...

- تلك ليست أبياتًا عادية...

قالها المظفر نصري زند في غموض، ثم أردف بعـــدما رأى عدم الفهم يتشكّل في جميع الوجوه:

- لو قرأتها بالعكس من اليسار، لوجدتها تناقض معناهـــا، وليس لها مؤلف هي من تراث قدامى العرب.

في البدء كان الأمر غامضًا، ثم جرَّب الكلمـــات في عقلـــه معكوسة وعادية مرارًا، وحتى الآن لا يـــزال يـــذكر هـــذين البيتين...

- يارب... النصر بإذن الله...

يصرخ نسر بحدَّة من جواره مع اندفاع أصوات النيران من الممرِّ... وسرعان ما اشتعل المكان وأضاءته طلقـــات المـــدافع الآلية، والرِّجال الأربعة يردون بدويٍّ مماثلٍ مـــن مـــدافعهم، وفوجئ بنسر يقرِّب فوهة الماسورة المعدنية من السور، ويصوِّبها إلى الأسفل حيث المتقاتلين أمام الكاميرا...

وتنطلق النيران المدوية تصمُّ أذن ناصر، وتلفح وجهه بضوء وحرارة، والتفت كل المتقاتلين - من الفريقين - نحـــو نـــسر الذي اتَّضح له للتَّو غباء فعلته، ولكنه واصل إطـــلاق النـــار، فأردى أحد الحراس صريعًا، وخلع ناصر الكاميرا من الحامـــل، ووضعها على كتفه ملاحقًا المتقاتلين خارج مجـــال الرؤيـــة، ومبتعدًا عن تبادل إطلاق النيران الذي بدا أنه لا نهاية له.

لم يكن قد ابتعد كثيرًا في ركضه، وهو ينظر بعينـــه مـــن خلال الكاميرا، حين ارتطم بالواجهة الزجاجية لأحد المحـــلات كانت إلى جواره و لم يرها، فتكسَّر الحاجز في طنين رهيـــب، جعله يرفع بصره مداريًا وجهه بيده، والزجاج المحطمُ يتـــساقطُ فوقه آلاف القطع، وتحطمت واجهة هذا المحل تمامًا، ثم ما لبث أن سمع صوت خطوات تقترب في عجلة نحو مكانه. ظـــنَّ أنَّ هناك من سمع صوت التَّهشم، وتعجَّب لهذا الحارس الذى يمشي وحده، ولكنه وجده رجلًا عجوزًا، يرتدي ملابـــس النـــوم، ويجري حاملًا مسدَّسه يتبدَّى فقط كظل من بعيد. إنه العميـــد نوار بلا شك، وتحسَّس ناصر بيده المسدَّس الذي أُعطـــيَ لـــه لاستعماله في حالات الطوارئ، ثم وجد أنَّ العجوز لم يره، ولا يتقدَّم نحوه حتى، بل يبتعد هاربًا؛ حتى لا يلحظه أحد... رفـــع ناصر الكاميرا إلى وجهه، وأدار زر التسجيل، وركض بخفـــة خلف ظل الرَّجل البعيد محاولًا تتبعه، ومتجاهلًا صخب المعركة المستمرة خلف أذنيه، وتحرك الـــشبح العجـــوز حـــتى أحـــد المنعطفات وهمَّ بالهبوط فيما يشبه القبو السري، فأخفض ناصر الكاميرا معلنًا انتهاء التصوير والمطاردة. تسمَّر قليلًا كأنه يفكر في شيء ما، ثم رجع راكضًا نحو صوت المعركة، وضغط بيديه أزرار الكاميرا، فأرجع الشريط حتى لحظة ارتطامـــه بـــاللوح الزجاجي مخفيًا أيَّ أثر للرجل العجوز الفار، وأكمل تـــصوير إطلاق النار من مكانه المعتاد، وسرعان ما لاحـــظ أنَّ عـــدد

الحراس يقل باستمرار، وأنّ الرِّجال الأربعة ظهر عليهم القلـــق من عدم ظهور ضحيتهم المنشودة.

كان يعرف أنهم فريق للاغتيالات، ولكنه كان مجرَّد مصوِّر محترف لهذا النوع من العمليات، يصوِّرها بحيث تبدو وكأنهـــا مصوَّرة من قبل أحد الشهود داخل المكان بالتلفون المحمول، أو ما شابه، أو كأنها كاميرا عفوية وضعت للحراســـة، فيكـــون وضوح الصورة رديئًا عن عمد، أو يصوِّرها بحيـــث تكـــون ظاهرة أنها من قبل المغتالين أنفسهم للعـــرض علـــى شـــبكة الانترنت، أو للتهديد عبر الفضائيات فتصل الجودة والوضـــوح إلى درجة عالية... حسب الاتفاق، وحسب ما يريده المتفق من إخراج نهائي للمشهد. مهنة شديدة الخطورة، فهـــو يـــصوِّر الاغتيالات، والحروب، والعمليات الانتحارية، وكل شـــيء... وخدمته مقدمة لمن يدفع بلا هويات، لذلك حـــاول أن يظـــل بعيدًا عن السياسة خلال عمله طيلة الوقت، فلـــو انخـــرط في السياسة لأغرقته هموم الوطن الكبير، وما بقي له عملٌ يعملـــه غير الحكم على أشياء لا حكم لها. تأمل الرِّجال المنـــشغلين في إطلاق النار، وقد أصيب أحدهم فأصبحوا ثلاثة فقط، منظرهم وهم يسحقون جنود العدو غاية في القوة والشجاعة، يلتمـــع العرق على أجسادهم من وهج النيران المتدفقة فيزيدون إصرارًا وحماسة. حقًا هؤلاء هم المجاهدين الذين يرفعون أوطانهم عاليًا، يقينهم بأنهم يغتالون عدوَّ الوطن والدين يزيد من اندفاعهم نحو النصر والشهادة.

يراهم ظافرين، يعلون اسم وطنهم لا ضعفت لهـم فـرق، ورفعوا فما هدمت لهم جدر... ما أروع هذا البيت من الشّعر وما أجمله، صار يقينًا لديه مفعمًا بالمرارة أنّ هذا هـو أجمـل أبيات الشّعر التي سمعها على الإطلاق منذ قالها نصري بـصوته الخشن، هم عراقيون من الشيعة كما استطاع أن يستشفّ من كل شيء فيهم، عاداتهم، وطريقة كلامهم المتخفيـة الـتي لا تخدعه، ليس كبيرًا في السّن لكنه جاب جزءًا كبيرًا من العـالم المضطرب خلال مهمّاته مما يجعله خبيرًا. مسلم سنيٌّ هو، وهـو شيء من الأشياء التي تتغيّر فيه باستمرار كاسمه وموطنه حـتى تظل هويته مفقودة، ولَكَم كان في بعض العمليات مسيحيًّا، أو يهوديًّا، أو شيوعيًّا من دون أيِّ تمييز... لكنه يعلم ما بقـي في قلبه لا ما تناثر على شفتيه، هؤلاء بالذات لم يكذب، ولم يخف عليهم، بل هم لم يسألوه أصلًا، ولم يهتموا بمعرفة دينـه، ولا طائفته... أما هو فيعلم كل شيء، بالتأكيد العميد زيني نـوار هذا مسلم مثلهم، ولكنه سني وهذه المحاولة للاغتيال ما هي إلا حلقة في سلسلة تقود العراق لحربٍ أهلية...

يقتلون مسلمًا مثلهم، عربيًّا مثلهم، وما الدافع؟ ما الـذي جعله يختبئ في بلد غير بلده؟ ويواجه الهجوم والقلاقل في لبنان مفضلًا إياها على جحيم العراق؟!

ومن الذي أباح دمه؟ ولأيِّ غرض؟! وهؤلاء المغتـــالين أداه في يد من؟ وضدَّ من؟!

وهل خلا العالم من عدوٍّ حتى صرنا نقاتل بعضنا البعض؟!

يقترب الآن من الصورة على حقيقتها... فيراهم ضـــعفت لهم فرقًا فما نصروا، يهدمون دينهم بأيديهم، فهدمت لهم جدر دينيهم فما رفعوا...

ينعكس بيت الشِّعر ككل شيء آخر في حياتنا، ويتحـــوَّل المقاتلون اللذين قدروا فما ذمت لهم شيم وكرمت لهم ذمم فما غدروا إلى حفنة من القتلة، غدروا فما ذمم لهم كرمت وذمت لهم شيم فما قدروا...

وهل من شيم لهم أذم من القتل! لهذا السبب لم يصيح معلنًا عن مكان العميد العجوز؛ ولهذا السبب دعا له من كل قلبه أن تبتلعه الجدران فلا يرونه ولا يقتلونه؛ ولهذا السبب لها جزوبــه من شريط عملية الاغتيال، ترى بماذا هم مقتنعون؟ هل يظنون أن ما يفعلونه هو الجهاد، أم أنهم مأجورون مثله يعملون عبيدًا لمال يشتري به صاحبه أرواح الناس، تتغير النظرة الـــتي يراهـــا للمكان كله، وتيشهق الجدران، والسلالم، والمحـــال المغلقـــة، والبضائع، في فزع حتى تشحب كلها، وتختـــق الموجـــودات شحوبًا، ولا يبقى سوى وجوه المتحاربين اللذين اختلطوا فـــلا تحسبهم فريقين، ولم يدرِ حقًا مع من أتى. يرى الرَّجل تعبـــاني

الملامح ملقى على الأرض، يئن وبجواره جثتين لحراس المكـــان.
نفس الملامح العراقية الواحدة، ويرى الشّاب كثيــف الــشّعر
نسر، وهو يطلق النار على من يشبهه وكأنه يطلق النار علـــى
أخيه.

ترى بماذا يؤمنون؟ ترى لماذا ينتمون؟!

يصعب عليه مناقشتهم، فهو عاهد نفـــسه ألا ينـــدفع إلى
السياسة، ومع طول إطلاق النيران والقتال المــتلاحم، طــاف
بذهنه الصوت المتحشرج لنصري زند بعد سعاله الكثيف الحاد،
وهو يتلو بيتًا آخر من أبيات القصيدة:

– نصروا فما خذلت لهم دول   عملوا بما علموا فما نفروا

وخنقه الحزن تحت القناع الصّارم الزائف على وجهه، فظهر
على ملامحه الكدر، والرّجال يحيطون به بعدما قــضوا علـــى
الحراس كلهم، وهم يجرون مصابهم الرَّجل غلـــيظ الملامـــح،
وأحدهم يبحث عن العميد المفقود في كل مكان، سار معهـــم
دون أن يستمع لأصواتهم الظافرة أو المتسائلة في حـــيرة عـــن
الرَّجل الفار...

بل أكلته الحسرة؛ لأن أعظم قـــصيدة سمعهـــا في حياتـــه،
للأسف، لم يقلها شاعر، بل وكأنما قالتـــها الحيـــاة نفـــسها في
إحدى لحظات الحقيقة النادرة...

***

الفصل الثالث

المطار

من قال أن المحاماة مهنة سهلة، لا تقتضي سوى بعض الحديث الناعم، وتؤتي أكلها ذهبًا؟! وأنّ المحامي لا يهمه أي شيء فيسجن من يسجن، ويفرج عمّن يفرج عنه؟ لابد أن من قال هذا لم يرَ في حياته قاعة محكمة. الرطوبة واللزوجة في كل مكان، حتى ولو كان هنالك تكييف، ونظرات القاضي المقاتلة في هدوء، التي تتهمك بالكذب في كل جملة حتى في ذكر اسمك للتعريف في بداية الجلسة، وكأن القاضي يتوقّع أن تتلاعب باسمك أيضًا من أجل الفوز بالقضية...

يتحدث المحامي عن موكله وكأنه أحد أفراد عائلته، وكأن مصيريهما واحد، وقد ربط بينهما القدر، بينما أهل هذا الموكل يحدجون المحامي بنظرات قاتلة من الحديد والنار تتأرجح بين الأمل في البراءة، أو التخفيف، أو عقوبة الخصم القاصمة، أو أيًّا ما وعد به المحامي، والانتقام الشنيع إن أتت النتيجة بحيث لا تشتهي السفن، ومحامي الخصم كذلك في ذات الموقف العصيب حتى يشفق المحاميان على بعضيهما البعض... لا يهم من الظالم ومن المظلوم، فأهل القاتل يريدون البراءة مثل أهل البريء، والقاتل نفسه تتحرك عيناه داخل القفص في جنون، كأنه قسرد

حبيس ينتظر قرار القاضي في تحفز، كأنه إن حكم عليه بالإعدام لم يوفه العقاب الذي يستحقه، بل إن حُكم له بالبراءة انتصرت أخيرًا عدالة السَّماء، وعمَّ الخير في الكون...

وربما لهذا السبب تحديدًا فرَّ إسماعيل من جوِّ المحاكم الخانق الكئيب، والقضايا التي لا تنتهي، واتجه لإدارة الأعمال، وبالرغم من عمله طوال أعوام عمره الخمسين ونيف، داخل فلسطين وطنه الذي تعاني محاكمه أكثر من أيِّ محاكم أخرى، فلم يبدُ عليه أيُّ إحساس بالغربة أو التوجس حين وصل إلى لبنان منذ أسبوع واحد. فقط مدَّ عنقه الشَّحمي داخل المطار؛ يستنشق هواء بيروت النقي، على حين يختم ضابط الأمن الداخلي جواز سفره الذي يحتوي على صورته منتفخة الأوداج، ذات الشَّارب الذي لم يعد موجودًا منذ عهد المحاماة البائد. وحين ركب الفان الخضراء التي كانت تنتظره في المطار، وسارت به على الكورنيش الممتد، وهبَّ عليه نسيم البحر، دار في مخيلته أنَّ سنينًا من المرافعات الناجحة، والسُّمعة الرائحة بالمحكمة لم تكن لتحقق نصف ما حققه خلال أعوام قليلة من عمله الجديد.

الآن يجلس بأروقة المطار، مطرق الذهن، ينتظر بلا نهاية داخل قاعة الانتظار بعد اضطراره للبقاء في لبنان؛ حين علم بما حدث من تفجيرات لأرصفة المطار مساء أمس. كان عليه أن

يسافر إلى سوريا فجرًا لملاقاة أحد المستخدمين في تلك الصفقة الجديدة التي يديرها قانونيًّا، ومقابلة بعض رجال الأعمال هناك أيضًا؛ لشراء مصنع صغير له كأول استثمار فرديٍّ في حياته، ولكن – وكأنه كان يعيش في عالم آخر- حين وصلت سيارته للمطار في الفجر، وجد النيران تمتد حتى السَّماء، وسيارات الإطفاء تمتد للأفق، بحيث تتغيَّر الموجودات في العالم بين الأحمر والأزرق تبعًا لأضواء السيارات، و الكل منشغلٌ يجري خائفًا من انفجار باقي خزَّانات الوقود بالمكان، وسمع حديثًا متناثرًا بين العديد من الأشخاص... وبدا سؤاله للناس في المطار عمَّا حدث عبثيًّا، ولا يخلو من الحماقة، كأنه يسأل عمَّن بنى الأهرامات مثلًا، أو عمَّن يحتل فلسطين؟!

مدَّ رأسه خارج السيارة، فأمكنه أن يبصر مراسلي قنوات الأخبار في كل مكان، وكذلك ضباط الأمن الداخلي والجيش اللبناني، فحاول أن يخرج من طريق المطار صائحًا في سائقة:

- يلَّا... فِل بسرعة قبل ما ينسد الطريق.

فأدار السائق المقود، وهمَّ بالرجوع فعلًا لولا أن أطلَّ عليهما من النافذة أحد ضباط المطار، الذي أضاءت وجهه النيران المتصاعدة في الجوِّ، وقال في حزم يشوبه احترام:

- متأسف، ما في حدَا بيخرج ع الطريق، حضرتك فيك تستنى هون بصالات الانتظار؛ لأن فندق المطار ما بيكون آمن بها الجو...

أراد أن يثور ويزعق في الضَّابط معرفًا نفسه كرجل أعمال كبير، لكنه حسَب الأمر في رأسه ووجد أنَّ احتمال قصف الأماكن الأخرى، وطرق السفر بريًّا وارد ومحتمل، بينما لن يقصف الإسرائيليون قاعات المطار الداخلية؛ لأن لا مصلحة لهم في هذا...

– هايدي شغله منيحة، اليهود ما بيعزقوا صاروخ واحد من دون فايدة... شو مش يهود؟

قالها للسائق، وضحك بعدها، ثم أشار له بإكمال الطريق إلى داخل المطار:

– فيك تنطر بالمطار، وبعدين ترجع بالسيارة للشركة...

وحتى الآن طافت تلك الأحداث القريبة في ذهنه عشرات المرَّات بعدما غفا قليلًا داخل القاعة مفغرًا فاه في بلاهة، كما تخيل صورته وهو نائم. فقد كان يزعجه بشدة نومه في مكان مليء بالناس، ولهذا حاول ألا يغفو حتى الفجر حين سقطت رأسه على صدره من تلقاء نفسها، وذهب في نعاسٍ عميقٍ، وحين دخل نور الظهيرة الوفير عبر النوافذ الزجاجية الواسعة في سقف الصالة، قام مفزوعًا وكأن شيئًا ما لدغه... وتمتم السائق النائم على مقعد بجواره، بكلماتٍ غير مفهومة، ثم نام مرة أخرى...

أزعجه أيضًا أن ينام بجوار سائق الشركة، واستثارته الروائح البشرية التي ملأت المكان، وعبق بها الجـوُّ، وكأنها مقرفة ومقززة، ولا تشبه رائحته الخاصة...

رفع رأسه مستفيقًا من تلك الخواطر المزعجة التي ظلت تراوده منذ استيقظ من غفوته الإجبارية، ورفع رأسه للسَّاعة التي أعلنت الثانية ظهرًا، وبدا وكأن المكان قد ازداد امتلاءً بالبشر على الرغم من علمه بأنهم قطعوا سبل الدخول إلى المطار من الخارج، في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه... واشتدَّ الحرُّ عليه، فاندس إصبعاه الكبيرين من تحت ذقنة؛ في محاولة يائسة لتوسيع ياقة القميص دون فتح زره العلوية، ثم ما لبث أن فتحهما مضحيًا بوجاهة مظهره في سبيل خيطٍ منعشٍ من الهواء، وتأمل أخلاط البشر من حوله، فيهم منْ هو مثله راقي الثياب والفكر، وفيهم من هو رقيق الحال، أو من يحمل أسرته الملتاعة إلى خارج البلاد بعد ترامي أنباء ما فعله نصر الله للشارع اللبناني عبر الفضائيات. اختلف عنهم جميعًا رجلٌ رثُّ الثياب، جعله الحرُّ مبعثرها كذلك، يجلس وحيدًا ويضم قدميه إليه محاولًا شَغل أقلَّ حيز من الوجود، نحيلًا في الأربعين من عمره ويبدو في الخمسين، وكانت ذقنه النامية هي القشة التي قصمت ظهر بعير مظهره. اعتقد إسماعيل أن هذا الشخص يعاني من افتقاده لمن يحبهم، ولهذا ينكمش على نفسه محاولًا إعطاء نفسه وهجًا من الأمان الزائف...

- ومين يللي ما بيوحشه غالي عنده؟

قالها في ازدراء، وكأنه يحتقر عواطف الرَّجل البشرية، ويشاركه فيها في آن واحد، وقام متوجهًا لأحد الضباط داخل المكان، قائلًا بصوتٍ عالٍ مفاجئ:

- مش معقول يللي عم يصير... شو إحنا محبوسين؟ اتركونا نروح لأشغالنا...

فقال الضابط بلهجة المعتاد على التبرم:

- أول ما بنلقى طريق، بوعدك تكون من أول الخارجين.

كانا يقفان على مقربة من الرَّجل مشعث الثياب الذي قام قائلًا بحدَّة مرتجفة:

- ليش بيكون هو من أول الخارجين...؟ كلنا لينا بيوتنا يللي تاركينها.

التفت إسماعيل بجسمه البدين، وبذلته الأنيقة حتى صار في مواجهة الرَّجل هاتفًا:

- أنت ما بتعرف لمين عم تحكي؟!

فصرخ الرَّجل بحدَّة:

- ولك مين بدك تكون! نحن هون متل بعض، وبدك تروح متل ما بدنا...

كاد صراعٌ كلاميٌّ أن يحتدم حين جذب النحيل من كتفه رجلًا أشقر الشَّعر فارتخى قميصه الواسع عليه، وقال الأشقر:

- محمود، دخيلك هدّي نفسك...

وقام الضابط بإبعاد إسماعيل بحزم، وأعاده إلى مكانه مخاطبًا إيَّاه بهمس... فانسلَّ محمود مع صديقه الأشقر لمكانيهما، وهو يزفر في ضيق كاتمًا غضبته، وما إن استقرَّا فوق أريكة الانتظار المريحة حتى أغمض عينيه في إرهاق داخلي مبعثه التفكير الكثير، وانسابت دموع قليلة على وجنتيه من بين عينيه المضمومتين حتى شعر بها على ذقنه، ثم أخذ ينهنه بصوت أعلى، مما جعل صاحبه ينتبه له فجأة فيفزع نحوه، وهو يبسمل ويحوقل، وربت على كتفه ثانية، وهو يقول متعجبًا:

- شو فيك يا أبو هالة؟ بنعود عن قريب بإذن الله...

ثم تنهَّد متبعًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، اليهود أولاد الكلب...

التفت إليه محمود مغرورق العينين، وانفرج وجهه في بكائه حتى صارت تجاعيده كالأخاديد عمقًا وهو يقول :

- أنا اللي قالقني هالة وأم هالة، بعد بينطروني وما بيعرفوا أي خبر، ما بعرف كيف طمنهن...

ثم التفت إلى إسماعيل الذي بدا منفوشًا في جلسته البعيدة عنهما، وهو يجيل بصره في القاعة باستعلاء، وقال لصاحبه الأشقر في لهجة غريبة:

- تفتكر في شغلات بتهمه أكتر من هيك من شان كل ها الضيق، أعماله تعطلت، يا حرام...

وانفجر في البكاء ثانية في إنهاك العاجز، وبدا للأشقر، وكأن كل من بساحة الانتظار يتأملهما في فضول وشفقة، ولكنــه لم يرد أن يوقف صديقه المستغرق في نهناته، وبكائه، ودمدمتــه، لعل هذا يخفف قليلًا من حدّة الموقف عليه، لم يكن الأشقر قد أنجب أو تزوج حتى بعد، لذا كان يعتبر مــشاعر الأب شــيئًا مقدسًا وبعيدًا عن عالمه، بينما محمود زميل عمله في الــشركة الذي يكبره بخمس سنوات قد أنجب منذ فترة بعيدة، وبــرغم الصداقة القوية التي تربطهما خارج نطاق العمل التقليــدي إلا أنه لم يكن قد فهم بعدُ علاقة محمود بزوجته وابنته، أو علاقــة الأب بأسرته عمومًا... ولَكَم أدهشه كمُّ المشاعر المتضاربة التي أثارها محمود منذ وصولهما للقاعة في المساء، بدأ من قلقه على أسرته التي خشي أن يكون القصف قد طالها بأيِّ ســوء، إلى شعوره بالتوتر لقلق أم هالة المتوقّع عليه بعد تلــك الأحــداث المفجعة...

وقد حاولا منذ الأمس إيجاد أي خطوط اتصال بعد إغلاق المخارج في المطار، لكن وحدات التليفون المعلقة في كل مكان هي من أسوأ ما يكون حتى لتبدو وكأن اســتعمالها الرئيــسي كقطع ديكور ليس إلا، ولم يسمعا منها سوى رنين الحــرارة

المتقطع الممل، لم يكونا يمتلكان هواتف محمولة لكـــن البحـــث عنها لم يكن بالأمر الصعب، فالكثير من زملائهم في هذا المنفى كانوا يملكونها، ولكن الشبكات لا تعمل، والإرسال أقل مـــن ضعيف. حاولا الاتصال من أكثر من جهاز محمـــول، ولكـــن النتيجه ثابتة، وسعيد الحظ هو من نجـــح في إتمـــام الاتـــصال والاستمرار فيه بضع ثوان. وكان المطار كلـــه يلتفـــت نحـــو الشخص الذي ينجح في ألاتصال، وكأنه أملهم المنتظر ولكـــن سرعان ما كان التليفون يعلن عن صمته من جديـــد. تنهَّـــد الأشقر، ونظر نحو محمود الذي توقف عن البكاء المرير، وأغلق عينيه كأنما هو نائم، وامتد بصره بعـــدها لينظـــر إلى رجـــل الأعمال ضخم الجثة الذي كاد صاحبه أن يتشاجر معه منـــذ قليل، والذي هدَّده بمنصبه، وكأنه سينفعه حقًّا في هذا المكان.

ترى هل يمتلك شخصٌ مثل هذا ما قد يساعدهما به ؟ ربمـــا كان هاتفه أقوى في اجتذاب الشبكة من بقية الهواتف العادية؛ لأنه بالتأكيد سيكون هاتفًا فخمًا يتناسب مع شخص مغـــرور إلى هذا الحدِّ، أو ربما كان بحوزته كمبيوتر محمـــول يـــستطيع توصيله بالإنترنت لعمل أيِّ اتصال، ولكنـــه اســـتبعد هـــذا الاحتمال الثاني، فشخص ملول مثله كان سيخرجه لو كـــان معه فعلًا، ولو حتى على سبيل التفاخر والتظاهر بالأهمية، نظـــر له طويلًا ثم قرر أن يقدم على عمل أحمق من أجل صديقه الذي يبدو وكأنه مات ولم ينم، ربما لن تسفر سوى عن إهدار شيء

من كرامته أمام الرَّجـــل، فقـــد نـــوى أن يـــذهب ويـــسأله المساعدة...

وقبل أن يتحرك سمع صوتًا يقول:

- سمعت عن حدًا بدوا يتكلم بالتليفون...

فالتفت محمود فجأة وكأنه لم يكن نائمًا، وكذلك التفـــت الأشقر نحو رجل ثالث كان يجلس إلى جواريهمـــا، ويحمـــل هاتفًا محمولًا. كان الرَّجل أصلع الرأس في الثلاثين من عمـــره، ويبدو أنيقًا وكأنما حلق ذقنه لتوه، وتعجب الأشقر كيف تحمَّل الجلوس بجواره، هو وصاحبه مزريَا الشكل، وســـأل محمـــود بلهفة:

- الشبكه عندك شغالة؟

فرد الرجل:

- هايدا جوال بالقمر الصناعي... منه شبكات أرضية.

فاختطفه محمود منه في لهفة متسارعة، وانفرجت أســـاريره، وانتفخت عيناه بالدموع الممتنة، وهو يصيح:

- شكرًا...

وابتعد عن مكان جلوسهم مسرعًا، وهو يمـــسح دموعـــه بأطراف كميه؛ حتى لا يبدو التأثر جليًّا في صوته بـــالتليفون،

وابتسم الأصلع رغمًا عنه ابتسامة خفيفة اختفت بسرعة، وشجَّع هذا الأشقر على الكلام قائلًا بودٍّ:

- معلش، سابك وفل بسرعة، بتعرف اللهفة...

فرد الأصلع بأريحيَّة تنافت مع رقي مظهره:

- لا ما تعتل أي هم، لو كنت بعرف وينه كنت جيت بكير...

نظر له الأشقر متسائلًا، فابتسم من جديد، وأكمل:

- حكيولي عن الزلمي اللي بدوا يتكلم في التليفون من المسا، ولكن ما حدًا كان بيعرف شكله، ولما لقيته عم يبكي قلت جايز يكون هو، والحمد لله...

تمتم الصديق:

- الحمد لله، أنا زيد محمد باشتغل في شركة مالية، وهو محمود زميلي...

ومدَّ يده مصافحًا، فصافحه الأصلع دون أن يرد، وقد قرر أنه لا يحتاج للمزيد من الكذب والأسماء الوهمية... ولكن الأشقر علل ذلك بأنه لا يريد التبسط أكثر من اللازم، فصمت احترامًا لقراره. عاد محمود مسرعًا والخيبة تأكل ملامح وجهه، فعلمًا أنه فشل في الاتصال، وهرول نحو مجلسهما، وهو يهتف بالأصلع في لهفه قلقة:

- يمكن أنا اللي ما بعرف إستعمله، ما بيديني أي جرس، اتصل إنتَ.

يضرب الأصلع الأرقام التي يمليها عليه في تسارع، ثم يرفع التلفون إلى أذنه، وهو ينظر إلى محمود الذي حبس أنفاسه في ترقب، وغاصت أخاديد وجهه من الشحوب حتى يكاد أن يسقط مغشيًا عليه، وعز عليه كثيرًا أن يقول للرَّجل في أسف وهو ينزل التليفون من جوار أذنه:

- ما في جرس فعلًا... يمكن التلفونات عطلانة في البيت...

ينهار محمود على المقعد، وهو يصيح:

- ضربوا القرية... وقطعت أسلاك التليفون...

فيقول صاحبه مهدئًا:

- ما تفترض السُّوء... أي ضرب ع الطريق فيه يقطع أسلاك التليفون، ويمكن الخطوط ساحبها الجيش نفسه تا يعمل الاتصالات المهمة...

ثم أخذ يهدئه بكلمات أخرى، بينما انسحب الأصلع من جوارهما في ضيق ورثاء، وهو يقول:

- أنا آسف... كان بدي ساعد...

فشكره الصديق، وكذلك محمود، وهكذا سحب حقيبته، وسار في المكان متفحصًا الوجوه من حوله، ثم ابتاع جريدة صباحية من موزع الجرائد، باحثًا فيها عن شيء يُقرأ، وابتاع

ساندوتش من الجبن باحثًا فيه عن شيء يؤكل... فكأن الأشياء توقفت عن أداء مهمتها الحقيقية، وأصبحت مجرد مظهر تقليدي تعوَّد الناس عليه، وسار الهويني داخل المكان حتى توقف عند إسماعيل الذي يجلس بجوار سائقه، ويبدو عليه وكأنه يقاوم النعاس، و نظر له إسماعيل مندهشًا فلم يكن يعرفه، ثم تمتم بنبرة حاول أن يجعلها مهذبة؛ بسبب ما يظهر على الأصلع من وجاهه، ولكنها على الرغم من ذلك خرجت مليئة بالعصبية:

- من إنت؟ كيف باقدر أخدمك؟

- اسماعيل المروان؟

- إنت بتعرفني...

ابتسم الأصلع من ملامح الدهشة الجلية على وجه اسماعيل، ففسر وهو ينظر في ساعته؛ لتحديد الوقت بدقة:

- كان من المفروض نتقابل من ساعة في فندق بسوريا، ماكنت بعرف إنك هاتطلع من هون.

قام إسماعيل من مكانه، وكأنه سيفهم ما يدور أكثر لو وقف، وسأل محاولًا إدخال المعلومات في عقله:

- إنتَ ما كنت بسوريا من الأساس.

فرد الأصلع:

- لأ، طيارتي كانت المفروض بتطلع من ثلاث ساعات، أنا أول ما شفتك عرفتك من الصور المنشورة بالجرانين.

وابتسم الأصلع في المقطع الأخير من جملته بسمة ذات معنى، واستقبل إسماعيل الرسالة بأعين خانته بنظرة طويلــة محدقــة، وكأنه يستشفُّ المزيد من المعانيَّ من الواقف أمامه، أو يبثه معان أخرى، فموضوع الصور التي نشرت له في الجرائد لم يكن أبدًا من الموضوعات التي يسعده إثارتها... وعلى الرغم من أنها المرة الأولى التي يتقابلان فيها. غصَّ حلق اسماعيل بغــصَّة يعــرف معناها جيدًا من خلال خبرة سنين عمره الطويلة، وهو يــدرك أنَّ الشخص الواقف أمامه ليس سهلًا أبدًا...

- أهلًا وسهلًا فيك، إتشرفت بمعرفتك...

صاحب إسماعيل جملته -التي جاهدت لكي تخرج من بــين أفكاره المتلاحمة- ابتسامة صناعية واسعة جــاهزة دائمًــا، ولم يكن الأصلع الشّاب بمثل خبرة العجوز، فخرجــت ابتــسامته أضيق قليلًا منها، ولكن جمل الترحيب ظلت سجالاً بينــهما، حتى جلسا سويًا على المقاعد، وقد امتصهما حديثًا طويلًا حول شؤون السياسة، والبلاد، والهجمة الطارئة... وبعد مضي وقت قصير، قال إسماعيل بلهجة أكثر جدية من كل ما قالاه:

- تفاصيل الشغل منا معي، بنروح ع دمشق الأول، ومــن هناك بتقابل سكرتيرتي اللي بتعرفني كل شيء، زمانها بتنطرنــا هونيك.

تنهَّد الأصلع وقال:

- وكيف بدنا نروح ع هناك، المطار ما أظنه بيفتح عن قريب.

صدمت الجملة آمال إسماعيل التي حدت به للانتظار منذ المساء، فقال:

- متأكد، يمكن بيسمحوا بطيارات خاصة.

- المدارج انضربت، والحريقة ما طفيت لهلأ، كيف يعني بتطلع الطيارة؟

دفع الحل نفسه على لسان إسماعيل:

- نروح بالبر، من ع الطريق يللي بيربطنا بسوريا.

قال الأصلع:

- أعتقد ع المسا فينا نسير بالعربية... عا بال ما تخلا الشوارع حوالين المطار.

سمعهما السائق الذي كان شبه نائم، فوقف مترنحًا كأنما لا يملك وقتًا للقيام على مهل، وجال بصره في المكان، وهو يقول بحذر:

- مافيّ أترك البلد من دون إذن من المدير.

فهبّ إسماعيل، وقد تملكته إحدى نزوات العظمة الزائدة:

- كيف يعني ما فيك؟! بتعرف إن التلفونات عطلانة، وبعدين مين بدو يسوق العربية؟!

فقال السائق متشجعًا قليلًا:

- ومافيّ سيب السيارة معْكُن، هايدي ملـك الـشركة، وبترجع لإلها.

علا صوت إسماعيل قليلًا، وهو يسبُّ السائق، ويتوعَّـده حتى شحب وجه الأصلع، وارتفعت أعين الناس داخل المطـار نحوهما، ونظر الأشقر صديق محمود من مكانه على مقعده مـن بعيد محاولًا رؤية أيّ شيء بين أطنـان النـاس الـتي مـلأت المكان... وسمعًا صوت إسماعيل المحتد، ولاح لهما من بعيد وهو يتشاجر كلاميًّا مع السائق، فقال الأشقر باشمئزاز:

- هايدي الزلمي بدُّو كل شي ثانية خناقة...

كان يحاول أن يدفع صديقه دامـع العيـنين ذاهلـهما إلى الكلام، بعدما رفع رأسه مشرئبًّا نحو الشجار بصعوبه بالغـة، وكأنه تمثال شمعي تحرَّك أخيرًا، وكذلك تسلَّل الرد على شفتيه الجافتين المتقشرتين:

- ومين بيكون ها المسكين اللي بيتخانق معه؟

نظر الأشقر متبينًا، وتفرَّس في ملامح الـسائق، ولكنـه لم يعرف من يكون، ثم صاح مدهوشًا:

- بص، هايدا هو الأصلع يللي أعطالك التلفون، من ويـن بيعرفه؟

ضرب محمود بصره المنهك نحو الأصلع الذي أخذ يهـــدئ من إسماعيل، ويبدو وكأنه يحاول حل الخلاف بالتعقل والهدوء، وكان يبدو كذلك على السائق الوجَل والخوف من الشجار مع إسماعيل مهيب الشكل والطوية، فاخر الثياب وحاد الطبـــاع، ولكن إصراره على موقفه المهني بعدم تركه للسيارة أو مغادرتها للبلاد لم يكن أمرًا بيده، وكان هذا هو دافعه الوحيـــد نحـــو الاستمرار في المناقشة مع هذا العصبي البدين...

مرّت أفراد أسرة كبيرة من أمام ناظري محمود و صـــاحبه فغشيًا منظر الشجار الذي بدأ يهدأ، ثم مرَّ آخرون فصار مـــن المستحيل عليهم اختراق هؤلاء للمزيد من المتابعة، وبدا محمود في تنهيدته الطويلة ضائقًا بالبشر الموجودين بالمكان كله، وكأنه اكتشف وجودهم فجأة حين مرُّوا أمامه، وغـــشيت أنفاســـه الداخلة إلى صدره رائحة العرق، وصنوف الطعام المختلفة التي تزايدت مع الحرارة المرتمية من الشّمس عبر النوافذ الزجاجيـــة الواسعة بسقف الصالة، وكأن التكييف قد فسد، أو أصبح بلا أي تأثير مع هذا العدد الكبير من المتزاحمين في المكـــان، فـــتح محمود زرًّا آخر من قميصه ليزيد من سوء مظهـــره، وأرخـــى رأسه الطافية فوق نهر البشر للخلف مستندًا على ظهر المقعـــد وأغمض عينيه كأنما يريد أن ينام، و لم يمنعه الحر، ولا الضوضاء المتزايدة باستمرار، ولا رائحة العرق الجائلة في المكـــان مـــن النعاس السريع.. وبعد قليل، انتظمت أنفاسه، وعلا الغطـــيط المنتظم الدال على النوم. نومٌ عميقٌ بلا طعم أتى أخيرًا بعد ليلة

من القلق الحاد الذي لم يعقبه أيُّ اطمئنان ولكنه اليأس، كما كان يرى في الأفلام، تموت الزوجة، أو الحبيبة، أو الابنة، والبطل ينام، ويتكلم، ويواصل حياته داخل الفيلم بشكل طبيعي... لو قيل له أنه سينام بهذا العمق بعد ليلة واحدة من اختفاء زوجته وابنته عنه، أو اختفاءه عنهنَّ لاتَّهم القائل بالهذيان، ولكن القلق منهك وقاتل، ينهش الصدور ويوغرها، ثم يخرج ما فيها أمام الناس، فالشخص القلق قد يصير مدعاة للإشفاق، أو الرثاء، أو ربما السخرية، لكن هذا لا يهمه على الإطلاق، فالدمار الدائر داخل رأسه التي توشك على الانفجار يغطي حينها على أيِّ مؤثر خارجي مهما بلغت حدته... بعد هذا المجهود الذهني الرهيب والتباين بين الأمل الشفاف المنعش، واليأس المظلم المصمت، يتبنى القلق موقف اليأس، ويصير الأمل في مرحلة الاختفاء رويدًا رويدًا حتى يصبح طيفًا لامعًا بعيدًا... ويلتهم اليأس كل الحزن، والقلق، والتوتر؛ ليستسلم الجسد للارتخاء، وكأنه صار خرقة قديمة ممزقة فقدت كل إرادة حتى في مواصلة القلق نفسه، وينسحب الأدرينالين الذي نزفه الجسم كالدماء من فرط التوتر والمتابعة المحمومة تاركًا خلفه مساحات شاسعة من العضلات الميتة والعقول المنهكة، وكأنهم الناجون من حرب كبيرة شرسة مفجعة...

ناجون أو ميتون، دائمًا ما يكون لهم نفس المظهر في نهاية الحروب، وحين استسلم محمود نفسه للنعاس الذي اعتراه، لم يفكر قطُّ إن كان ناجيًا سلَّم نفسه لمروحيات جيشه القادمة

لإنقاذه، أم ميتًا سلّم نفسه لظلمة الموت الموحشة، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة... كل ما يعرفه أن كلًّا من الجندي الناجي بداخل المروحية، والميت الملقى على الأرض، كليهما يغمض عينيه، وينام نومًا طويلًا خاليًا من الأحلام...

***

تسلّل صوت الأشقر داخل أذني محمود المغمضتين كعينيه، وهو يقول:

- محمود، إوعى، في حدًا بدو يحاكيك.

ففتح محمود عينيه بصعوبه، و لم يرَ سوى الضوء الأبيض المبهر للّمبات الصناعية داخل ساحة الانتظار، وقبل أن تعتاد عيناه الرؤية، لفحه طيفٌ من تيار بارد للمكيف الذي بدأ يثبت وجوده بعدما شارف النهار على الانقضاء، وتطلع للأصلع الذي وقف منتظرًا إياه، ثم نظر للنوافذ الزجاجية التي صارت مشبَّعة بالألوان الصفراء، والحمراء، والبنفسجية التي تشي بشمسٍ غامت في الأفق مفسحة الطريق لنسيم الغروب الهادئ، و هواءِ الليل البارد، وقال وهو نصف واعٍ:

- أيّ خدمة؟

بلا اكتراث حقيقي ولكن بصدق، فهو لم ينسَ بعد موقف الأصلع معه، ورد عليه الأصلع:

- لقيت طريقة نطلع بيها ع سوريا... من البر...

استند محمود، وهو يعتدل في جلسته بيده المعروقة على القاعدة الجلدية للمقعد الذي يجلس عليه، وانتظر المزيد من الحديث...

- بس الشوفير تبع الشركة ما رضي يترك البلاد، بتعرف تسوق؟!

رد محمود مندهشًا:

- إيه بعرف... لكن...

قبل أن يستمع الأصلع للاعتراض، قال في لهجة ودودة مقنعة:

- صاحبك فيه يجي معانا، الطريق طويل وممكن تبدلوا مكان السواق، وأول ما بنوصل ع دمشق كل حدًا بيروح من طريقه...

وافق محمود وصاحبه على اقتراح الأصلع الذي يحمل لهم جانبًا كبيرًا من المساعدة، واعتبرا أنَّ ما فعله هو جميلٌ كبيرٌ لهما فقد كان بوسعه أن يختار من يشاء من بين الموجودين بساحة المطار، وفي ثوانٍ كان كلاهما قد أحضر حقيبته الصغيرة من وسط الزحام، وصارًا مستعدين للحركة.

لكن إسماعيل الذي كان متبرمًا من فكرة إحضار بديلٍ للسائق الذي رحل مغضبًا تاركًا لهم السيارة بعد الكثير من

التهديدات بالفصل من العمل، وزافرًا متوكلًا على الله، ومحتسبًا الله وحده وكيلًا على إسماعيل... احتقن وجهه بشدة حين لمح الأصلع يخترق جموع الناس مصطحبًا ذلك الشخص الذي تشاجر معه واحتدَّ عليه أمام ضابط المطار، وحمل وجهه كل معالم الرفض والاشمئزاز فلم يدَّخر أيها لنفسه، ولم يتجشَّم إخفاء تبرمه إحترامًا لهؤلاء القادمين...

***

الفصل الرابع

نزيف طريق مجروح

الأصوات العالية، وبحر من البشر، والفضيحة الطازجة في حاجة لإشباع كبير، بدا له أنّ كل من في الأرض حضر واستمع، ورأى وشهد ضده أو معه، صار الكون مؤلبًا عليه بحيث لم يعد له أيُّ مكان فيه، وكان الفارق بين الإظلام التام عن حياته، وماضيه، والتستُّر على أفعاله، وبين النور الساطع على فضائحه العلنية فارقًا ضئيلًا جدًّا، لهذا كان ما فجَّرته قنبلة المفاجأة وحدها كفيلة بأن تقضي عليه دون أيِّ نظر للعوامل الأخرى، والقضية المتشعبة التي تحتاج الكثير والكثير لإنهاء تفاصيلها، كما يلزم على أيٍّ من جوانب العدالة المتعددة...

والواقع أنّ حياته كانت مختلفة تمام الاختلاف منذ أسبوعين فقط، قبل الأضواء المشهرة، وحين دخلت زهرة غالب عليه المكتب، وانتشر عطرها الشفاف في المكان. كان أنيقًا صلدًا ومعتدًا بنفسه كما اعتاد أن يكون، وسرعان ما عرَّفَت نفسها إليه على أنها أحد مستشاري جهة عالية السرية والأهمية، وفاتحته في حاجتهم له للإدارة القانونية لمجموعة من الصَّفقات، تابعة تلك الجهة التي تمثلها، وفي الحال تغيرت نظرته إليها مع

وقع كلماتها التي جاءت على الرغم من الودّ الظاهر فيها على درجة من الجدية والصّرامة.

كانت السيدة زهرة غالب في أوائل الأربعينيات سوداء الشّعر، حدَّة تفاصيل جسمها، واعتدال ساقيها الموضوعتين فوق بعضيهما البعض، ونعومة كعبها التي تظهر من طرف الصندل الأنيق، كانوا أول ما لفت إسماعيل إلى جمالها، بعد هذا أتى تناسق ملابسها الذي يشي بذوق رفيع، وثراء واضح، وكذلك جمال عيونها السوداء، ورائحتها الذكية التي أفعمت أنفه بالرغبة كأدوات أخرى في جعبتها أخرجتها حين قالت له وهي تحدِّق في عينيه بلهجة باردة:

– مالك؟ ما سمعت رأيك؟!!

استفاق من تأمله في مظهرها المثير على عبارتها المقتضبة، ودارت عيناه عبر أثاث مكتبه الفخيم، واللوحات الأصلية المعلقة في عدة مواضع من الجدران، وكأنه يستوثق من أسلحته هو الآخر... فكأن جمال الأنثى يقابله ثراء الرجل ووجاهته، قبل أن يعاود النظر إليها مكتسبًا ثقة أكبر، وهو يقول:

– فيّ أعرف أيّ نوع من الصفقات بدكن أديرهن؟

ابتسمت كمن يكلم طفلًا وقالت:

– ما بقدر أعطيك أيّ تفاصيل، مش قبل ما نمضي العقد، بس فيّ قلك إن المبالغ يللي بتاخدها بإدارتك لصفقاتنا منا قليلة، وبالتأكيد بتستاهل أيّ مخاطرة أو غموض.

رفع حاجبيه من صراحتها المقتحمة:

- صفقات مشبوهة.

فأجابت بسرعة:

- ليش بتسمي إشيا ما بتعرفها بعد؟!

ثم أردفت، وهي تخرج أوراقًا من حقيبتها الجلدية الخضراء الأنيقة:

- بدي حدد لك معاد مع المدير التنفيذي لإحدى المجموعات اللي بتتعامل معنا، أنت بتقابله وهو بيحكي معك في كل شيء فيك تستفسر عنه.

وأعطته كارت صغير عليه اسم لم يره من قبل، بلا أي معنى محدد في ذاكرته، ورقم تليفون، وقامت من مجلسها أمامه وهي تدير بصرها في المكتب الواسع كأنها تقيمه مثلما فعل هو منذ لحظات، واستقرت عيناها عليه في نظرة لم يفهمها، ثم سارت نحو الباب. لم يكن إسماعيل غبيًّا لذلك فقد حاول تحليل ما جرى سريعًا، ووصلها صوته وهي تغادر المكتب بالفعل قائلاً:

- إنتِ إسرائيلية؟!

فالتفتت إليه باسمة، ثم غادرت سريعًا تاركة إياه يتخبط في حيرته، التي لم تكن بسبب جنسيتها أو الجهة الغامضة المزعومة فحسب، بل كان الموضوع كله غير مفهوم بالنسبة له على

الإطلاق، وعلى الرغم من عملــه لبــضع ســنوات في إدارة الأعمال والاستشارات القانونية، وفي صفقات ماضــية تعتــبر مشبوهة كذلك، إلا أنه لم يحصل على عرض مخيف، وكــبير، وغامض على هذا النحو من قبل، فمن الواضح أن تلك الجهــة أيًا كانت هويتها ستدفع الكثير لقاء عدم إكثاره من الأسئلة... وحتى الآن حين يعيد التفكير في الحكاية كلها، لا يعلم مــاذا ستكون ردة فعله إذا كان قد تبيَّن له أن تلك الجهة المزعومــة إسرائيلية، ولا يعلم أيضًا لماذا وافق على الاستمرار بالموضوع، وقابل المدير التنفيذي على الرغم من كون هذا الاحتمال قائمًا وقتها وبشدة، هو فلسطيني ومن أبوين فلسطينيين ربما كانًا من المناضلين يومًا ما، لكن من خلال سنوات عمره تغيرت أفكاره كثيرًا بشأن التعامل مع الإسرائيلين، دون أن يتعارض هذا عنده مع موقفه الوطني ضد محتليه...

وحين أنعشه الهواء القادم من خارج السيارة محملًا بالبرودة الليلية المعهودة في بلاد الشام، وتأمَّل من مجلسه في المقعد الخلفي أثار التدمير على مدرَّجات المطار الظاهرة من بعيــد، و علــى المباني المحيطة بها، وبعض جوانب الطريق في ســبيلهم لبعلــك ازداد يقينه بأنَّ موقفه تجاه الإسرائيلين - أصحاب هذا التدمير الموجود حوله، الذي ذكره ببلاده المكلومة - لم يتغيَّــر، وأنَّ كراهية الدولة الإسرائيلية والصهيونية لم تزل تحيــا معــه، إذن لماذا؟!

أخرجه من شروده هتاف الأشقر الجالس في الأمام بجـــوار محمود سائق السيارة:

- بصوا، البنك اللي ع أول الطريق إنهد.

لم يكلف أحدٌ نفسه بالنظر إلى البنك المهدَّم، بيد أن كـــل منهم كان غارقًا في أطياف خياله، وكأن رحلتهم بالسيارة هي اجتماع لأطراف العالم الأربع، أو كحساب طويل بدأه كلٌ مع نفسه حين رأى حال الآخر... إسماعيل، والأصلع الغـــامض، ومحمود، وصديقه الفقير مثله، وتطلّع الأشقر للخلـــف محاولًـــا إيجاد صدى لجملته لدى إسماعيل والأصلع لم يجده في الأمام من صديقه... ولكنه ارتطم بموج عاتٍ يعصف بعيني الأصلع البنية، وكأنه في هذه اللحظة يقاوم الغرقَ تحت حبال الذكريات، التي فكٌ رموزها الدمار القائم في الشوارع الممتدة...

ولم يعرف أبدًا الصديق الأشقر البسيط، أنّ الأصلع الغامض ذهب بعيدًا جدًّا إلى ثمان سنوات مضت في تاريخ مفعم ينضح بالأسماء والبلدان، عاد إلى حيث كان له اسم وهوية، ولم يكن يكنّى بالأصلع، الجامعة، والطرق، والشوارع، وأبيـــه، وأمـــه، وأصدقاء عمره القصير إلى حينها... من قال أنّ عمر المرء يقاس بخبراته والمنحنيات الحادة التي تمر بحياته؟! هذا هراء، بـــل هـــو أسخف شيء سمعه على الإطلاق. لقد عاش في خلال الثمـــان

سنوات الأخارى من حياته عددًا لا حصر له مـــن الخـــبرات، وسافر إلى الكثير من الدول، وخاض جبالًا مـــن الـــصِّراعات، ورأى الموت، رأى العين مرارًا... أما بـــاقي ســـنوات عمـــره الثلاثين، فعاشها في وطنه الأول في مساحة لا تتجاوز العاصمة التي كان يحيا بها، والساحل الذي كان يذهب إليه صـــيفًا... حياة بسيطة، وخبرات غير معقدة على الإطلاق...

ومع ذلك فالنتيجة واحدة، والذكريات واحدة، ومـــازال يذكر أول سيجارة تركت طعمها المقرف في شـــفتيه، كمـــا يذكر أول مرة أصيب برصاصة غـــادرة في رســـغه... نفـــس الاحتشاد الدامي الذي يدفعه للفوران، ويرفـــع الـــدموع إلى مقلتيه الذائبتين في الماضي، حين يتذكر رفاق سلاحه في سوريا وإيران، وحين يتذكر رفاق الدراســـة في الجامعـــة والـــشارع الضيق... ثلاثة وعشرون عامًا مجسَّدة بأبعادها الحادة الثلاثيـــة والرباعية إذا أضفنا الأصوات والروائح، موزعة بـــين بـــراءة الطفولة، ونزق المراهقة، وحمية الشباب والزيارات المتبادلة بين الأقارب، والحبيبة الأولى في الكلية... وثمان أعـــوام مـــسجلة بنفس الأبعاد بين الجبال الحارة، والثلوج النـــاخرة، والمـــدافع الرشاشة، والمستشفيات العطنة المبنية تحت الأرض خوفًا مـــن سقوط قنابل...

نفس القوة والحضور العارم لسنون عمره علـــى أيِّ حـــال قضاها، ومازال يرى النِّسر الحكومي الكئيب المعلق بأعلى المبنى

بعينين راجفتين مثل عينيه في ذلك اليوم الكئيب، مظاهرات في الجامعة وشغب اندفع فيه مثل جموع الطلاب... لا عن رغبة في التظاهر مثلما هي – في الحقيقة– رغبة في التعبير عن الغضب المكتوم. كان له صديقٌ عاقلٌ تناقشا سويًا مرارًا لا حصر لها في جدوى تلك المظاهرات ومدى تأثيرها، وأثبت له ذلك الصديق عدَّة مرات أنه لا جدوى من الدخول في المظاهرات، ومع ذلك فوجئ به إلى جواره في المظاهرة، يهتف ضد الظلم والعدوان...

أيُّ ظلم وعدوان تحديدًا؟!... لم يعد يذكر!!...

هل كان فعلًا طائشًا من الحكومة يستنكرونه؟! أم كان موقفًا سلبيًّا متراخيًا تجاه إحدى القضايا ينتقدونه؟ أم كان موقفًا إيجابيًّا يعضدونه بالموافقة؟ لا يذكر من المظاهرة شيئًا سوى نهايتها، المبنى، والنَّسر الحكومي، ودخان السجائر داخل الغرفة الكئيبة المملولة دومًا كقاطنيها، دائمًا يعلق الدخان بذاكرته فيكون أول ما يراه من الماضي، على الرغم من كونه أول ما يتطاير في الهواء بلا أثر، بعده يأتي الصوت...

– إنت مالكش دعوة بالسياسة، يبقى إيه اللي يوصلك لحد كده؟ ضرب وخناق في الشارع، ومع عساكر الأمن المركزي... تؤ... تؤ...

كان الصوت منهكًا، مملولًا، متحديًّا، صارمًا، قاطعًا، عاذرًا، محذِّرًا، ناصحًا، حكيمًا، ومتبرمًا... صوت خيالي يعبق في

الذهن، وكأن صاحبه تدرَّب عليه طويلًا، ولا إجابة على الإطلاق... فيكمل الصوت:

– عايز تتظاهر وتعمل راجل ع البت صاحبتك، يبقى جوه الجامعة، يجي العميد ولا الوكيل يهشكوا ولّا حرس الجامعة يغتت عليكو وخلاص، إنما تخرج في الشارع وتعطل الدنيا، تبقى بزيادة قوي...

غلبه التردد والخوف أمام صاحب الصوت فلم يرد، وكان مما يسره أن صاحب الصوت يتكلم في منولوج طويل لا ينتظر أي رد، كأنه نهر يسير في مجرى ثابت ومحدد ليصب في النهاية في شلال واسع، لا يهمه على الإطلاق أن يسمع رأي الأشجار، ولا راكبي النهر في ذلك المصب... فقط يسير كما يريد...

– إحنا طبعًا هانسيبك تمشي المرة دي؛ عشان إحنا عارفين إن دي هيافة، إنما يتكرر ده تاني ونلاقيك عامل زي الشوكة فزورنا، وكل شوية تطلعلي فمظاهرة، ولا تقف تخطب فزمايلك!! إنت عارف لما بتخش شوكة في صباعك بتعمللها إيه، بتمسك أي ملقاط، وتطلعها، وترميها، وأكيد ما بيهمكش تترمي سليمة، ولا تتكسر ميت حتة...

ثم بسرعة وكأنه تذكر:

– و طبعًا ما تعتبرش ده تهديد، إنت أهيف من إن أنا أهددك...

وفي اليوم ذاته بالفعل كان خارجًـــا، لا اســـتجواب، ولا تعذيب، ولا أي شيء إطلاقًا!! خطرَ له لحظتها أنّ الحياة باسمة جدًّا، ومتجددة، ومفرحة، وودودة، ووصل الأمل إليه بعد أن كان الخوف قد عرقله من دخوله للمبنى المهيب...

حين قبضوا عليه، وضربه أمـــين الـــشرطة، واقتـــادوه في البوكس نحو مصير مجهول، غص حلقـــه بمئـــات الحكايـــات المتداولة والقديمة في ثقافته عن المعاملة الحكومية، والتعـــذيب، والاغتصاب، والمعتقلات الدامية... لكنه حين كان خارج المبنى راوده الشعور بأن كل هذا هو محض وهـــم، ومـــزيج مـــن حكايات ألفها من لم يرَ أصلًا، وتهويلات رواها من خبر القليل من الضرب والاستجواب حتى يظهر بمظهر المناضل الشجاع... لكنه اليوم بعد سنوات شكلته من جديد، يعرف أنّ صـــاحب الصوت لم يكن يمزح، وأنّ المعتقلات حقيقيـــة، والروايـــات دقيقة، وإنهم تركوه فعلًا؛ لأنه بلا قيمة... وحـــتى التعـــذيب خسارة فيه!!

هو يتذكر تلك الحكاية بكل تفاصيلها؛ لأنه التقى بعد ذلك بصاحب الصوت... رآه مثلما يرى الناس بعضهم الـــبعض في الضوء الساطع، بعيدًا عن الغرفة المظلمة معلقة الدخان، وتكلّم معه وتضاحكا سويًّا... ساعتها تبدَّدت أسطورة هذا الرَّجـــل وبدا صوته له عاديًا تمامًا، ولا يحمل أكثر من معنى، وأدرك أنّ تصوراته بشأن النهر الذي يسير مندفعًا نحو المصب ما كانـــت إلا حول ترعة راكدة، ولا تندفع نحو أي شيء إطلاقًا...

– قدامنا كتير ع بعلبك؟

تنهيده حارة، يعقبها صوت اسماعيل الغليظ، فيجيب محمود بلا أيِّ ود:

– ساعة أو ساعة ونص.

يتبادل الأصلع وإسماعيل النظرات الملولة المتوترة، ثم يـــدير الأصلع رأسه بينما يظل إسماعيل متابعًا نظراته، محاولًا اكتشاف ما يدور بأعماقة... ويتذكر محادثتهما في المطار من جديـــد... هو الذي تحدث عن صورته بالصحف، هو الذي أعاد الحكاية إلى ذهنه بعد أن وأدها في محاولة لمحوها من حياته!! هو الـــذي جعله يتذكر زهرة غالب، وأحمد شاكر، واللقاءات الغامضة في قلب الليل...

تلك التي كان أولها حين أعطته زهرة غالـــب الأربعينيـــة الساحرة الموعد المنتظر مع ذلك المدير التنفيذي، قاوم دهشته، وهو يصيح في وجهها بصوتٍ عالٍ:

– السّاعة واحدة بالمسا... شو بنهرب ممنوعات إحنا!!

تتلفّت حولها متابعة العيون التي جذبها الصوت العالي داخل ذلك المطعم الفاخر، وهي تقول:

– الأستاذ أحمد شاكر ما بيفضى إلا ها الوقت، هو بيعقـــد المقابلات الشخصية في فيلته بهيك مواعيد...

– لك شو أنا على كيف ها الإستاذ؟!!

زعق بتلك الجملة في حدَّته المعهودة، فقالت بعصبية، وإن كان صوتها أكثر انخفاضًا:

– نحنا بمكان عام، ولو ما يعجبك، فيك تعتبر الموضوع منتهي.

هكذا إذن، بمجرد أن أظهر موافقته المبدئية، تحوَّلت خيوط اللعبة كلها إلى أيديهم، ليكن...

كانت فيلا أحمد شاكر فاخرة حقًّا، والموسيقى الشتراوسية تنبعث من كل مكان تقريبًا مع الإضاءة الحالمة، حتى أنه من الصعب على إسماعيل أن يتخيَّل أنه يجلس في مكان على مشارف صحراء رام الله داخل فلسطين نفسها، بلده التي عاش بداخلها خمسين عامًا ونيفا، وعرف حواريها قبل شوارعها... لم يتخيل قبل اليوم فخامة ذلك المكان والدعة الهائلة التي يحياها صاحبه... جلسا في الصالون الواسع الوثير وحدهما، وقدَّم له أحمد كأسًا من المارتيني الشفاف. حاول إسماعيل التظاهر بأنهما في ذات المقام، وأنه محامٍ كبير، ومدير أعمال ذو شأن، متذكرًا مكتبه الواسع في غزة، لكن هذا لم يساعده في شيء، ولم يمنع شعور التضاؤل الذى ساوره بداخل ذلك المكان.

كان أحمد شاكر نفسه بسيطًا في ثيابه، بذلة عادية مخططة بلا ذوق معين، ورأس نصف صلعاء، ويرتدي نظارات سميكة

تخفي الحور البسيط في عينيه، وحين تكلّم كان حـرف الـراء عنده مضغمًا أيضًا بشكل جلي:

- مرحبتين بمحامينا الكبير، حقيقي بيشرفني أتعاون معك.

بادل المحاملة بمثلها:

- يشهد الله الشرف لإلي.

ضحك الرَّجل بلا سبب، وقدَّم نفسه:

- أنا أحمد شاكر، المدير التنفيذي لشركة مـن شـركات الأغذية العالمية هون بفلسطين، لكن أنا باشتغل كمـان مـع جماعة من الناس، وهايدا يللي بدنا نتكلم فيه...

قال إسماعيل - متنحنحًا- الجملة التي أعدها طوال الطريق:

- لكن مع احترامي للجماعة كلها، أنا فيَّ أعرف مين اللي بشتغل معه، على الأقل من شان كتابة العقود.

علا صوت أحمد شاكر قائلًا:

- إحنا بلدنا بتحارب من سنين، وطبعًا لا شك إنك وطني، ولولا هيك ما كان وقع عليك الاختيار، وإنتَ بتعـرف إن في ناس كتير منا بدها تساعد المجاهدين ولو بأي شيء، وكمـان بتعرف إن اللي بيساعد حدًا ما بيريد يذكر اسمه، حتى يا أخي من شان ما يضيع ثواب الصدقة...

- مش فاهم عليك، كيف يعني بتساعدوا المجاهدين؟

ابتسم أحمد ابتسامة محيطية الوسع، وهو يقول في خبث:

- بنعقد صفقات مع موردين لإلنا، بنوفر لهـــم غـــذاء أو مصاري... أو سلاح...

التقط إسماعيل الرسالة بسرعة فامتقع وجهه من المفاجـــأة، إذن الأمر كله يتعلق بتجارة السلاح، لهذا تحدث أحمـــد عـــن مزيج من الجهاد والصدقات والـــسرية، وكـــأنهم ســـيجلبون السلاح ليعطونه مجانًا للمناضلين!!

غاب فكره سريعًا في كثير من الظواهر، لم يلتفت لهـــا في حينها، مثل الشراء غير المبرر لهذا المـــدير التنفيـــذي، والأناقـــة المشوبة بالصرامة لدى زهرة غالب، ليس للموضـــوع علاقـــة بالتعامل مع الإسرائيليين إذًا، تحشرج صوته بالمفاجأة قائلاً:

- وصفقات مثل هايدي، بتنكتب باسم مين، ولمين؟

أجاب أحمد شاكر بسؤال مفاجئ:

- بتحب تسمع فاجنر؟

اندهش إسماعيل، ثم لاحظ التوقف الذي حدث للموسيقى المحلقة بالمكان، فزفر في غضب:

- أي شيء.

قام أحمد شاكر من مجلسه نحو جهـــاز اســـتريو في ركـــن المكان، وتدفقت الكلمات إلى اسماعيل:

- بيهمنا يكون إلنا رجالتنا اللي بتشتغل وبس، وإنت مـــا يهمك تنكتب العقود لمين...

سأل مصحّحًا ذلته:

– لا ما قصدي، أقصد هايدي بتكون شغلة قانونية؟

– إنتَ بتعرف أهل الخير دايمًا بتعطلهم مشاكل وصعوبات في كل مكان، حتى أحيانًا بيضطروا يمرقوا من بعض الحواجز...

عاد إلى المقعد حاملًا كأسين أعطى أحدهما لإسماعيل، وقال وهو يجلس:

– باختصار... منا قانونية بالمعنى المفهوم لإلك...

شعَر إسماعيل بمخه يكاد ينفجر تحت وطأة سيل المعلومات المتدفق كالحجارة فوق رأسه، منذ قليل عرض عليه العمل بتهريب السلاح تحت اسم مساعدات المجاهدين، والآن يدرك أنّ عمله غير قانوني صراحة!! ما كل هذا؟!

تحطمت أفكاره ما بين المبلغ الكبير المعروض عليه، ومدى فداحة ما سوف يرتكبه، ووقف العيب، والحرام، والممنوع قانونًا، أمام وجهه في محاكمة ذات طنين مخيف لما يسميه شاكر الوطنية، والصدقة، والمعوقات الرسمية للجهاد... وشعر أنه يتزلق من المقعد نحو هاوية باردة كالثلج... ما حاجة المهربين للعقود؟! وكيف تنفعهم إذَا كان عملهم كله غير قانوني أصلًا؟!.. هو كمحامي يعرف أنّ العقد شريعة المتعاقدين ولكن، هل سيذهب المستلم للمحكمة لمقاضاة مسلمه إذا تأخرت الأسلحة في الوصول؟!

خشي أن يسأل شاكر في تفاصيل أخرى فلا يحصل على إجابة، فسأل السؤال الوحيد المنطقي في كل هذا :

- ومين بدو يحميني؟ أنا فحالي وما إلي أي علاقه بالشرطة، وما بقدر إحمي حالي...

نظر له شاكر، وقد نال الموافقة الضمنية، واسترخى في مقعده قائلًا بابتسامة في عرض السَّماء:

- ما تخاف، نحنا بنحميك، وإن شاء الله كل شي بيمشي مضبوط وتمام.

***

توقفت السيارة أمام رهط من السيارات الذي احتل الطريق فجأة كأنما جاء من العدم، وحطم النفير المزعج - الذي أصدرته ضغطات محمود العصبية على البوق- نفسية الجالسين، وخرج إسماعيل من أفكاره ليفاجأ بالطريق المسدود بالسيارات، وساد صمتٌ قاسٍ تحطمه من حين لآخر ضغطات متفرقة، تصدر نفيرًا أكثر إزعاجًا لمن هم بالسيارة عمَّن هم خارجها... فهتف الأصلع:

- من شان الله وقف ها الإزعاج!! شو بدك تطير السيارات؟ هاي عجأة سير كبيرة...

- ما في حدًا بدوا يتحرك شي عجلة واحدة.

أجاب محمود في حدَّة فصاح:

- ما في حدا فيه يتحرك من الأساس...

وأعقب حديثه أن فتح الباب الأيسر، وخرج من السيارة نحو الصحراء المحيطة، وما إن لمست قدماه الأرض حتى تحرك التراب الكثيف من حوله وغشاه، فسار بضع خطوات ليرى بشكل أفضل...

كانت السيارات مزدحمة أمامهم في الشريط الأسفلتي الثعباني وسط الصحراء، ولم يستطع أن يرى في الظلام المحيط سبب توقف طريق سريع كهذا، فسار نحو السيارة الواقفة أمامهم محاولًا ألا ترتطم عينيه بمصباحي السيارة المتوهجين، ومال نحو نافذة السائق الذي كان يقلُّ أسرته كلها في السيارة، وسأله:

- مسا الخير... ما بتعرف شو هو سبب كل ها العطلة؟

ارتفع حاجبَا الرَّجل قائلًا:

- إنتَ ما عندك راديو بالعربية؟! الطيارات الإسرائيلية قصفت حزب الله ببيروت، ووصل الضرب لقرى بالشمال،كل ها الناس مغادرين ناحية الشرق، فيهم يهربوا.

زفر الأصلع في ضيق، ورفع ظهره متطلعًا لجيش السيارات المضيئة، ومشى متثاقلًا للسيارة حيث وجد ثلاثتهم خارجِين. إسماعيل يقف مستندًا بردفيه على السيارة مفتوحة الأبواب،

بينما جلس محمود وصديقه على جانب الطريق، ولا يعلم أيهم تحديدًا تساءل:

- شو في؟

ولكنه رد بلهجة آسفة:

- بيروت بتنضرب هلأ، وكل الناس بدا تفل للشرق... خايفين ع بيوتهم...

ثم ساد صمتٌ غريبٌ مفتعلٌ بلا أيِّ رد فعل، وفجأة صاح محمود:

- ضربوا القرية... ضاعت زوجتي وبنتي.

ثم أخذ يزعق في حيرة، وتختلط الكلمات على شفتيه فتصطدم ببعضها البعض حتى بدا كالمجاذيب، وأصاغ إسماعيل سمعه فترامت إليه الأصوات القادمة من طابور العربيات الطويل محملة بصراخ بعض السيدات والرجال، وبدا كأن الكل قد جن، أو أنَّ المدينة نفسها جُنت، والطريق جنت... وقام الأشقر مصطحبًا صديقه التائه بعيدًا عن الأسفلت الساخن المحروق نحو وسع الصحراء؛ ليهدئه، وما إن كادا أن يصيرا شبحين في عتمة الليل، حتى صاح الأصلع:

- ضلكوا ظاهرين، من شان لو انفتح الطريق...

ثم تنهد غير متأكد ما إذا كان سمعه أحدٌ سوى صداه المنبعث من الداخل، وأخرج من جيبه علبة من السرطان المبكر،

وأمراض الرئة والشرايين، وفضَّ غلافهـا، وأشـعل إحـدى لفائفها...

قال إسماعيل، وقد نبهته زفرات الدخان التي ينفثها الأصلع:

- كده بنتأخر ع الجماعة، على غير العادة.

بحث في أروقة ذهنه عن رد، فلم يجد شيئًا ذا قيمة...

- فيهم يعذرونا، التأخير منه من ناحيتنا وحدنا.

أومأ إسماعيل مجاملًا، ولفَّ عينيه للصحراء كأنه يتأمـل، أو ربما فقط لينهي حوارًا لا طائل منه، ورأى الشبحين جالسـين أحدهما بعيدٌ عن الآخر... ثم لاحظ أنَّ الأشـقر يقتـرب في بطء- تاركًا صديقه في مكانه- حتى صار في بقاع الضوء التي ترسمها مصابيح الطريق، وانزعج الأصلع لمرآه هاتفًا:

- ليش تركته وهو بها الحالة ؟ كان فيك تكون حدُّه.

فأجابه، وهو يفترش الأرض من جديد :

- قال بدي أقعد لحالي شي دقايق.

- تقوم تتركه، ممكن يعمل في نفسه أي شغلة، والـصحرا ضلمه هلأ.

- الله وكيلك... فيك تروحله إنتَ وتقنعه.

بدا عدم اكتراث الصديق غريبًا، لكنه ربما يكون الوحيـد الذي يعرف طبائع محمود فعلًا... وتأمل الشبح الجالس علـى

صخرة بعيدة يهتز كـــأنما يبكي... فعدل عن الـــذهاب إليـــه خشية إفساد لحظاته الخاصة. ثوان ووصلهم صـــدى صـــوت محمود باكيًا محطمًا، انتفخت أساريره كلها في صـــوت بكـــاء عاجز، فانثنت وجنتاه وأطراف عينيه لتنكمش ملامحه وهو يئن، وضاق به جسده الخائر ضئيل الحجم ذو الأربعين عامًا، أمـــا روحه القلقة الباكية فقد شاخت منذ زمن بعيد...

منذ أن دخل عليه سالم جارهم عارضًا عليه حمل السلاح، والذهاب معهم للجولان، وربما شاتيلا...

– بس مرتي يللي صارت حامل... وين أتركها؟

اشتم سالم في لهجته عجزًا مهيضًا، واشتمه هو أيضًا لكنـــه عجز حتى عن صده. ذهب سالم مع آخرين، ومـــات علـــى الجبهة فبكى مثل الحريم، قالها له عم زوجته وهو يوبخه فيمـــا بعد، كان محطمًا ويائسًا إلى الحدِّ الذي دفعه إلى ترك زوجتـــه الملتاعة يوم وصول الأخبار، ترك كل شيء، وترك الجنين الذي ما زال ينثني في أحشاء زوجته وفرَّ إلى الطرقات! سألت سماح عليه طوب الأرض، ودارت كالمجانين بين منـــازل أصـــحابه وأقاربه حتى شلَّ مساعها، وانطفأ نورها، فجلست في بيتـــها واهنة، غريبة في دارها، تحتضن بطنها المملوءة التي بقيت لها من أطلال تلك الدنيا، وتتمنى ألا يولد الجنين؛ كي لا يجد نفسه بلا أب، إن كان قد مات، أو اختفى، أو ربما ذهب فهجم علـــى الإسرائيلين بمفرده...!!!

هكذا كان يخاطبها عقلها المهتاج في ظل غياب زوجها، ولكنه ظهر بعد أسبوع، مبعثر الأوصال كأنما كان يتسوَّل في الشوارع، وقد بدأت ذقنه في النمو. جلس على الأرض في باحة المترل وبكى من جديد، ربما لمروره ببيت سالم، وبيوت أصدقائه شهداء الحرب في طريقه للعودة الذليلة... اقترب منه عمٌّ زوجته صارم الملامح، وكان يحمل السوء في طياته:

- ما قدرت تتحمَّل، حسمها لفظ الجنين، الله يعوض عليكن.

أدار عينيه الغائرتين نحو الرَّجل العجوز، ثم بكى من جديد، وضاق به العجوز فصاح:

- ما كان فيك تتركهن لحالن، إلهد حيلها وهي بتسأل عنك اللي يسوي واللي ما يسوي...

ثم أكمل مغضبًا:

- وبعدها وهي مريضة ع السرير، قاعد تبكي هيك متل الحريم، قوم يا شيخ...

لم يستفسر منه أحد عمَّا فعل خلال هذا الأسبوع، مسرت الأيام قاسية في البدء، ثم أكثر سلاسة وعاد للزوجة بعض من شباها السابق، واكتفت بذلك، كأنها خشيت أن تسأله عمَّا حدث فيرحل من جديد... ربما الكل ظنَّه قد حارب!! بينما

هو يعلم أنه لم يحارب، هو جبان، ولم يستطع حتى في اندفاعاته الغاضبة إلا أن يلعق ثرى الأرض ممنيًا نفسه بالموت الذي يستحقه... وحتى عند ضرب المدن والقرى الجنوبية، وما فعلوه بقانا ذات مساء، المذبحة المهينة التي قضت على أي أمل في الخلاص، البكاء... ولا شيء سوى البكاء.!! فقدت زوجته معظم أهلها في تلك الأيام، وصارت البلد كلها وكأنها تشتعل، ووصل القصف إلى القرى المجاورة لهم، ولولا أنّ قريتهم تقع عند سفح الجبل تمامًا، لغسلتها النيران الإسرائيلية من المدنيين الأقذار، ولوطئتها أقدامهم الشريفة التي تدنس كل شبر من الأرض...

– ليش نحنا في الجنوب؟ كل يوم دمار، وبيروت مش عم تحس بينا... ليش نحنا ما نفل؟!

بصقها من فمه الباكي للرجل العجوز يوم عودته بعد موت سالم، وأعقبها بنهنهة حارة... فاستغفر الرَّجل:

– أعوذ بالله؛ لأنه هايدا قدرنا... هايدي أرضنا، فينا نحارب لكل شبر فيها، ولو فلينا ع الشمال، من بدو يحارب لإلنا.

ساعتها بدا له ما حكي هذا العجوز تخريفًا... له من أقاربه من رحل منفضًا عن نفسه ويل الجنوب، ومكتفيًا بتبرعات مالية، وزيارات قصيرة لمسقط رأسه، وكأنه متحف للتاريخ الطبيعي، وبدا له أنّ هؤلاء هم الرابحين... أخذوا من تاريخهم

ما يعينهم على حاضـــرهم، ثم حولـــوا حاضـــرهم لينعمـــوا بمستقبلهم... أما أهل زوجته سماح فلم يرحل أيٌّ منهم، تشبثوا بالأرض حتى اقتلعوا من جذورها... الرجال ابتلعتهم فكـــاك الجبهة فلقوا أشرف ميتة لهم، والنـــساء... حـــتى النـــساء!! أحرقتهن الانفجارات في دورهنَّ أحياء... وأصرت هي علـــى عدم الهرب، حتى ونيران الانفجارات تلعق وجـــوههم داخـــل المترل بحرارتها المقيتة، وحشث الموتى تنقل إلى المدينة يومًا بعـــد يوم، وحتى عندما تصدَّعت المدينة، وفاحت رائحتها العطنة في أرجاء لبنان كلها، وصار الجميع على يقين مـــن أنَّ بـــيروت تسقط بلا عودة... رفضت الفرار.

نظرت له بحدَّة وتبيَّن جمال ملامحها في إصرارها الوحـــشي، كفاكهة صعبة المنال بعيدة القطاف، غزلت بعينيها فوقه خيطًا من الذل، توقَّع أن تحتقره؛ لأنه يرجوها الرحيل إلى أهل أبيه في الأردن ولكنها قالت:

– محمود... إنتَ راجلي .. وما إلي غيرك، بدنا نظل هون، ببلدنا...

وابتسمت مخففة من نـــبرات الاختنـــاق في أعماقهمـــا... فاستسلم لرغبتها كعادته، ظلت هي على قوتها وبأسها تمثالًـــا جميلًا للشموخ، والعزة، والكرامة... مثل أهلها، وسرعان مـــا ترامت الأنباء بترك الإسرائيلين لبيروت، وانسحابهم من معظم القرى، ولأيامٍ توقَّف نزيف الدم الوحشي من الجراح في البلـــد

كلها. جلس مع الرجال على القهوة يتاحكون، فـيهم مـن حارب ومن فرَّ إلى الأردن، أو سوريا، أو حتى شمال البلاد، ثم عاد بعدما هدأت الأمور، وفيهم من بقي مطعونًـا في مكانـه مثله... وتطلع إلى أبي سالم المناضل الذي حارب منذ سـنوات عديدة، ووهب ابنه وقودًا للمعركة... وحين لاحظ أبو سـالم نظراته إليه، قال ضاحكًا، وهو يكمل حديثًا بدأه:

– ما تفكر إني صرت ختيار... أنا أشب مـن أمثالـك، وبافهم في السياسة متل الريس نفسه.

كان شاردًا، فلم يفهم ماذا قصد الشيخ بجملته المفاجئـة، لابد أنه كان يتحدث في أمور السياسة وظن أن محمود ينظر له متهكمًا، بينما هي في الحقيقة نظرات مليئة بـالاعتزاز هـذا المناضل العجوز... أشب من أمثالك!! بالطبع هو أشب مـن أمثاله مائة مرة، فبداخل محمود نما عجوز يائس يومًا بعد يوم، وقال أبو سالم:

– ايوة هيك مثل ما قلتلكن... أنا باعرف اليهود، بخلـوك تغفى في العسل... يقولك هانخرج وما بدنا نحارب، وفجـأة يولعوها من جديد في الوقت اللي بدهن إياه...

سحَب أحدهم نفسًا عميقًا من النارجيلة وقال:

– كلامك مليح... ليش ما في حدًا فايق شو صار من شي تلات سنين؟قالوا ما هنحارب، وفي الصبح كانـت الجثـث مشلعة بكل محل.

غمغم آخر مفرط في الكآبة:

- ما بظن بيحاربوا !! البلد صارت متل الميتين، جثة بتمشي بلا راس... حتى بيروت يللي كانوا بيهربوا إلها ضاعت، ليش بتظنوا فيهم يحاربونا؟!

نظر أبو سالم لمحمود الواهن وقال:

- بيحاربونا لإن عندنا شباب فيها تحارب، وهما ما بيرضوا يكون في أي شاب في حياله مكان.

وابتسم في وجه محمود بعد مجاملته اللطيفة، فتحطمت أشلاء كرامته التي كان يحاول جمعها عندما نعته الشيخ بالشاب، ووصفه بأنه "فيه يحارب" وحين توقفت روحه في حلقومه، نهض مودعًا الرجال، متعللًا بذهابه للعمل باكرًا، وعندما أعطاهم ظهره خارجًا من القهوة جلده الحديث الدائر فيها والنبرة المفاخرة...

- شايف؟ عندنا شباب بتروح لشغلها بكير، مش عواطليه مثلكم...

أخذ يسير مثقلًا بالمديح من خلفه، ومحدقًا في الحصوات التي تخشخش تحت وقع أقدامه، سار حتى نهاية الشارع مطرقًا، لهذا لم يبصر تمامًا وجوه الشخصين اللذين مرًّا به على مقربة من القهوة في طريقهم إليها، ألقى أحدهما السلام في عجلة فرده إليه:

- وعليكم السلام ورحمة الله.

ثم أكمل طريقه بضع خطوات حين اهتــزت الأرض مــن حوله فجأة، وانبعث الغبار ضاربًا أطنابه من خلفه، استدار وهو يترنّح من وقع المفاجأة والخبطة المدوية، فوجد أن القهوة الــتي كان جالسًا عليها صارت حطامًا مشتعلًا يمتصُّ نيرانــه هــواء الليل ويذكيها، وامتدت النيران المقرقعة إلى أجساد من حــاول الخروج من الرجال خلال الأبواب، واســتطالت الــشعلات المميتة حتى بلغت منزلًا مجاورًا، تحطم زجاج الباب وخــشبه، وخرج شخصان من القهوة يترنحــان والــنيران تنهــشهما في ضراوة، فسارًا بضع خطوات صارخة حتى انتهت قواهما علــى الأرض...

وحين غشي المنظر الدامي أمامه ميــاهٌ حجبــت الرؤيــة، واطفأت النار داخل عينيه، أدرك أنه يبكي بحرقــة، وتــصاعد صوت بكائه شيئًا فشيئًا من النهنهة إلى النــواح الــصريح، ثم استحال صراخًا وهو يركض نحو النيران المــستعرة في قلــب القهوة المقتولة، وسقط على ركبتيه أمام النار مباشرة، وســط الجثث، وسالت دموعه على التراب المشبَّع بــدم أصــدقائه، واندفن رأسه ساقطًا في الأرض الترابية فبــدا كجثــة وســط الجثث، يبكي بحرقة...

يبكي! من جديد يبكي... كالحريم أو كالرجال، لم يعــد يعنيه سوى أنه لم يمت وسطهم، وتمنى لو كان سيف الموت قد

طاله معهم فيصير شهيدًا، فجأة داهمه شعور قوي ومقيت وهو نائم بين الجثث المحترقة أنه جبان... وكأنه جندي هرب من المعركة، أو تظاهر بالموت على الأرض حين أتت كتائب العدو، كأنه جندي ترك زملاءه يُقتَلون وهم شاهرين أسلحتهم دون أن يساعد لمجرد أنه مغمض عينيه، وساكن في مكانه كجثة، منتظرًا رحيل العدو لتدب فيه الحياة المخادعة، وتمنى الموت من جديد، تمنى ألا يرجع مترله لتنظر له سماح بشفقة وعطف، ويبصر داخل عينيها عزة وقوة أهلها الخالدين فوق تراب الأرض المحترقة، ونذالة أهله الفارين إلى كل مكان، تمنى ألا يرجع إلى أم سالم العجوز المكلومة ليخبرها بمقتل زوجها بعد ابنها، تمنى ألا يصير الشاهد الوحيد على مأساة قاصمة، بالتأكيد فعلها الرجلان اللذان دخلا من بعده، وهو حتى لم يكلِّف نفسه عناء رفع رأسه لينظر إلى وجهيهما.

هزَّه شعوره بأنَّ أرواح الرجال الموتى كانت رهنًا برفعه لرأسه، وكأنه إن نظر إليهما لظهرت نواياهما من أعينهما، وكأنه كان سيعود صارخًا للرجال محذرًا إياهم، ومنحهم على الأقل فرصة للقتال، بل هو لم يلتفت أصلًا وهو يرد عليهما السلام، وعليكم السلام ورحمة الله... أغمض عينيه حين تذكر الدقائق الأخيرة، وظل في موضعه على الأرض ساكنًا حتى أحرق قرنيتيه نور الشَّمس القادم عبر الأفق البعيد...

***

امتص الأصلع من لفافته في نهم مليء بالقلق، حتى كـــادت أنامله الغليظة أن تبلغها النار، ثم خرج الدخان مـــن صـــدره متوهجًا في الهواء كأنما يحمل معه المعاناة والانتظـــار المقيـــت، وتسللت إلى ذهنه بغتة موسيقى خافته أرستقراطية خارجة من عقله هو، تبعها بصفير منغوم من شفتيه المزمومتين، وهو يحاول تذكر أين سمع هذا اللحن في حياته...!!

هل كان هذا خلال أعوام عمله الغريب؟ أم حـــين كـــان مراهقًا في سنوات الجامعة؟! ثم جاءت الحقيقة ممطوطة متعاقبـــة كأنها تترسب شيئًا فشيئًا... هذه الموسيقى سمعها بالضبط بـــين عالميه المتضافرين، تحديدًا في الليلة التي قادته لأن يكون هنا بعد ثمانية أعوام كاملة في لبنان، وقت القصف الإسرائيلي بينما أهله لا يعلمون على الإطلاق أنه خارج البلاد، وربمـــا لا يعلمـــون كذلك أين هو!! كان حفلًا خيريًّا مقامًا للاجـــئين سياســـين داخل بلده، وتم دعوته لهذا الحفل من خلال كليته التي أنهـــى عامه الأخير فيها بالفعل، وأخبره من سلّمه الدعوة أنه مشارك باسم الكلية؛ بسبب تفوقة دراسيًّا وفنيًّا... وحين ذهب للحفل المقام في سفارة تلك الدولة مرتديًا بذلة والده السوداء، وجدها سهرة مبهرة من التي لم يرَ مثلها سوى في الأفلام...

موسيقى هادئة، وأشخاص يتكلمون في حديقة تطل علـــى حمام سباحة، مصابيح معلقة في أمـــاكن مختلفـــة، وبعـــضهم يتضاحك على سبيل المجاملة وهم يمسكون كؤوسًا نصف مليئة

كما يرى في الأفلام أيضًا، ولكن ما أثار دهشته هو عدم وجود أيٍّ شخص في مثل سنِّه كما يفترض أن يوجد، فلم يرَ أيَّ طلبة من الكليات الأخرى، وفكر أنه لولا الدعوة المكتوبة باسمه لما أدخله ضابط الأمن الذي يظهر مسدَّسه من تحت سترته؛ ليبعد الفضوليين والإرهابيين على حدٍّ سواء. وهكذا بعد دقائق الانبهار الأولى، صار الحفل مملًّا ثقيلًا عليه، ومحيرًا بلا أيِّ معنى، مدَّ يده إلى البوفيه المفتوح محاولًا الظفر بأيِّ شيء بعيدًا عن الخمور، فأخذ إصبعين من الباتون ساليه الذي يستعملونه كمقبلات للشراب، وضعهما في طبق وهمَّ بالمغادرة، لولا أن امتدت يدٌ بجواره تأخذ إصبعين آخرين من الصينية الواسعة، وقال صاحب اليدين وهو يبحث عن طبق له:

– حفلة بنت كلب مملة...

التفت نحو الصوت مدهوشًا من لهجته الحميمة وكأنه صديق، فطالعه رجل بدين قليلًا، يشير شيب فوديه ومفرق رأسه إلى ما فوق الأربعين. وجد الرَّجل الطبق ورفع رأسه مبتسمًا، فحاول الوصول لأي شيء عبر ملامح الرَّجل المفرودة أمامه، ولكنه لم يجد أيَّ معرفة سابقة...

حزر الرَّجل ما يفكر فيه الشاب، فقال في ود:

– معلش، حاول تركز أكتر وانتَ تعرفني... عمومًا مش مهم.

ونفض رأسه معلنًا عن عدم أهمية معرفته، ثم تابع دون انتظار أيِّ ردٍّ، وكأنه نهرٌ يسير نحو مصبه:

- بقالك سنتين أهو بتجيب درجات هايلة في الكلية، وبإذن الله هاتطلع مصور عبقري، ولا عمرك مشيت في مظاهرة، ولا عملت اعتصام، حقيقي حاجة تشرف.

استغرب حديث الرَّجل الذي مدَّ يده اليسرى محيطًا بها كتف الشاب المذهول، ثم بدأت صخور الذكرى تنهال على رأسه، النهر الذي يسير نحو المصب!! لم يتذكر بسهولة، وبدت له أحداثًا دخانية لم يتعرفها...

- والله لولا إن انت كويس وابن ناس وبتسمع الكلام، ما كنتش جيت هنا.

يقتله التركيز في ملامح الرَّجل، صوته بالأحرى... لم يبد مميزًا ولكن له رنة مختلفة، انزلق ذهنه مرة واحدة فهوى وارتطم بالحقيقة، وضاعت السنتان اللتان تفصلان بين لقياه في المبنى الحكومي، والغرفة المملولة، وبين مرآه هكذا في الضوء ووسط الناس، وشعر بالسخافة والتقزز، وكأنه يرى شيئًا مشينًا، وميز فيه الرَّجل تلك الملامح سريعًا بعيني محترف، فأدرك أنه قد تعرف على هويته، لذا قال:

- أنا العقيد حسام جلال، إتقابلنا قبل كده، وباين إنك خلاص كده افتكرت...

وأنزل يده اليسرى من على كتف الشاب لينقل إليها الطبق ويمد يمناه... و لم يجد الشاب أيَّ غضاضة في مدِّ يده لتترلق بين أصابع الرَّجل الضخمة والناعمة، فعلاقتهما التي كانت قصيرة لم تكن دامية، والرَّجل لم يكن له سوى أب ناصح، وها هو الآن يحاول لعب الدور ذاته وهو يتابع:

– مالك؟ مابتردش ليه؟! عمومًا إنت طبعًا ماجيتش هنا علشان تمثل الكلية والهبل ده، ولا أنا جيت هنا عشان حفلة اللاجئين... إحنا الاتنين جينا؛ عشان شغل.

كان ما طاوعه به لسانه هو:

– شغل؟!

– ايوة، إحنا بنراقبك من سنتين تقريبًا، مش عشان المظاهرة الهايفة دي... لأ طبعًا، إنما عشان انت كنت مثال كويس جدًّا لحد ممكن يفيدنا، والمظاهرة دي هي اللي خلتنا ناخد بالنا منك، عشان كده أنا بقولك أن دي أحسن حاجة إنت عملتها في حياتك... فيه إيه؟

ختم العقيد عبارته متسائلًا، وقد لاحظ النظرة المصدومة والمندهشة للشاب. كان توقفه تمثيليًّا فهو بالتأكيد يعرف أنَّ ما يقوله مذهل جدًّا لأيِّ شخص، وعلى الرغم من أنَّ عيني الشاب كانتا تسبحان في الفراغ، إلا أن العقيد تظاهر بمتابعة خط بصرهما حتى توقف عند كتفٍ نسائيٍّ عارٍ يرتدي فستانًا

مفتوح الظهر، ويقف مستديرًا على مبعده، وتظاهر بالغضب كأن الشاب كان ينظر إلى هناك بالفعل:

- مش معقول أبقى هاري أنا فروحي، وانت باصص ع الولية اللي هناك دي، أنا عارف إنها عاجباك، قوللي بعد ما أخلص كلام، وأخليها الليلة دي تنام تحتيك لو عايز.

وغمز بعينه ثم قهقه ضاحكًا فجأة، ولم يجد الشاب ما يفعله سوى أن يشاركه الضحك، وكأنه عهد وميثاق للصداقة والعمل معًا في وقت واحد، واستمر العقيد في الضحك طويلًا كأنه قال أعظم نكتة في الكون، أو وكأنه يضحك على نكتة لم تقل بعد، كانت في طريقها من عقله إلى شفتيه.

وعلى الرغم منه أفلت الأصلع ضحكة قصيرة متهكمة، وهو يلقي بالسيجارة على الأرض ويطفئ شعلتها بقدمه، ولسبب ما بدا ذلك مزعجًا لإسماعيل الواقف إلى جواره؛ ربما لأنه لا يتناسب مع حالة محمود الذي جلس بعيدًا كالشبح يبكي من قلقه الذي كاد أن يتحوَّل إلى حقائق، ونفض الأصلع عن نفسه وعثاء الذكريات المتقدة، ونظر في الفراغ المحيط بهم في الصحراء ثوان وصاح إسماعيل كأنما يستفيق هو الآخر:

- شوفوا... انفتح الطريق هلأ.

نظر الأصلع والصديق الجالس مختلطًا بالتراب، فوجد رتل السيارات المتجمهر قرابتهم يتحرك لأول مرة منذ ساعات،

وفي خضم شقشقات الفجر الأولى التي بـدأت تغـزو أفـق الطريق... صارت كشافات السيارات المضاءة في المكان بـلا معنى، مبتذلة وسخيفة كأنما هي احتفالٌ صـامتٌ بـلا معـنى للخروج من عنق الزجاجة في الطريـق. وقبـل أن يتحـرك أحدهم، تطايرت نوافير السيارات التي تسبقهم فصاروا بحاجـة للرحيل، وقال الأصلع للأشقر مشيراً لمحمود:

- روح قله نحنا لازم نمشي... وانت يللي فيك تسوق..

تحرك الصديق مسرعًا نحو الشَّبح الجالس بعيـدًا، وأخـذ يكلِّمه، ويساعده على النهوض، ويحضره إليهم، وكأنه يجلـب جثةً ميتةً من داخل الصحراء... وارتعشت يدُ إسماعيل لهـول الفكرة التي مرت في رأسه فجأة فأصابته بدوار سـريع... إنَّ المنظر من بعيد يبدو وكأنه وجد صاحبه ميتًا فلـم يـصدِّق، يستطيع أن يفسر كل حركاته ومحاولاته لإنهاض الجالس كأنها محاولات إحياء متعاجل للميت، من صديق مخلص لا يـصدِّق تلك النهاية الصامتة... وحتى وهما يسيران سويًّا نحوهما ذائبَـا الملامح في الظلمة كأنهما شخص واحد، تساءل إسماعيـل في ذهنه عمَّا إذا كان باستطاعة الجثة أن تـسير متـسندة علـى شخصٍ آخر!!!

- يلَّا...

ركب الأصلع السيارة في نفس مكانه وتبعه إسماعيل، جلس الصديق في مقعد السائق، واندلقت جثة محمود مميزة الرائحـة

على المقعد المجاور، ورأى إسماعيل عينَي محمود الدائرتين في زيغ ولونهما الأحمر يشي بوقت طويل من البكاء، فأصابه شعوره المتعالي من جديد، وكأنما تركته رجفة التخيلات المميته الخالية من المعنى... وعلى الفور أدار الصديق السيارة مبتعدًا عن المكان عبر الشريط الأسفلتي محاولًا اللّحاق بالسيارات التي سبقتهم بمسافة كبيرة، وعلى الرغم من أنّ كل السيارات كانت تسير متباطئة في طابور نملي طويل، إلا أنها كانت ذات حركة تلقائية منتظمة نحو بعلبك، ودارت في رأس الصديق فكرة فقال:

– ما فينا نطلع ع بعلبك، تا نفر من الزحمة ممكن نطلع ع البرجاوي، ناحية الأشرفية...

ثم التفت إليهم من مقعده سائلًا المشورة والصَّواب، ولكنه كان مخطئًا! فأيهم لم يكن لبنانيًّا، ولم تكن جثة محمود المتراخية بقادرة على الكلام، ولهذا أدار رأسه متبعًا هواه... وفي خلال دقائق كانت السيارة قد أطلقت فحيحًا مكتومًا وهي تغادر الطريق الأسفلتي إلى الصحراء المنبسطة في أولها، وترجَم إسماعيل الوثبات التي تواثبتها السيارة، وهي تبتعد عن القطيع على أنها مؤشر جيد... ويدل على وعورة هذا الجزء من الصحراء وصلابة أرضها، وفضَّل ذلك بالتأكيد عن النعومة التي قد تتسبَّب في غرس الإطارات في الرمل...

اهتز جسده البدين تحت وطأة حركات السيارة على الطريق الوعر، وقفز إلى ذهنه بعنف ما حدث في ليلة الفضيحة المشؤومة... تسارعت الإجراءات بعد اللقاء الأول مع أحمد شاكر، وانكتبت العقود في أقل من أسبوع كأنها مدفوعة بقوة سحرية، ولأول مرة بالرغم من كبر سنه أدرك وجود هذا العالم الضّخم من التهريب تحت أنوف البلد كلها، وأدرك أهمية العقود في مثل تلك الصفقات، تمامًا كما تخيل، نوعًا من العرف أكثر من أيِّ شيء آخر، وارتباطات أو أشباح من الارتباطات، فكل طرف في الصفقة يدعي أنه ليس نهاية السلسلة، وأنّ هناك من يفوقه حجمًا، وسُلطة، ونفوذًا، ويعمل من خلف الستار، حتى ولو لم يوجد مثل هذا الشخص.

فالفكرة كلها تمنحه المزيد من حق المساومة باسم تلك الأطراف العليا، وتمنحه حق المماطلة والتفكير عدة مرات، وكذلك يلوح من خلالها تهديد الانتقام في حالة الغدر، ولهذا صارت العقود والتوكيلات اتفاقات بين تلك السُّلطات المتنازعة في سوق الأسلحة داخل فلسطين، وتعد عرفًا سائدًا. وكان هذا هو كل ما نجح إسماعيل في إدراكه خلال أسبوعه الأول، حتى أخبره شاكر في التليفون المحمول بموعد إبرام الصفقة نهائيًّا من خلال إمضاء العقود، في العاشرة مساءً في الفيلا... حسنًا سأكون هناك... وأغلقا التليفون بعدما تبخّر كل ود اللقاء الأول في اللقاءات التالية... وفي تمام العاشرة،

استقبلته هو وسكرتيره الخاص موسيقى فساحنر المتوهجة في رحاب أضواء الفيلا... وقادهما أحمد شاكر إلى بعض الرجال الذين لم يعرفهم إسماعيل من قبل...

- إسماعيل المروان... إذا حدًا فيكم بدو أي استشارة قانونية فيكم تسألوه، هايدا الزلمي عبقري.

وابتسم شاكر بعد تلك العبارة، وهو يناول الوافد الجديد كأسًا من الشَّراب الأحمر الفاخر.

- فيك تتعرَّف ها الرجال يا أستاذ إسماعيل، همَّا أصدقاءنا، وعم بيفيدونا كتير.

وعلى الفور اختلط بالموجودين في المكان الذين أسماهم شاكر، الأصدقاء!! وقد لاحظ بسهولة اختفاء زهرة غالب الفاتنة، التي لم يرها قطُّ سوى في المرة الأولى التي زارته فيها بمكتبة، وسحرته فتنتها، وحين قابلته في مطعم ما لتعطيه عنوان أحمد شاكر. وكان يتوقَّع أن يراها في تلك الليلة في حفل التوقيع، لكنها للأسف خيبت ظنه...

وبعد العشاء وتوقيع العقود، مال شاكر على إسماعيل مستأذنًا إياه في كلمة، وحين انتحى به في المكتب، أعطاه الدفعة الأخيرة والكبرى المتبقية من أتعابه. خرجًا من الحفل بعد نهايته قرب الفجر... وترنحت سيارته الجديدة السوداء - ذات الزجاج الغامق الفيميه- على الشوارع الخالية في رام الله، كان

قلب إسماعيل ينبض بالسعادة، لأول مرة يحصل على مثل هـذا المبلغ الكبير دفعة واحدة، وتبدّد كل الخوف الذي كان يلجم عقله، ويدعوه لعدم إبرام تلك العقود المؤطرة بمخالفة الحكومة الصريحة، وصاح في سكرتيره الذي كان يقود السيارة:

- أنا ما فيَّ إنساك يا جمال، فوت على بكير في المكتب، وليك مكافأة...

ثم قهقه ضاحكًا بلا سبب، وهو ينظر إلى الشوارع الخالية تقريبًا، التي تطويها السيارة الجديدة في خفة مريحة... حتى لفت نظره فجأة طفل واقف من بعيد في موضع إشارة مفتوحة، يمسك بضع علب من المناديل، وعقودًا من الياسمين المحلى - الذي يطلق عليه مجازًا فلّ - وينتظر أن تنغلق الإشارة؛ ليبيع لراكبي السيارات، وانتشى إسماعيل بلا سبب لمرآه؛ ربما لأن الإشارة لن تغلق في ذلك الوقت المتأخر من الليل، أو لأن السيارات لن تمرَّ أيضًا في ذلك الوقت، وأنَّ ذلك الفتى لن يصيبه من رزق الليل سوى البرد القارس الذي يخيم على المكان... لا يدري أأسعده هذا وأثار شغاف قلبه؟! أم أنها فقط الفرصة المتاحة لعمل الخير هي ما سرَّه؟ في الواقع شعَر بقوة مندفعة في عروقه، وكأنه امتلك مصير ذلك الفتى، وتلك الشوارع الخرساء، و لكز سائقه في كتفه مسرورًا وهو يقول:

- إركن هنا ع الإشارة.

وهكذا في صمت الشارع الوجيب، أطلقت السيارة صريرًا مفزعًا وهي تتلون بالضوء الأخضر حينما وقفت أسفل الإشارة المعلقة، وكانت معتمة الزجاج فاندهش الفتى و لم يتمكن من تحديد راكبيها، ثم انفتح الزجاج جزئيًّا وأطلت منه يد غليظة الأصابع توحي بالثراء، وأطاحت تلك اليد فجأه برزمة من النقود على الأرض إلى جوار الفتى، فظن الفتى أنها سقطت خطأً من صاحب اليد، وما إن انحنى ليحضر النقود حتى ابتعدت السيارة بصرير مكتوم أمام عينيه الذاهلتين، وعلى الرغم من أنها ابتعدت لمسافة كافية في الشارع الواسع، إلا أنّ صوتًا منها انطلق وكأنه يزغرد:

– طول الله عمرك يا إسماعيل بيه، ربنا يبارك لإلك في مالك وصحتك...

وكان هذا هو آخر ما يذكره إسماعيل عن تلك الليلة السعيدة حتى منتصفها، بعد ذلك طرق البوليس بابه في الفجر، وسحب بملابس نومه وسط الذهول، والدموع، والتوجس، والهلع الصارخ إلى المخفر، وهناك بدت له حشود الصحفيين وكأنهم ينتظرون القبض عليه لإتمام صفحات جرائدهم الصادرة للغد... وهكذا بدون توجيه أيِّ تهمة تمّ تصويره عشرات الصور الكفيلة بتحطيم سمعته كمحام وكمدير للشئون القانونية، ودمَّرت الفلاشات المتطايرة على مدخل قسم الشرطة ملامح وجهه، وكأنها تنهشه بأسنانها البيضاء اللامعة، وأشاح بيده المغلولة أمام وجهه كأنما يمنع عنه عدسات المصورين،

وهؤلاء العساكر يقودونه إلى الداخل، ولكنها ما كانت إلا فرصة جيدة لتصوير وجهه وغلالات يديه معًا، وألقي داخل زنزانة مفردة فجأه بدون حتى معرفة تهمته. اندهش من انكشاف أمر الصفقة بتلك السرعة المذهلة، وأدرك أن السجن المؤبد لم يعد بعيدًا عن واقعه إلى هذا الحد.

كان منذ ساعات يمتلك الشوارع الخرساء وينتشي؛ لأن الطفل الواقف في المحطة ستقرصه البرودة بينما هو في سيارته، والآن هو في السجن مهدَّد بانتهاء مستقبله، وزواجه، وحياته، وكل شيء... بل قد يقضي عمره كله في السجن، بينما هذا الفتى ينام الليلة في بيته، وأمامه مستقبله كله الذي إن لم يكن واعدًا، فهو حافل بما يكفي.

وفي صباح اليوم التالي، دخل له أحمد شاكر إلى الزنزانة، وكان محطمًا نفسيًّا لم ينم طوال الليل ضاربًا الاحتمالات في ذهنه، وقد زاد من فزعه أنه يدرك أبعاد كل تلك الاحتمالات بوصفه محاميًا، لهذا لم يتعرف عليه بسهولة خاصة مع الضوء الساطع الذي يأتي عبر باب الزنزانة المفتوح...

– أنا أحمد، أحمد شاكر...

قالها بصوت شاحب مضطرب كأنها تهمة يهمس بها في سرية لأقرب أقربائه، وبدا الحور في عينيه واضحًا أمام عيني إسماعيل المتغضنة من سهر تلك الليلة، وهتف إسماعيل:

- شو اللي صار؟! ليش أنا هون ؟! كرمال صفقة...

قاطعه شاكر قبل أن يتمم عبارته:

- والله ما حماني من الحكومـــة إلا مـــوقعي في الـــشركة العالمية...

ثم قبل أن يتكلم إسماعيل، أردف:

- بكرة العرض ع النيابة، ما تخاف نحنا ما بنترك رجالنا.

وأنهى حديثه بتمتمة لاهثة:

- العملية خربت، وربنا معنا...

أدرك إسماعيل المغزى من وراء الحديث المتـــوتر المـــذعور، ليست تحريات البوليس هي ما وراء القبض عليه، لقد وشى به أحد الأشخاص أو الجهات عن عمد، ولهذا وجـــد الـــصحافة تحاصر قسم البوليس في نهم الجائع إلى الفضيحة، هذا هو ديدن الفضائح في تلك الأعمال السرية القذرة، حتى إجراءات إلقـــاء القبض عليه، وسرعة عرضه على النيابة تبدو خيالية مـــدبرة!! صار الأمر لعبة واضحة في يد أحد مراكز القوى، أحمد شاكر قال له أنهم سيحمونه، وهو يمسك في يده بكأس المـــارتيني، في لحظة تبدَّد هذا السراب وصار كل واحد في مشقة إنقاذ عنقـــه الخاص، أو ربما كما خطر له هي مؤامرةٌ داخليـــة لإخـــضاعه لعروض وشروط لم تتحدَّد بعد !!

وفي الصَّباح حين مثل أمام النيابة فوجئ بـــأنهم يعرفـــون الكثير، عن الصفقة، وعن أنواع السلاح، وعن عمله، وحـــتى

عن أحمد شاكر الذي ذُكر عرضًا في التحقيق، فقط زهرة هي التي أفلتت من ملفات التحقيق كأنها سرابٌ، لم يـرِد ذكرهـا مطلقًا على لسان المحقق، ولم يكن إسماعيل نفسه يريد ذكرها، وكأنها شبح غاص تمامًا في جدار حياته، فلم يعد مرئيًّـا علـى الإطلاق!!

- بعد أيام بتنعرض ع المحكمة...

- أنا بدى أطلب محامـ...

- زوجتك والأستاذ شاكر عينو لإلك محامي .

حتى حقه في توكيل المحامي الذي يختـاره سـحبه المحقـق بحديثه، منذ متى وزوجته ذات خبرة بالمحامين؟! بالتأكيد عيَّنـه أحمد شاكر من تلقاء ذاته، ستكون محاكمةً سريعةً وزائفةً تمامًا كالتحقيق، والقبض عليه، وكل شيء!! أغمض عينيه في أسف لاعنًا نفسه على الاشتراك في هذا العالم المخادع الغادر، وخرج مطأطئ الرأس من عند ضابط التحقيق دون أن يهـتم حـتى بسؤاله عن زوجته التي لم يتحدث معها منـذ أن تم القـبض عليه...

وفي مثل سرعة التحقيق انعقدت المحكمة، وكان هذا معناه المزيد من الفضائح والصور في الجرائد، وعلى الرغم من إيمانـه بأنَّ القضية ملفقة، شعَر بالذهول لما حـدث بـداخل قاعـة

المحكمة!!! مئات الشهود معه أو ضده، تطورت القضية في خلال ساعة واحدة، حتى شعر أنّ العالم كله أتى؛ ليحضر تلك القضية المتشعبة الغريبة، ورأى شهودًا كُثر يشهدون بأنهم يعرفونه، وهو لم يرهم من قبل أصلًا، وشهودًا ينكرونه مع أنه يعرفهم جيدًا، ورأى في المحكمة زوجته وأقرباءه، تبدو عليهم مخايل الهلع، والقلق، والترقب الشديد.. ورأى لشدة دهشته تلك السيدة التي ترفل في ثوب أصفر نهاري زاه، مطلية الأظافر بعناية ودقة حتى ليشعر أنها تملك كل الوقت في الكون، تتابع سير القضية بلا اهتمام كأنه برنامج في التلفزيون... شعر أنه يشمُّ عبيرها من موقعه داخل قفص الاتهام... زهرة غالب!! أخيرًا بعد أن طافت في خياله مئات المرات، والتحمت صورتها بوقائع هذه الصفقات الغريبة المنكوبة، حتى فقد الأمل في رؤيتها، كما توقع ما كانت تبدو متعاطفة معه أو متحاملة عليه، فهي أصلًا تعرفه بالكاد، ولكن مظهرها وهي جالسة بطريقتها المعهودة، واضعة إحدى ساقيها فوق الأخرى، مظهرة السيقان الدقيقة الحادة حرك مشاعره كلها، وشعر بأنه يخون زوجته، وهو ينظر بكل جوارحه إلى غيرها تلك النظرة التي تفلت من اشتياق الرَّجل للمرأه، يكاد يسمعها تتأوَّه في ذهنه فكأنما هي نائمة معه على الفراش ذاته بعد ليلة من السهر الدافئ، تابعت عيناه أظافر يديها، وكتفها المغطى بقماش ثوبها

حتى استقر على عنقها ووجهها، وأضرم فيه طلاء الشفاه الناعم النيران، فأطلقت المزيد من التأوهات من خلاله، وهي منقوشة في عقله ورأسه يلامس رأسها، ويغرقان سويًّا في بحر من ظلام أسود مخدر...

تناقلته مشاعر الدهشة، والذنب، والخطيئة فيما بينها، كأنما هو طفل ضالٌّ يحاول البحث عن مخرج، وظل يشاهد المحاكمة الطويلة بعجز من يعلم بالنتيجة مسبقًا، وحينما نطق القاضي الحكم معلنًا براءته، أدرك أن هذه هي آخر فصول اللعبة، فما سمعه في التحقيق كان يكفي لسجن عشرة أشخاص على الأقل، وما نجاته في تلك القاعة إلا بسبب تدخل أحمد شاكر فعلًا أو سواه، نفوذ يفوق نفوذا!! نفوذ يزجُّ به إلى غياهب تلك المحاكمة، ونفوذ آخر يقوده خارجها...

وحين ابتسمت زوجته دامعة من الحكم السعيد، أدرك أنَّ الخدعة انطلت عليها، كما انطلت عليه رغم إرادته، وأنَّ فاصلًا جديدًا من حياته سيبدأ بعد تلك الفضيحة. فاصلٌ مختلفٌ... أعلنت زهرة غالب عنه حين قامت وأعطته ظهرها في رشاقة، وسارت للإمام نحو مخرج القاعة مع الأشخاص الخارجين، دون أن تنظر للخلف، ولو مرة واحدة لتضع عينيها في عينيه، وتابع هو خروجها باستسلام مقيت، وكأنما حُكم عليه بالموت، وليس بالبراءة والعفو العام، ليصير مستعدًّا لاستقبال المرحلة الجديدة في حياته، التي ستبدأ عن قريب...

صاح الأصلع في حدَّة:

- شو هايدا؟

وفرقع صدى الدوي في الصمت للحظات، وكـأنما هو أثر لصوت لم يكن موجودًا أصلًا، وكاد أن يشكّ في أنه سمعه لولا أن هتفَ الأشقر الذي يقود السيارة:

- هايدا صوت ضرب صواريخ...

ثم رأى الجميع في فزعٍ، الطائرات الثلاث التي عبرت مـن فوقهم محدثة ضوضاء عالية، واختفت على خط الأفق في ثوانٍ، أعقب هذا صوت انفجار آخر شديد، وأقرب إليهم بكثير من الصَّوت الأول. كانوا قد وصلوا لنهاية الطريق الشرقي الـذي يربط بين شارع البرجاوي الممتد كاللسان من طرف الأشرفية والطريق الصحراوي بين لبنان وسوريا، وتركَا الـصحراء إلى الأسفلت الممهَّد منذ حوالي نصف الساعة، فصاح إسماعيل:

- كيف بيضربوا هون؟ نحنا قريبين من سوريا!

تلفَّت الأصلع من حوله، كان النهار قـد اكتمـل تمامًـا، وأمكنه أن يرى عددًا من السيارات — التي تلتمع الشَّمس على حوافها المعدنية — تسير معهم على الأسفلت مفضلين الهـروب إلى سوريا من هذا الطريق، وخلفهم من بعيد، هـؤلاء الـذين تركوهم عند طريق بعلبك وقد وصلوا لـنفس النقطـة مـن

الرحلة، وأبصر الذعر على ملامح ركاب السيارات كلهم، الذين ظنوا أن فرارهم في ذلك الطريق يحميهم من الخطر.

ومرّت الطائرات مسرعةً من جديد فوق السيارات، وسمعوا صوت الانفجارات مرة أخرى، فحاول الأشقر أن يزيد من سرعة السيارة، ولكن المسافات بين السيارات أخذت تقل بإطراد إلى أن توقّف الصفُّ تمامًا كالمرة الأولى، وتعالت النوافير من كل مكان تحاول دفع المتوقّف من السيارت إلى الحركة... لحظات قلائل، وتصاعد الدخان من عدة أماكن في الأفق الممدود، وكأنها جراح هذا الطريق، وقد بدأت تترف من جديد من الضغط البشري المتوالي عليها.

حمل المشهد إليهم ذكريات مفزعة، وواقع يتجسَّد قد يكون أكثر إثارة للفزع، ثم دوى فوق الرؤوس صوت انفجار مخيف آخر، عالٍ وقوي، ويبدو وكأنه ينبع من الأرض نفسها، التي ارتجت بعنفٍ فور وقوع الصَّوت المخيف، وترجَّل الكثير من الركاب من سياراتهم في فزع راكضين على الطريق، على حين تصاعدت النيران من مجموعة غير بعيدة من السيارات، وارتجف إسماعيل من عنف الغضب، وهو يصيح :

– عم يضربوا الطريق مثل ما توقعت، كان المطار آمن لنا...

حاول الأشقر إدارة المقود، وهو يجـــذب عـــصًا القيـــادة للخلف:

- فينا نطلع ع الصحرا من جديد، بعرف جـــسر ممكـــن يوصلنا...

قاطعه الأصلع:

- ممكن يكون انضرب مع هيك انفجارات...

أسقط في أيديهم جميعًا، والأفق يتحوَّل للون الدامي عـــبر الدخان والنيران المنبعثة من السيارات المحروقة علـــى جوانـــب الطريق، وعبر الأصوات المتفاوتة للانفجارات، والصراخ في كل صوب، ولمح الجميع الهليكوبتر التي تحمل جنـــود حـــزب الله، وهي تمر على ارتفاع خفيض مثيرة للغبار، مفضلة هذا على أن ترتفع أكثر فتصير هدفًا مناسبًا للطائرات الحربية الإســـرائيلية، وحاول الجنود تهدئة الناس ببسمات وجـــوههم، وإشـــارات أيديهم، وهم جالسون فوق فتحـــات الطـــائرة المختلفـــة، ثم تجاوزتهم الهليكوبتر، وكأنها تذهب لمكان الانفجارات البعيـــد، ومن جديد حدث انفجاران آخران، وارتفع خيط دخان مـــن خلف الطائرة الحربية التي مرت فوقهم مـــن جديـــد، وكـــأن الحرب اشتعلت كلها في هذا المكان، وصاح إسماعيـــل بفـــزع اندهش له الأصلع بشدة، إن كان الفلسطيني العجوز يـــصرخ هكذا، فماذا عساهم فاعلون؟!

- لازم حدًا يشوف لنا هالجسر... وانضرب ولّا شو؟

قال الأصلع في نفاذ صبر:

- خبروني وينه، وأنا راح شوف لإلكن.

راقب محمود ممقتع الوجه ما يحدث بعيون نارية، وتحركت شفتاه لأول مرة منذ سمع نبأ ضرب بيروت:

- أنا بعرف وينه...

ثم فتح باب مقعده إلى جوار السائق، وحاول الذهاب شرقًا، لولا أن خرج صديقه الأشقر من باب السائق، وأمسك بيده قائلاً في حزم:

- إنتَ تنطر معهم بالسيارة، رجلك ما فيها تحملك أصلًا...

ثم ركض مفسحًا لنفسه فرجة بين صفوف الذين تركوا سياراتهم، وساروا نحو الجسر، وسرعان ما ابتلعه زحام الرجال، والأمهات، والأطفال، وكأنها رحلة من رحلات التهجير الصهيونية، ورأى محمود بعيني خياله، مخيمات عين الحلوة وشاتيلا وغيرهما، تتكون الآن كما حدث منذ سنوات بعيدة، تقريبًا بنفس الطريقة، قصف متوال وأسر ضائعة تسير من مكان إلى آخر، فيموت من يموت منهم، ويحيا من يبقى في غير وطنه بعيدًا وذليلًا...

ومرّت عليهم لحظات من الصّمت كأنها مقتبسة من زمن هادئ آخر، فلم يجرؤ أحدهم أن يتفوّه بكلمة، حتى إسماعيل

مفرط الثقة، والغرور، الذي لا يردعه شيء عن إبداء أقواله، شعَر أنه معرى أمام الأصلع الذي حدَّثه عن صورته بالجرائد، وكأنه يعلم كل شيء عن الفضيحة، بل ربما كان يعرف أيضًا زهرة غالب، الأرداف الرشيقة داخل الحرير الأصفر، وهي تبتعد خارج قاعة المحكمة دون أن تأخذ معها رائحتها المسربلة المكان بالهدوء. نظر إسماعيل للأصلع نظرة طويلة دون أن يقول أى شيء، وخطر للأصلع أن يتكلم ولكن الضحكة المدوية للعقيد حسام جلال تحشرجت في حلقه فمنعته عن الكلام، وكأنه لا يزال في حفلة بنت الكلب المملة، ويقف أمام السيدة التي لو أرادها لنامت تحته، ومن جديد غصَّ حلقه بالضحكة المحيطية الوسع، كضحكة أحمد شاكر المداهنة الممجوجة.

وفي ثوان، رأوا النيران التي تتكوَّن من بعيد في سحابة مخيفة، ثم أعقبها صوتٌ مدوٌّ، وهزة في الأرض تحت أقدامهم تمامًا كما تقتضي قوانين الفيزياء، وتكوَّنت دائرة من الأشخاص حول مركز الانفجار الذي كان أكثر قربًا من المعتاد...

شمل الصَّمت الجميع، وكأن الانفجار أصابهم بالصَّمم !! ولم يدرِ أحد متى تعالت صرخات الناس، واتَّسعت الدائرة فجأة من الخوف غير المبرر، وكأن ابتعادهم عن بؤرة الانفجار السابق يحميهم من الانفجار القادم!!! وتدافع الأصلع وإسماعيل مع المارة الذين اصطدموا بجوانب السيارة في عنف، وهم يخرجون منها للَّحاق بمحمود الذي جرى مع غيره لمركز الانفجار للاطمئنان على ذويهم، وركض الاثنان نحو موقع

الاحتراق ذاته حيث لازالت النار ترفـرف كـالأعلام فـوق الشظايا المتناثرة، ورأوا من بعيد محمود، وهو يجلس على ركبتيه في ألم ممسكًا بجثة صاحبه الأشقر الذي أطاح به الانفجار، فلم يملكوا سوى أن يتوقفوا على بعد أمتار من الجثـة والـصديق وسط جموع الآخرين الذين يبكون جثثهم في دائـرة مـوت جماعية خلّفها الانفجار. وعلى الرغم منه، التمعت عينا إسماعيل الضيقتين بالدموع، وهو يرى مأساة عاشها طوال عمره تُكرِّر أمام عينيه، واهتز وجهه البدين مشوبًا بحمرة ونهنهة عالية، وهو يرى من بين سحب الدموع محمود الغارق في دماء صـديقه، فربّت الأصلع عليه في أسـف، ولأول مـرة يقفـان هكـذا متلاصقين كأنما يتشاركان أفكارهما، ويتجاوزان حدود الشرود الإنساني الذي أرقهما طيلة الرحلة إلى حقيقة المحنة المحيطة بهما، ثم سار الأصلع بضع خطوات نحو محمود، وجلس على الأرض إلى جواره مواسيًا إياه في صمتٍ مهيبٍ...

وحين وصلت سيارات الإسعاف والـصليب الأحمـر إلى مواقع الدماء المتروفة في الطريق الأسفلتي الطويل، كان الأفق قد تخضّب بحمرة المساء النارية، وسار الثلاثة على أرجلـهم عـبر الصحراء وسط الأسر النازحة إلى سوريا، ممزقي الأفكار، وقد شملهم الصّمت الحزين، فكأنما وقفت أفكار كلّ منهم في وجه الآخر حاجزًا منيعًا، وكأن زهرة غالب هي السيدة في حفـل السفارة، بجرد كتف أنيق، وعطر فاغم، وجليسة فراش تتـأوّه وهي تغوص في عتمة السواد الملتحم بالعرق، وكأن ابتـسامة

أحمد شاكر هي ذاتها ضحكات حسام جلال المدوية، وكـأن سالم الفدائي الشهيد هو الصديق الأشقر الـذي سـار عـبر الصحراء طويلًا حتى لقيَ حتفه، وتجسَّد وجه سماح في صـفحة السَّماء الكابية، تمثال الكرامة، والعزة، والقوة أمام عيني محمود يدفعه للخروج عن سكوته، فكأنما هو دافعهم الوحيد للكـلام عبر تلك الصحراء، وكأن هناك ألف دافعٍ وقـف في حبائـل صوتهم يدفعهم للصَّمت...

***

الفصل الخامس

سمراء

الدين، والدنيا، والله، والخلق، والطبيعة، وتجمع السنّوات المرير الذي يقطر أحزانًا مثلما يقطر أفراحًا، يتناسى العقل كل شيء مرغمًا وراغبًا، وتنطوي في كفّه المضرم السّنوات الماضية، وهو يكبر قبل الصلاة... النسيم الحار يُغرق المكان فيهب الهواء تارة، ثم يتزلق على الرطوبة الحارة تارة أخرى، السنخلات الصغيرة من أمامه، والأرض الجرداء الصحراوية من خلفه، وحيد تمامًا كأنما لا مسجد في المنطقة، أو كأنه إمام لنفسه، تندفع رذاذات المياه منتشرة على وجهه، ويديه، وقدميه في كل مكان، وتتخلل ثنايا ذقنه المترسلة، دائمًا ما يحبُّ الوضوء في هذا المكان أمام مصلّاه، ويتفاءل ببقع المياه التي تتساقط فتندي الثرى المحيط به، وفم القلة النحاسي الذي تصبُّ منه المياه يترك صليل الصدى في هذا الليل الموغل...

وأراحت هي رأسها لليمين، واستندت على الوسادة الجافة، ثم حاولت تهيئة الوسادة بيديها لتصير أسفل رأسها. الحر شديد، والعرق بدأ يغزو ملامحها بالسقم، فأدارت وجهها للأمام محاولة اتخاذ وضع أكثر راحة للنوم على الفراش القماشي الفقير، وأطلق الخشب القديم صريرًا ضعيفًا برغم أنّ جسدها النائم عليه كان من أخفِّ ما يمكن. ولثوانٍ بدت ساكنة في

ظلام الحجرة الضيقة، ثم تقلّبت من جديد بلا جدوى، وحين قامت من نومها أخيرًا كان الليل لا يزال مسيطرًا بعد آذان الفجر، والقمر معلقًا من الشباك يرسل الخيوط لرأس الجبل كلها، وتنهّدت في رفقٍ وهي تستقبل الهواء المتسلل من النافذة الواسعة.

الفتنة السّمراء السّاحرة، و الذقن العريضة التي تهتزُّ مرارًا وتكرارًا، مردِّدة لآيات الله حتى في الفجر المهيب، وخصلات شعرها تتحرك تحت وطأة النسمات المحلقة حول رأسها، تسبح عيناها في محيط الليل القادم من النافذة، وتراه يتصبب عرقًا في الخارج وهو يصلي، ينحني مرددًا الأدعية، ثم يسجد، وعيناها لا تزال على النخلات القلائل المخيمة معهم بأقصى الشمال في رأس الجبل، قرابة مدينة ميرون، يسبح بحمد ربه الأعلى، ويقوم ليكمل الصلاة، وتمتد زراعها النحيلة السّمراء عبر النافذة الواسعة، فتحضر جلبابًا أبيضًا منشورًا على حبلٍ خارجها، ثم تستدير مخلفة الأدعية والآيات القرآنية خلف ظهرها، وتجلس على المقعد القماشي في صالة المكان بانتظاره.

- ليش فقتي؟ لسه النهار بدري عليه.

يتمتم بلهجة عصية على التبين، لهجة عجوز جدًّا على الرغم من العنفوان والقوة الجليين في ملامحه. رأسه العريض، وذقنه الأعرض، وشعره الأسود الذي يحوم حول رأسه حتى أسفل ذقنه، والذي لا تزال قطرات الماء تنحدر منه من أثر

الوضوء، وبنيته المتينة التي تخفي سنه الحقيقية. يرتدي صـــديرية وسراويل بيضاء، ويبدو في الضوء الخافت القادم عبر النافـــذة، وهو يتقدم داخل المترل متغلغلًا بنظراته في أركانه، كأنه مـــلاكٌ خرج لتوِّه من الجنة، أو ربما شيطان من قلب الجحيم، أو مجرد إنسان أصبح غامضًا، حتى بالنسبة لها!! مكر عينيه لم ينقطـــع طوال عمره، حتى بالنسبة إليها، فدائمًا ما كان شكله صعبًا في تمييزه، وسنه صعبة في تحديدها، وكلماته صـــعبة في تقييـــدها بمعاني ألفاظها، وربما لهذا السبب لم تحر جوابًا، وهي تمدُّ يـــدها إليه بالجلباب الأبيض الذي يفوح برائحة نسيم الليل المـــنعش الرطب، ومسحوق الغسيل الرخيص الذي يبقيه نظيفًا.. تناول الجلباب منها ببسمة مقتضبة، ورفع يديه إلى ما فـــوق رأســـه مرتديًا إياه فوق ما كان يرتديه بالفعل، وما إن أنزل أطـــراف الجلباب بيديه حول خصره، وانساب الجزء الأســـفل حـــول سراويله البيضاء، حتى سار نحو الثلاجة المعدنية البعيدة والفقيرة أيضًا، وفتح بابها بأزيز صارخٍ فخرج منـــه الـــضوء الأصـــفر ليخفف الظلام قليلًا، ثم قال وهو يضع ما أخرجه من الثلاجـــة فوق المنضدة الخشبية الرفيعة:

– ما قلتيلي؟ ليش فقتي بكير؟

– الدنيا حر.

تنهَّدت بعمق، وهي تقوم لتعاونه في ترتيب مائدة صـــغيرة لكليهما، وامتدت يدها على أطراف المفرش تـــسويها فـــوق المنضدة، حين ربَت على ظهرها، وقال باسمًا:

- بتاكلي لقمة معي هلأ، وبعدين فيكِ تنامي للصبح.

ثم جلس على كرسيه، وجلست هي على المقعد المقابل له، وبرودة يده الرطبة لا تزال فوق ظهرها، وامتدت أيديهم للطعام في صمتٍ ليلي هادئ، ما كسره إلا صوت المضغ وابتلاع الطعام.

للمرة العاشرة تقريبًا في هذا الشهر يفعل الشيء ذاته، تلقاه فجرًا هكذا وجهًا لوجه، أو سرًّا من فوق فراشها الخشبي وعينيها المغمضتين، يظنها نائمة في كل مرة يخرج فيها من المترل، يحوم حول حجرتها قليلًا بعد صلاة الفجر، ثم يخرج من الشقة في حذر المتسللين، وما كان لقاؤها الليلة به فوق طاولة الإفطار الليلية الصّامتة محض صدفة، ولم يكن أيضًا محض تدبير.

كانت تخشى الكلام معه، وتخشاه كله، ولهذا لم ترتب أبدًا لمصارحته بما تعرف، على الرغم من أنّ هذا قد دار في عقلها طويلًا.

النظرات الماكرة المرهقة التي توحي بانتهاء النقاش في مهده، واللحية السوداء الكثة التي كأنها تخفي كلماته بين شفتيه فلا يخرج منه سوى ما تسمح به. كانت تخشاه وتجله كمعظم من عرفوه في حياتهم، وكانت ترى في مواجهته سخف، فهو أبيها برغم كل شيء، وما يريد أن يفعله سيفعله فوق إرادتها، أو برضاها!! ولكنه ما كان يعلم بأنها تراقبه، وبأن رأسها الصغيرة

هي ساحة عراك بين ما دار وما سيدور في اللحظات التاليـة، أخذت الكثير من الوقت حتى استجمعت شتات الحديث:

– ما فيّ أنام، كلها ساعات وأروح للمخـيم، فيّ أشـتري إشيا للبيت؟

كانت طلقة اختبار حاد بها عقلها، مزيج رخو من المواجهة والتراجع، اللهجة التي تحمل لا مبالاة في ظاهرها تحمل تحـديًا مضمرًا فيها، لن أنام ولأرى ماذا ستفعل، وكيف سـتخرج!! ولكنه استقبل كل هذا بطريقة من لا يأبه، أو يتظاهر بـذلك، فقال متجاوزًا تلك النقطة:

– المخيم منه أمان بكرة، عم شوف الطيارات بتحلق فوق المدينة.

وقبل أن تظن أنه يحاول أن يثنيها عن الذهاب كي تنـام، أردف:

– وإذا فيكِ تروحي، ما تبعدي عن السوق، وبترجعي قبل الظهر.

محاولة فاشلة منها لصيد طرف ما للمواجهـة، وإحبـاط حاد...

– هارجع بكير بإذن الله، راح كون هناك م الصبح.

انتهى الإفطار المبكر في بطء ملول ومترقب أيضًا، وقامت لتجمع الصحون الفارغة، وأشباه الفارغة، فتضع بعضًا منها في

الثلاجة، أو في الحوض داخل المطبخ المظلم، وسمعته من داخل المطبخ يعبث في سلسلة مفاتيحه فأدركت أنه على وشك الخروج برغم كونها متيقظة. اعتصرت الطبق المليء بالصابون، وهي تفتح صنبور المياه عن آخره حتى لا يظنها تسترق السمع لما يفعل، وعبر أزيز الصنبور، وخرير المياه المتكسرة على الأطباق داخل الحوض، سمعته يهتف من الصالة:

- مريم...

فردت، وكأنها بوغتت بهتافه:

- حاضر.

ثم خرجت جائلة بعينيها في الصالة، كان يرتدي قميصًا وبنطالًا، ويمسك بسلسلة مفاتيحه في يده، كان خارجًا بالفعل!! وما كان يحاول الاصطناع أو التورية مما يمنحها الفرصة الكاملة لمصارحته وكأن الأمر عفويٌّ، وقال لها:

- هاقابل خرطة رجال هيك في المخيم، وراح إطلع من عندهن للشغل، بتريدي أي شيء؟

- شو خرطة؟

قالت مندفعة بالرغم من حرصها على ألا يبدو صوتها منفعلاً أو مهاجماً, وأردفت مخففة:

- كل يوم عم بتقابل خرطة هيك وش الفجر، لشو؟ هايدي الزلام من سنك ولّا شباب، نحنا ما بنريد مشاكل...

تأملها للحظات بلا أيِّ رد فعل، ثيابها المبللة من عند الخصر بماء حوض الغسيل، وزراعها السّمراء المغطاة بالصابون حتى مرفقيها، وسنواتها العشرين الماضية. تأملها وهي طفلة يخاف عليها ويحميها، وأيضًا وهي شابة تخاف عليه وتحاول حمايته. لم تصدمه لهجتها المهاجمة،وإن فاجأته جرأتها وأسئلتها المتعددة، وأجاب بلا أي لهجة:

– وأنا ما فيّ سبب لك مشاكل...

ثم تابع:

– وإذا كنتِ بتعرفي إني عم بنزل كل يوم الفجر، ليش ما قلتي؟!

– كنت باعتقد إنك بتنزل للشغل بكير.

أدرك كذبها بسهولة من خلف لهجتها، وإن لم يشأ أن يهتم بهذا، فقال:

– وشو يللي اتغير؟! هايدا أنا من شي سنين كتير.

ذهبت للمطبخ في حدَّة، فظن أنها فضلت ألا تناقشه، ولكن صوتها خرج من الداخل متحديًا وكأنها تخشى الحديث معه وجهًا لوجه:

– شو يللي اتغير!! نحنا تركنا المخيم في جنين وجينا لهون من شان أسباب، وإنت ما عاد فيك تتبهدل، أنا ما بحمل عيش من دونك من جديد.

أغلقت الصنبور المتدفق، وعادت تحمل منشفة تجفف بها يدها، وهي تقول ناظرة له بحدَّة:

- شو يللي اتغير!! ولا شيء... إنتَ يللي اتغيرت، إنتَ وأنا وكل العالم، صار في شباب بدهن يحاربو ويناضلو، وصار في شيوخ...

قاطعها :

- وأنا ما صرت ختيار.

فردت وهي تقترب منه :

- على عيني وعلى راسي، بس صار فيك تتجوز، وتشتغل، وتشوف حياتك يللي راح نصها بالسجن...

اهتزت شفتاه فجأة كأنه يوشك على الحديث، ثم جلس على مقعد مفضِّلًا الصَّمت على الحوار، وارتمت هي على المقعد المقابل في حيرة وضيق. ما كانت تظن أنَّ المواجهة ستجرفها بعيدًا هكذا، ولم تعد تدري ماذا كانت تعتقد حين لم يدر هذا في خلدها قبل أن تكلمه، هل كانت تعتقد أنه حين يعرف بمراقبتها له سيعتذر ويكفُّ عمَّا يفعل؟ أم كانت تعتقد أنه سيتجنَّب مناقشتها، وينعتها بالطفلة، ويمضي في طريقه سيفًا لامعًا كما كان دومًا؟! لم تعد هي قادرة على التحديد ولا أي شخص، وبدَا وجهه متجمِّدًا تحت قناع من يلاحظ فجأة أنه إنسان، وله ابنة، وحياة... أو ربما هو متجمد ذهولًا من وقاحتها، وكان النهار الوليد قد تسلل من النافذة منذرًا

بكشف كل الحقائق في ضوء الصّباح، وارتسمت علامات الضوء على جوانب وجوههم المواجهة للنافذة، وكأنها تعيد صياغتهم من جديد. أشخاص مختلفون لا يغلفهم غموض الليل وتساؤلاته، بل تحترق وجوههم بالمواجهة الحادة المنيرة، وقال لها أخيرًا محاولًا أن يبدو متعقلًا:

– أنا ما فيِّ إظلمك معي، وما بدي إخسر نفسي وشغلي ولا أظل في السجن، الزلام زمانهم ناطريني هلأ، وأنا اتأخرت عليهن، بوعدك أول ما برجع بنحكي سوا من جديد.

كادت أن تقول له وماذا يضمن لي رجوعك لكنها تراجعت، لا تريد أن تبدو متملّكة أنانية بينما هي بالفعل ليست كذلك، هي فقط تخشى عليه هو، وتريده أن يتعقل. لم يكن لها يومًا أمٌّ تقوم بهذا الدور الضروري، ولهذا صار عليها أن تقوم بالدورين معًا: الابنة المطيعة التي تتفتح في شبابها على العالم، وتستقي الخبرات والقيم من والدها الشيخ المتدين، والمناضل القديم، والزوجة الحكيمة التي صارعت جبال الحياة المتحركة حتى صارت ندًّا لزوجها تثنيه عن أفعال، وتحضه على أفعال أخرى، وربما كان عليها أن تضيف لهذا كله دور الأم، أمه التي لم ترها في حياتها، والتي لم تكن لتقدم سوى النصائح المشوبة بالدعاء بالصحة، والرزق، وصلاح الحال... تحركت الدنيا من حولها داخل الصالة التي بدأ الضوء الذهبي الوليد يعلن احتلاله لها، وخرج أبوها من الباب بعد أن نظر لها نظرة طويلة تتساءل بالتأكيد عمَّا إذا كانت ستصمد إذا رحل أو حدث له

أيُّ مكروه، ثم انغلق الباب الخشبي خلفه بسرعة مغلقًا بباب النقاش، وفاتحًا أبوابًا أخرى لآلاف الاحتمالات التي يحملها اليوم الجديد في مطلعه.. عنيدة هي، ولكنها تحبه وتخاف عليه. ربما لم تكن تفهمه كما يريد، ولكن هذا ليس كل شيء، مَن من الناس يفهم الآخرين حق ما يريدون؟! الفهم أصلًا مسألة نسبية، وعلى أيِّ وضع، كيف يتسنى لابنة العشرين أن تتفهَّم شخصية ابن الأربعين؟! كيف تتفهَّم مدى حرصه على سنوات عمره التي يراها تجري في عينيها الواسعتين كل صباح، تركض كالحصان الغاضب مخلفة وراءها وقع السنابك وسحابات من الغبار، ثم لا يتبقى سوى الغبار، جافًا أصفر ينجلي بعد مُضي السحابة منذرًا بلا شيء، انغلق الباب من خلفه فكأنما يستره عن عينيها، ويرحل معه أينما كان خارج المنزل حاملًا معاناة العجائز... لم يكن عجوزًا، ولم تقل له هذا قبلًا، على عيني، وعلى رأسي بس صار فيك تتحوز، تشتغل... كأن الحياة تمضي بهذه البساطة، وكأن السُّنوات المنقضية لم يشتغل فيها، ولم يسع للزواج... ما كان نادمًا على ما فعله من قبل في أعوامه الواحدة والأربعين، بل كان فخورًا به، ولكنه اليوم يرى القضية تتقوض، الحياة تتقوض، واللحظات التي عاش لها طوال عمره هو وجيله كله، ومن سبقوه ترحل مهرولة، ومخلفة وراءها المزيد من سحابات الغبار.

يتشبَّث ببقايا عهد قديم، ومطلع عهد جديد كأنه حلقة وصل ذهبية لا ينقضي عمرها أبدًا، ولا تصدأ، صار في شباب

بدهن يناضلوا، وصار في شيوخ!!! هي على حق في كل مـــا قالته، وما كان يظنها محددة وقاطعة إلى هذا الحد مـــن قبـــل، ولهذا تسمَّر متجمدًا أمـــام كلماتهـــا العاتيـــة الـــتي تـــضربه كالعاصفة... عاصفة تقتلع كل ما أمامها، وتحرمه حـــتى مـــن متابعة انجلاء الغبار المحيط به لعله يسفر في النهاية عن وجـــود شيء خلفه، أي شيء، نصر، أو هزيمة، أو قـــضية جديـــدة، ومناضلين جدد... عندها حق، صار في شباب بدهن يحاربوا، ولكن المشكلة حل المشكلة في الشيوخ.

حماقات حماقات لا تنتهي، وجرم يتبعه جرم، وكأنهم أعداء أنفسهم، ربما لهذا كان المخيم يحترق في حنين بناسه وقاطنيـــه. الإسرائيليون يضربون المكان بالرصاص، والناس يموتون، وتتناثر الدماء والأشلاء في كل مكان مع الشظايا المحترقـــة وفـــوارغ الطلقات... لحظتها التمع أمام عينيه منظر قديم، أقدم من هـــذا بسبع سنوات تقريبًا.. يوم وقف صديق عمره ليحقق معه داخل غرفة واسعة مترامية الأطراف، ترسم الشَّمس مربعات الـــضوء القادمة عبر النوافذ العالية على نصفها تقريبًا، ويتردَّد صـــدى الكلمات فيها مرارًا لخلوها من الأثاث، وكأن هـــذا الـــصدى يتردَّد ليؤكد على أهمية الكلام.

– أنا عم شبه عليك، أنا بعرفك، أفتكر شفتك من قبل...

لهجة صاحبه المتسائلة من خلف المكتـــب، تكـــاد تدفعـــه للضحك رغم تورم وجهه المضرج بالدماء من آثار التعـــذيب،

ينكره هكذا بكل بساطة لمجرد أنه واقف خلف مكتب وحيـد في الغرفة، وبضع أوراق وقلم، هكذا صـار محققًا وصـار الآخرون كلهم متهمين، وهكذا صار عليه أن يمثل ويتحـدث بلهجات متفاوتة. أدرك أن التمثيلية مجدية وصاحبه فاز بجدارة، فردَّ والدم يندفع من فمه مبصوقًا بين مقاطع الحديث:

– ما بعتقد، ما بظن التقينا من قبل...

كان صاحبه مرتاحًا لهذا الرد، وكأنه كان يتوقعه ويتحسبه، تمامًا كالنيران المفتوحة علنًا على مصراعيها في المخـيم المـدني الفقير، مرتاحة، ومريحة، وصريحة، لا تمادن، ولا تـراوغ، ولا تتظاهر...

نيران تقتل البشر بقوة الرصاص، ولا تميز طبعًا بين النـساء، والشيوخ، والأطفال، وكل هذا الهراء!! نيران صريحة وصـادقة على الرغم من الكذب الكامن فيها، وكأنه يدخل في تكـوين الرصاصات، وكأن الرصاص إذا يصنع يدخل في تكوين صلبه جزء من الكذب، وجزء من الغدر والخيانـة، وأجـزاء مـن الوحشية، وجزء من الدفاع عن النفس، أو الشرف، أو القضية، وجزء من الانتقام الموتور من خلف ماسورة البندقية، ثم يصبُّ الرصاص فوق كل هذا..

ولهذا يصير الرصاص منيعًا حادًّا وغادرًا، يصير مفرط القوة، يصلح لكل الاستخدامات، ويعلو صوته في المكـان، ولهـذا بالذات يصير الرصاص رصاصًا!!!

الشباب يريد أن يحارب، ويستعمل الرصاص، في الـوطن العربي كله، هو مؤمن تمامًا بهذا، وبأن فلسطين حية، تكمـن داخل كل قلوب الشباب، مثلما كان هو منذ خمسة وعشرين عامًا، حين بدأ يتحسَّس الواقـع مـن حولـه في بـدايات الثمانينيات، كانت منظمة التحرير الفلسطينية أعلنت منذ عقد تقريبًا عن نواياها في السلام عبر المفاوضات. ورغم هذا كـان الجناح العسكري لها ودوائر منظمة فتح لا يـزالان يقومـان بالعمليات الاستشهادية، وبدًا للجميع أنّ الجنـاح العـسكري لتلك المنظمة كالجثة التي تموت فتتحرك منتفضة لافظـة آخـر أنفاسها، وعبر تلك الانتفاضات الميتـة التقـى بأصـدقائه في مدرسة المخيم، يهربون من المدرسة ويعودون إليها تباعًا بـلا تنظيم، ونجاحهم في الدراسة مستمر قائم بذاته، ولا علاقة لـه بحقيقة تواجدهم داخل المدرسة، في بلد تحارب تصير الشهادات أساسية، ولازمة مثل شهادة الميلاد، وترتفع تلقائيًّـا بـلا أيٍّ تدخل حتى تغرق الأنوف، فالبلد تنـتج محـاربين، وتحتـاج لمحاربين، وتظل الشهادة العلمية ستارًا لازمًا للعمل، والحيـاة، والتقدم السياسي، والاقتصادي، خلـف البـؤرة العـسكرية المتنامية.

صاروا يخرجون من المخيم الضيق القـاتم، ويتـسللون إلى الضفة الغربية، ويذهبون إلى الخليل، ونابلس، والمرتفعات الـتي تحيط بها والسهول... وكان أول لقاء بينه وبين الـسلاح ذات ليلة، في بن عامر، ذلك السهل الذي يمتد أخضر وخصبًا تحت

جبال نابلس مباشرة، تمامًا كحلمهم بفلسطين، وكـــان معـــه العديد من أصدقاء المدرسة، ولفافات التبغ، والنقود... لم يكن يدري متى يعود لأهله في المخيم، وقد رحل منذ يـــومين، ولا حتى ماذا يظنون قد جرى له في المخيم!! ملأت ذهنه صـــورة البطولة فغطت على كل هذا، واستلم سلاحه بلا أيِّ تـــدريب في السادسة عشر من عمره. كانوا خمسة رجـــال، أو هكـــذا ينظرون لأنفسهم، وكان قائدهم ضابطًا نظاميًّا كمـــا كـــان يشاع عنه. وكانت العملية سهلة، وتسللهم بين ثنيات الجبـــال حتى تلك المستوطنة التي تبنى جديدًا سهلًا أيضًا، لم يقم هو بأيِّ دور فعال في العملية، ولكنه كان سعيدًا حين سمـــع صـــوت الرصاص والانفجارات التي صنعها رفاقه بأيديهم، واحتـــضنت يده ماسورة الفوهة الباردة للبندقية، وكأنه يرجوها أن تلين في يده لحظة إطلاق النار.. كان منبطحًا على بطنه، وإلى جـــواره صديقه في المدرسة. لم يكونا يعرفان بعضيهما كـــثيرًا والتـــوتر الغامر في الموقف كان أقوى من علاقتـــهما، لـــذلك التزمـــا الصَّمت تمامًا حتى يخيَّل له أنهما حبسَا أنفاسهما أيضًا، وهمـــا يرنوان إلى طرف المستوطنة البارز من خلف الأشجار في سفح الجبل، عدة مبان جديدة تبنى على بعد أمتار مـــن موقعهمـــا، كامتداد للمستوطنة التي كانت غافية ، وحين التمعت الـــنيران منعكسة فوق تلك المباني، وسمعًا صوت إطلاق النار، دمعـــت عيناه تأثرًا، وتمنى لو كان وسطهم في قلب الإسرائيليين. ولولا القرعة التي أجراها الضابط الذي يقودهم لتحديد مـــن الـــذي

سينتظر ليؤمن ظهورهم، وينذرهم باقتراب أية دورية مـــارة، لكان قد جرى مندسًّا في وسطهم شاهرًا بندقيته، وسرعان مـــا لمح الرفاق يتسللون عائدين وسط صوت استيقاظ المـــستوطنة المذعورة، وأبواق الإنذار المندلعة في الصَّمت.

وتسلل بعدها إلى لبنان كذلك عدة مرات، كان أولهـــا في تشرين الأول من ١٩٨٢ بعد ما حدث في صابرًا وشـــاتيلا، لم يكن يعرف أحدًا في تلك المخيمات البعيدة المقامة في لبنـــان، ولكن قائد فصيلتهم في المقاومة وقتها حكى لهم مـــا حـــدث، وهم ذاهبون تسللًا في مهمة انتقامية داخل لبنان. كان اغتيـــال بشير الجميل قبل أيام قلائل من توليه منصب رئاسة الجمهورية اللبنانية، المبرر المعلن لمذبحة شاتيلا، إذ قيل أنَّ الرجـــال الـــذين أعماهم الحزن على زعيمهم ارتكبوا هذه المذبحة بالتنسيق مـــع الجيش الإسرائيلي! ثلاثة آلاف وخمسمائة مـــن الفلـــسطينيين يموتون على يد جنود الكتائب اللبنانية لحركة أمل في أقل مـــن يوم ونصف!!! ولمجرد إرضاء الإسرائيليين؛ كي يستأمنوهم على حراسة الحدود الشمالية!! أرقام مرعبة. وكان تأثيرهـــا بالغًـــا عليهم في المعسكر، الكثير من الشباب فقد إيمانه بالمعركة مـــن أساسها، ما دامت القوة التي يواجهونها فائقة إلى هـــذا الحـــد، فلماذا لا نوفِّر على أنفسنا المزيد من القتال، ونعترف بالهزيمة؟

ولكنهم على الرغم من هذا ذهبـــوا إلى لبنـــان، وقـــاتلوا الإسرائيليين، وهناك توطدت علاقته بصديقه الذي كان معه في العملية الأولى بالجبال داخل المعسكر الـــذي أقـــاموه بجـــوار

مستشفى غزة في شاتيلا، وحين علموا أن كتيبة القوات الخاصة التي يقودها آريل شارون وقتها هي وراء هذا الهجوم الوحشي لجنود الكتائب، أرسلت بعثة أخرى منهم في محاولــة لتنفيــذ عملية انتقامية في مستوطنة حارنوف مسقط رأسه، على الرغم من الحماية الشديدة التي يؤمنها لها موقعها الجغرافي بجوار تــل أبيب نفسها.. وحين احتضنه الجبل بعــدها عــدة مــرات في عمليات مماثلة، صار من الطبيعي له أن يغيب عن البيت أيامًا في غزة، أو غيرها محاولًا اختراق الحدود والدوريات حتى مجــدل ومستوطنات بني صهيون الممتدة في الشمال حتى يافــا وتــل أبيب، دون أن يعرف لأيٍّ دائرة من دوائر الحزب ينتمــي، أو هل ما يقومون به هو نشاط خفي للمنظمــة نفــسها خلــف المعاهدات، وجلسات السلام، والتفاوض المــذلول؟! أم أنــه انشاق لقوى عسكرية كانت في المنظمة يومًا ما، ثم وجــدت نفسها تدفع دفعًا لترك السلاح فتمسَّكت به بــالقوة؟ وكــان يرى الزعيم ياسر عرفات رئيس الدولة ومنظمة التحرير أيــضًا يعلن في التلفزيون إخلاء مسؤوليته عمَّا يحدث فــلا يفهــم إن كان هذا بشكلٍ جديٍّ أم مجرد جزء من اللعبة!!.. وإن شعَر في العينين الذابلتين للرئيس، وصوته المتَغضن كوجهه الطيب بنوع من الاستسلام، وكأن تلك العمليات تتمُّ برغم إرادته فعلًا، أو ربما هي شرٌّ لابد منه، وجعله هذا يحس بالضياع بــين تلــك المتناقضات.. واليوم، وهو في مستهلِّ كهولته، لا يريد لهــا أن تتحمَّل هذا كله، ولا يريدها في الوقت نفسه أن تثنيه عمَّا عاش

عمره كله يحاول تحقيقه منذ كان نائمًا على بطنه في أطـراف جبل نابلس، وحتى صار ذا مكانة في حركة النضال الوطنية.

ارتفعت عيناه للشّمس النصف ظاهرة في الأفق، وقدر أمها الآن في المترل تستعد للخروج، وهي ساهمة قلقة عليه، وربما كانت تبكي على طرف فراشها الخشبي، لكن لم يكن في يـده أو عقله ما يمكن أن يقدمه لها، وهي التي كانت تعلـم بـأمر خروجه المتكرِّر في الأيام الماضية، ومع ذلك لم تخبره!! يـاترى لماذا؟! بل الأجدر به أن يتساءل لماذا قرر هو منـذ البدايـة ألا يخبرها بتحركاته الليلة الجديدة، بعد أن ظنته توقف عن نشاطه منذ غادرًا جنين السنة قبل الماضية؟! لماذا لم يعلن لها متفاخرًا أو حتى معترفًا بعودته لما كان فيه طيلة عمره؟!

تجاوز التبة المتراخية في نور الفجر، وانحرف يمينًا عبر شارع يمتد شرقي المخيم الموجود بجوارهم، ولمح من بعيد خرطة الزلام كما وصفهم ينتظرون حضوره. اهتاج عقله لمـرآهم، وهـو يتذكر جنين من جديد، وصفها العالم كله بالمذبحة، وهو لم يرَ هذا ضروريًّا، أن أقف فوق رأس جثث ملقـاة علـى قارعـة الطريق مفككة الأوصال تتناثر دماؤها، وأنظر لبقايـا المخـيم الآمن المحروقة تحت نيران الدبابات، ثم أصف ما أراه بأنه مذبحة بشعة، فأنا لا أقدم أيَّ وصف، فالكلمات دائمًا لهـا حـاجز يمنعها من تجاوز الوقائع المجردة، ولا شيء في الدنيا قد يعـادل شعوره أمام النيران، وهو يركض مع أهله وأصدقائه متـذكرًا السجن، وصديق العمر الناكر له، والخدعة البارعة التي قـضى

سنين عمره يخيطها حول نفسه كالكفن، حتى فوجئ بنفسه في النهاية ملتفًا بذاك الكفن كجثة على وشك الدفن تحت التراب.

و للأسف، حين وعدها بأن يتكلّم معها ثانية حين يعود، ما كان يضمر في ذهنه أى شيء.. لا استماع لرأيها والتفكير فيه، ولا محاولات لإفهامها الوضع بشكل أو بآخر، لم يكن حتى يريد أن يخبرها بأن تلك هي حياته، وأنّ عليها أن تتحملها. السّمراء الفاتنة الشابة، التي يشعر في كل يوم أنه يلقى بها نحو عالم لم تعتده، وصارت تكتشفه وحدها كما فعل هو منذ خمسة وعشرين عامًا مضت... الآن وهو يقترب بخطواته من الشيخ العجوز الذي يرتدي بذلة صوفية في صيف تموز، ويمدُّ يده إليه مصافحًا يتذكر ابنته وشبابه كله من جديد.

- يا أهلًا وسهلًا فيك شيخ حسين، من زمان صار لنا ما شفناك...

يتحدّث العجوز بلهجة ودودة حقيقية، ويرى الترحيب في عيون الخمسة عشر شابًّا المحيطين بهما فيدرك أنّ ما فعله في عمره لم يكن كله هباءً، وإنه لا تزال أمامه فرصة ما، فيرد للعجوز ترحيبه:

- أنا اللي المفروض أحكي ها الحكي... صاير لي أسبوعين آجي هون وما أشوفك، إشتقنالك...

- بتعرف المشاغل، والقضايا اللي عم نتابعها في الخارج.

- بعرف، الله يكون بعونك.

مرَّت عيناه سريعًا فوق الشباب حتى استقرت على أحدهم، فقال مشيرًا إليه:

- حاتم خبرني أنه بدك تــشوفني مـــن شـــان الــشغلات الجديدة...

فقال العجوز:

- فيك تروح اليوم فجرًا ع مكان التسليم، لـــو بتعـــرف تخرج للحدود ها الليلة.

ضحك حسين فرحًا بعمليته الجديدة، وهو يقول نافضًا كل شيء سابق عن فكره:

- لا تخاف، نحنا عن شرقنا ما في دوريات، والحدود بتصير سهلة الاختراق بأي ليلة.

- يعني فينا نخبر الشاب اللي راح يستلم الإشيا.

- فيكن تخبروا مين ما بدكن .

فابتسم الشيخ الودود ذو البذلة الصوفية، وقال محذرًا:

- طبرية وصفد انضربت بصواريخ لبنان من كام يوم مثـــل ما بتعرف، والإسرائيليين صاروا مثل المجانين.

- أنا ما إلي دخل بصفد...

- وميرون عم تنضرب هلأ.

قال حسين من جديد مؤكدًا:

- لا تخاف...

- إذن على بركة الله.

مدَّ الشيخ يده مصافحًا من جديد، ومنهيًا للحوار، وآذنًا ببدء الخطوة القادمة، فامتدت له يد حسين واهتز الكفان ملتصقين للحظات في ودٍّ وحميمية، ثم ناوله أحد الشباب ملفًا مليئًا بالأوراق وحقيبة سفر مملوءة، وغادر الشيخ العجوز والشباب في سيارة ميكروباص تنتظرهم بعيدًا، وابتعدت التراحيب، والعملية الجديدة، والبذلة الصوفية في تموز أمام عينيه، فاستدار عائدًا إلى سوق المخيم عبر الطريق الصخري الكبير، وهو يعاود التفكير في مريم من جديد.

انطفأت في ذهنه الصورة المشتعلة للمناضل الذي يقوم من جديد، ونظرات الإعجاب الجلية في عيون الشباب المحيطين بالشيخ، الذين بالتأكيد سمعوا عنه من مكان أو آخر، واشتعلت في ذهنه ستائر البيت، والنوافذ، والمدينة كلها، ومريم تجري حافية القدمين بملابس النوم تبحث عنه بين بقايا المخيم المقهور، وتتعثر في أشواك النبتات الصحراوية المزروعة في طرقات المخيم. وجدته في المحل الواسع على أطراف مخيم بلاطة الملاصق لمخيمهم، الذي لم يكن قد وصل له خبر الهجوم بعد، وشعر حين اندفعت حوله بكل ثقلها، وهي تحمد الله بصوت مرتجف، ثم تحتضنه بين يديها الصغيرتين، وتقبّل رأسه عدةً مرات، كأنه طفل وجدته أمه تائهًا وسط الحرب، وانعكس

كل شيء فقد كانت المرة الأولى في حياته التي تحتضنه فيها بهذه القوة منذ كنت طفلة صغيرة لا تستطيع ذراعيهــا أن يحيطــا بخصره.. ولهذا السبب بالذات، ما كان يريــد أن يخــذلها، أو يكرر ما حدث من جديد. كانت بالنسبة له أكثر من ابنتــه، كانت أمه! و لم يتخيل أبدًا ماذا يمكن أن يحــدث لــو دخــل الرجال به إليها على أعناقهم، أو حتى أتوا به كخــبر ضــئيل يحمله العائدون في صدورهم، لم يتخيل من قبل ويدفعه ذهنــه لأن يتخيل الآن.

– إنتَ ما عاد فيك تتبهدل، أنا ما بحمل عيش من دونــك من جديد.

هكذا قالت له في هذا الصَّباح، وهي تغسل يديها في المطبخ، هاربة من التقاء عينيها بعينيه في تلك اللحظات، وكأنها إذ تخبره بتلك الجملة تخشى انفلات أعصابها فتفقد حدة المواجهة، وتتحوَّل إلى طفلة باكية يطمئنها أبوها. كانت في تلك اللحظة أمًّا حازمة تواجه ابنها بخطئه، وترجوه ألا يكرِّره، عالمة بأنها لن تستطيع أن توقفه. كانت في تلك اللحظة أمًّا، و لم تكن تريد أن يتبدل هذا الدور، وفي المساء حين يعيدان النقاش ستصير ابنة من جديد، تنتظر منه حديثًا أبويًا وتفسيرات منطقية لم يعد هو منها شيئًا.. وعلى حين صارت الشَّمس في منتصف السَّماء كاشفة كل شيء بالأنوار السَّاطعة، كان داخله يزداد غموضًا، وانطواءً، وتضاربًا، وهو يسير منكس الرأس في صمت نحو المخيم البعيد.

الفصل السادس

مرتفعات بنت جبيل

خرج نجيب من مكتبه في ذلك الكشك المتواضع، مثل بقية الموظفين نحو الشّمس الحارقة، وفرك رأسه وهو ينزل من على الدرجتين الخشبيتين المحيطتين بالكشك متطلعًا للأفق. كانت الأكشاك المقامة على عجل فوق إحدى قمم مرتفعات بنت جبيل تعج بالبشر، موظفين مثله، أو متطوعين، أو لاجئين طالبين للمعونة.. الجميع خرج من مكمنه، أو اشرأب بعنقه محاولًا الحصول على أفضل رؤية، فعبر السهول الخضراء المنبسطة أمامهم نحو الجنوب اللبناني ونقاط الحدود، والشّمس المتوهجة التي تشعل النيران في الأرض. كانت السيارات المصفحة لقوات الجيش تعبر الهضاب المترامية، والجنود اللبنانيون بملابسهم العسكرية، مكومون فوق أسطح تلك العربات وبداخلها محتضنين مدافعهم الآلية ضعيفة التكنولوجيا. وعلى الرغم من الطائرات الإسرائيلية المقاتلة التي تعبر فوق رؤوسهم من آنٍ لآخر، والهزات الأرضية المتتالية التي توحي بقصف مناطقٍ بعيدة عنهم، لم يتمالك نجيب نفسه، وهو يطلق ضحكة مكتومة نصف ساخرة، لا تناسب الموقف على الإطلاق. قيادة الجيش منوط بها فريق من ستة ضباط يمثلون الطوائف الدينية

المختلفة في لبنان، أيُّ هراء!!! لا عجب من انقسام جيش مثل هذا في وسط الحرب الأهلية الماضية!

كانت صواريخ حزب الله التي يستطيع أن يرى خيوط دخانها تعبر الأفق نحو صفد، وميرون، وطبرية، من موقعه هذا، هي المدافع الوحيد حقًّا عن لبنان، ربما لم تكن حزب الله هي المؤسَّسة الوحيدة تمامًا لكنها على الأقل الأكثر فاعلية، وتأثيرًا في تلك المعركة الجديدة.

أنزل عينيه من على قوات الجيش الذى يعتبره كسيحًا، وكأن إطالة الرؤية لمرور الجيش هي إطالة رؤية مريض معاق، في استمرارها وقاحة وفي اختلاسها غباء، مفضِّلًا التطلع للقوم المحيطين به من كل مكان، طالبين العون بكل أنواعه، وللأكشاك المعدنية والخشبية الفقيرة التي أقامتها الأونروا في اليوم الأول للقصف الإسرائيلي للبنان، متخيرين موضعها بدقة بالغة لتتمكن من معاونة الأهالي في فلسطين ولبنان معًا، دون أن تصيبها قذائف القوات الإسرائيلية أو اللبنانية. وتلفَّت حوله للجانب الآخر من السهل الأخضر الواسع نحو قرية حلتا التي تبرز عبر ذلك المنحنى الشمالي الملقى على الأفق البعيد، ثم عاد لمكتبه مبعتدًا عن المتجمهرين في كل مكان، رانيين لسيارات الجيش التي مازالت تعبر الطريق نحو معسكراتها...

كان مكتبه الضئيل معدني الجدران، وإن تمّ تبطينه بالقماش القطني لمحاولة التخفيف من أثر الحرارة الحارقة عليه، ولكن هذا لم يمنع الصهد من أن ينبعث من ذلك الفرن على وجه نجيب، وهو يدلف إلى المكان الضيق. جلس على مكتبة المزدان بالأعلام، أعلام لبنان وفلسطين وأيادي مرفوعة لأعلى، وشعارات مناضلة قوية، ووضع يده منهكًا على الملف الأسود العملاق والأوراق الصفراء الموضوعة على سطح المكتب، وهو ينظر من النافذة المنحوتة في الجدار نحو اللاجئين والأكشاك الأخرى المجاورة، ثم لمح من بعيد وجهًا مألوفًا يصعد التلة المقابلة، وجسدًا رشيقًا ينحني على الطريق المضطرب نحو الأعلى. كانت الثياب الزرقاء الناعمة تتطاير على الجسد؛ بفعل الأنسام المتواترة، ويلتصق الثوب عليه بفعل الرطوبة العالية، أنسام متواترة!! إذن لماذا يشتعل هو من الحرارة بداخل هذا الفرن الصغير، إذا كانت الأنسام بالخارج تطير الثياب؟!

واقتربت الفتاة ذات الوجه المألوف من الأكشاك المتناثرة فوق الجبل، ثم اتجهت نحو نافذة الكشك الذي يجلس هو فيه، فهتف وهي تصل له عاقدة ذراعيها السَّمراوين فوق إفريز النافذة الخارجي:

- مريم، إشتقتلك كتير...

نزعت يديها فجأة من فوق الصفيح المشتعل لإفريز النافـــذة هاتفة:

- هايدا الشباك مولع عن جد، كيف بتتحمل الـــسخونية بالداخل؟!

ابتسم من انكماش ملامحها الطفولية في ضيق، وقال مداعبًا:

- السخونية منا بالداخل، السخونية هونيك... عندك.

قطب وجهها في ضيق حقيقي، فتساءل مدهوشًا:

- ولك شو ها التكشيرة؟ وينَا البسمة الحلوة يا حلوة؟!!

- ما فيِّ أمزح...

قالتها بلهجة جادة، فبدأ القلق يتسلل إليه، وهو يقول:

- تعي هون، لفِّي جوه الكشك، خبريني...

فاختفت من النافذة، ودخلت إلى المكتب الصغير، فجلست على المقعد الخشبي أمام الطاولة، وعقدت ذراعيها قائلة:

- ما في شيء بيستاهل، كانت شي خناقة مع البابا...

- حاكيتيه أخيرًا، وعلى شو اتفقتوا؟

على الرغم من أنَّ أباها قد طلب منها ألا تحكي أيَّ شـــيء عن حياتهما، حتى لا يقعا في مآزق، إلا أنَّ نجيب كان يعلم كل شيء. أخبرته من قبل برحلات أبيها الغامضة، وتحولاته المريبة، على الرغم مما يحمله هذا من خطر بجانب خطر كونهم يعيشون

خارج نطاق المخيم في بقعة تحت السيطرة الإسرائيلية، وعلى سبيل الحرص الزائف — أو لإسكات ضميرها — لم تخبره باسم أبيها، ولا عمله بالمخيم طاعة لرغبته في تكتم حالتهما. أما هي فكانت تثق في نجيب ثقة مطلقة، وتحبه، وإن لم تخبر أبيها قط عن هذا الموضوع، ولا تنوي أن تخبره حتى يحدث أيُّ شيء جديد! ربما ينوي نجيب التقدم لها، ويريحها من عناء إخبار والدها بقصة حبٍّ غير مكتملة الأركان.

– ما اتفقنا على أي شغلة، وهلأ فينا نحكي سوا من جديد بعد ما يرجع من شغله...

وتراجعت بظهر المقعد حتى لمست الحائط، فاستلقت هكذا مسترخية، وهي تتأمل مكتبه الخشبي الفقير، والملصقات والأعلام التي تملؤه، وقالت وعيناها محنطتان على علم فلسطين:

– بافتكر بيمنعوا هون تعليق هايدي الأعلام والشعارات...

فمال بجذعه ليلقي نظرة على الملصقات، كأنما ليس هو من وضعها واحدة تلو الأخرى، في مناسبات ومواقف مختلفة طيلة عامين تقريبًا، ولهذا كان يصرُّ على أن يحتفظ بمكتبه في أيِّ مكان يذهب إليه داخل عمله، تأمل الملصقات قليلًا ثم عاد للخلف قائلًا، وهو يتنهَّد:

– عندك حق، بيتر هانسن المقرر العام للوكالة قايل هيك في تعليماته، وهما كاتبين هايدا على حيطان الإكشاك، لكن

مين بيسمع، سيبك من كل شيء، إحكيلي شو أخبارك؟ وشو أخبار فلسطين؟

فلسطين... فلسطين!! دائمًا ما يتعامل معها بهذا الشكل، وكأنها هي فلسطين ذاتها، لم يذهب لفلسطين قطُّ، وهي لم تغادرها قطُّ، كأنهما في طرفي العالم المتباعدين، وصار أحدهما يمسك قطب العالم بيديه، والآخر يمسك القطب الثاني.

هو دارت حياته كلها حول فلسطين، وفكَّر فيها آلاف المرات، انفعل معها ولها، وعاش في القضية بوجدانه من داخل لبنان، وربما كان هذا ما دفعه للعمل مع وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين، بينما هي لم تحاول التفكير في وطنها قطُّ... كيف تفكر في وطن تعيشه كل يوم؟ أيتجرد بيتها، ومدرستها، والأحياء، والشوارع، أقصى تجريد ليصير مجرد أفكار ما؟ آلاف الكلمات والاحتمالات تغزو الأحاديث والمجالس، وتنطوي مع وقوف الجالسين وانفضاض مجلسهم وتقوضه، من يعيش الحلم والفكرة لا يفكر فيها قط، فهي ليست مجرد فكرة أو قضية... فلسطين ليست قضية، فلسطين أناسها، وشوارعها، ومخيماتها، وربما محتليها أيضًا المتناثرين في كل مكان، بيارات البرتقال في فلسطين أكثر من بساتين، وبرتقال فلسطين ليس أثرًا عزيزًا غاليًا، فالبرتقال يؤكل، وقد خلق ليؤكل.

– فلسطين كلها بخير، وبدها تسلّم عليك.

قالت بين مازحة وساخرة، نحن نأكل برتقال فلسطين، ونأكل فلسطين، نحن فلسطين... هكذا قال يونس الأسدي وفمه مليء بالبرتقال ليعلمها لخليل الطبيب في المستشفى. قرأت رواية باب الشّمس لإلياس خوري من قبل وتعجبت! كيف تصير بلادها وأناسها مواطئ فكر لم يعرفه عقلها من قبل، وقابل نسيج الملحمة الروائية عندها فكرًا مختلطًا ضئيلًا؛ ربما لأن كاتب الرواية لم يكن فلسطينيًّا، بل كان لبنانيًّا مثل حبيبها، عاش يفكر ويحلم بفلسطين!! وربما هي التي لم تكن فلسطينية من قبل أن تراه وتحبه.

– ما بعتقد أن إحنا نعرف نتكلم هون، تعي نتمشي شوية ع الطريق.

قال مقاطعًا أفكارها، ومشيرًا إلى أنها لاجئة فلسطينية تساعدها الوكالة قبل كل شيء، ولا يحق لها أن تجلس داخل الأكشاك مع الموظفين، من المفترض أن يكون التعامل بينهما كله من خلف النافذة المشتعلة كجدران هذا المكان، ولكنها لم تكن بالفعل لاجئة تحتاج للمعونة، بل هي في الحقيقة لاجئة؛ لأن أباها سجل اسمها واسمه منذ أعوام بعيدة في قوائم وكالة الأونروا تحسبًا للظروف الطارئة، وقد كانت تتعلّم في المدرسة المجانية داخل المخيم، ولهذا صار من حقها أن تخترق الحدود الفلسطينية اللبنانية نحو المنطقة المحايدة جنوب الجولان، حيث

المكتب الثابت لوكالة الغوث التابعة للأمم المتحدة، حيث التقت به أول مرة منذ عام تقريبًا.

- على راحتك، كيف ما بدك.

قالت مبتسمة من جديد، ثم صمتت للحظات، مصغية السمع لهدير الطائرات التي تعبر الجوّ، وضوضاء الانفجارات البعيدة محاولة استبيان شيء ما، وقالت:

- اسمع، في حدًا بينده.

ثم سمعًا طرقات على باب الكشك الموارب، وانفتح بصرير ضعيف، وبرزت من خلفه رأس سماح جارة نجيب، وأسرته في القرية، التي يعتبرها مثل خالته، قالت:

- أهلين نجيب، معلش، بنعطلك معنا.

ثم دلفت إلى قلب المكان، مرتدية جلبابًا وغطاء رأس سوداوي اللون، بطولها الفارع، وملامحها الشابة النشطة، ثم تبعتها أمه البدينة، وهي تقول في مرح:

- لا بنعطله ولا أي شيء، مش هيك ولّا شو؟

هبَّ مسرعًا من مكانه، مرحبًا بهما، وهو يقول:

- طبعًا طبعًا، أهلا وسهلا فيكن هون، هايدا بيتكم...

ثم تنبه للنظرة الطويلة التي تستكشف مريم الجالسة على المقعد الخشبي البعيد، ولمح في عين أمه معانٍ غير مفهومة، فسارع بقوله:

- هايدي مريم، ابنة أحد اللاجئين هون، وبتتعامل معنا كتير...

ثم قدَّم أمه لمريم التي ما كانت قد رأتها من قبل، أو توقعت رؤيتها في مثل هذا المكان:

- وهايدي أمي يامريم، والخالة سماح.

فقامت مريم من مقعدها، وهي ترجع شعرها الأسود للخلف قائلة بابتسامة عريضة:

- أهلين، تفضلي يا خالتي.

ثم قدَّمت الكرسي للأمام ضاغطة على خشباته، وحاولت عاليا رفض المقعد بذوق، ثم جلست عليه بإنهاك، وكأنها قطعت مشوارًا طويلًا، وقال نجيب لسماح:

- شرفتونا بالزيارة، ولكن ليش كل ها التعب؟! المسافة بعيدة من القرية لهون؟

فقالت أمه بارتياح بعد استقرارها على المقعد:

- إنتَ بتعرف إنه الأستاذ محمود سافر سوريا من شي كام يوم، وإنه أعطانا نمرته هناك تا نكلمه، وخالتك سماح بدها تكلمه اليوم، لو بتقدر تبرم لنا ع تليفون ها المكان.

فقاطعها قائلًا، وهو يقوم من مقعده :

- أكيد راح لاقي، ثانية واحدة.

ثم غادر الكشك مخلفًا وراءه صرير الباب والضوء الذي مرَّ مباشرة فأغشى عين مريم للحظة قبل أن ينغلق الباب من جديد، ولبرهة سكت الثلاثة، ثم قالت سماح لمريم في ودٍّ:

- أنا سماح، جارتهم، إنتِ فلسطينية؟

فأومأت مريم برأسها إيماءة بلا معنى، مِن الواضح بالنسبة لها أنَّ نجيب أيضًا لم يحكِ لأمه عن علاقتيهما وإن لم ينكرها تمامًا، ولم يبدو على أمه أو السيدة التي ترافقها أي اهتمام خاص بالموضوع... إذن لماذا يخفي عنهما الحقيقة، ولا يعلن عن ذلك الحب؟! لم يكن عقلها يفكر على هذا النَّحو افتراضًا لسوء النية بل بالعكس، كانت تبحث عن طريقة وتوقيت مناسبين لتخبر أبيها بكل هذا، وأرادت أن تجعل من ترحيب أهله دافعًا لها في المواجهة.. هزتها كلمة المواجهة بغتة كأنما قالها أحد غيرها، وتجمدت ملامحها في شرود شابه شرود أبيها حين كانت تكلمه، فلم تكن تدري ما الذي يخبئه لها عندما يعود من عمله في المساء، ولكنها اعتزمت أمرًا واحدًا، إن أصرَّ على المضيِّ قدمًا فيما ينوي فعله ستعضده، هي ابنته ومن واجبها أن تقدِّم له يد العون، ولنفترض أنَّ القدر أعطاها دوريْ الزوجة والأم في غيابهما. مهما كان ستظل تلك أدوارًا اختيارية يمكنها تجاهلها، ولكن تبقى الابنة هي الخيار الأخير لكليهما، لها وله، للأب الذي يمرُّ بمنحنى حاد في حياته ويحتاج للتشجيع والتقدير من جانبها، وللابنة التي تنخرط في علاقة حبٍّ جديدة، وتتحيَّر في الطريقة التي ستخبره بها، وردَّة فعله حيال تلك العلاقة!!

حين كانا يسكنان في قلب المخيم قديمًا، كانت تعلم أنـــه داخل دوائر أحزاب المقاومة كالعديد من الرجـــال حـــولهم، وكانت تتفاخر به بين الجيران والآخرين، كان كل شيء عاديًّا ومنطقيًّا بالنسبة لها، حتى بعدما سجن على نحو مفاجئ، وعاد من سجنه الذي دام سبعة أعوام كاملة. كانت مدركة تمامًا ما يفعله، ومقدرة للمجهود الذي بذله طيلة حياته، والذي كـــان السجن ثمنًا له، وحين عودته للمخيم من جديد وسط ثلة مـــن الرجال المسجونين، وانطلاق الفرح في بيتهما بعدما كان غائبًا. لم تحاول أن تناقشه في العودة لعمله النضالي والسياسي، مقدِّرة أنه يحتاجه أمسَّ الحاجة في هذا الوقت، على الأقـــل حـــتى لا يشعر بأنه سُجن هباءً، أو أنَّ سنوات الـــسجن المظلمـــة قـــد قصمت ظهره، فتحوَّل إلى عامل مسالم يخشى على بيته وأسرته من الضياع الصغير، ويضعهما في المقام الأول، ويتناسى الضياع الكبير الذي ينتاب الأمة كلها.

ولكن ما حدث في جنين بعد هذا بأقل من سنة قد غيَّر كل المسلَّمات، كأن النيران أحرقته هو، أو أحرقتـــها، أو كـــأن الرصاصات التي انطلقت في كل مكان داخل دفء المخـــيمين، أصابته في مقتل حين بلغها صوت القنابل والقصف، وهي بعد في السابعة عشر، هبَّت من مكانها كالمفزوعة، وكأنمـــا ضـــاع منها شيءٌ عزيزٌ، ظنته عاد سالما، ولم تدرِ كيف خرجت مـــن المنزل بملابس البيت، ولا كيف هرولت بين الطرقـــات الـــتي غلفها ظلُّ المنازل تسأل عنه العابرين والفارين بحياتهم. وحـــين

رأته واقفًا في دكان أحد أصدقائه بالقرب من أطراف المخـــيم، امتدت نحوه، وانتزعته ذراعها من وســـط المكـــان لتغرقـــه في الدموع، وكلمات الشكر، والحمد، وهو كالأطفال لا يفهـــم شيئًا، ثم تعالى دويُّ القصف، وصار موقعهما تحت طائلة النيران الوبيلة، وانتشرت الدبابات حتى انتزعت جدر المنـــازل مـــن أرضها، ساعتها تحوَّل كل شيء، وهمـــا يركـــضان والـــنيران تحاصرهما من كل مكان، فيلفها بذراعه ويحميها بظهره، وهـــو يدفعها من مكان إلى آخر، ومن زقاق إلى طريق واسع وســـط مئات الأشخاص المتدافعين. لم تعد تذكر هل كان الوقت ليلًا أو نهارًا، ولا تذكر أيضًا ما الذي حدث بعد ذلك، وهي تنساب بين يديه عبر جنبات المكان المتداخلة، فقد صارت هي ابنته من جديد، وصار هو أبيها الذي يحميها.

كان مسمَّرًا كأنمـــا دُقَّ في الأرض منـــذ آلاف الـــسنين، وتحجَّرت عيناه في نظرة مخيفة نحو منظر لم تتبيَّنه جيدًا، بالتأكيد منظرٌ بشعٌ داخل أشلاء المخيم؛ لأنها ما إن لمحته حـــتى غطَّـــت عينيها في رعب وصرخت بحدَّة. وبينما كانت هـــي تـــسكب الدموع من مقلتيها، كانت وقفته ونظرته الجنونية لا تتبـــدل، وحين نظرت في عينيه رأت اتهامًا صارخًا، وإن لم تـــدرك مـــا كان يفكر فيه، فقط بعد عدة أسابيع، حين بدأ رجال الأمـــم المتحدة، وفاعلو الخير، ومؤسسات العنايـــة يتوافـــدون علـــى المكان، محاولين إصلاح ما تبقَّى من المخيم المحترق، أعلن لها أنه يرغب في الرحيل، بل وأعدَّ له بالفعل.

- بنروح على مكان جديد، مكان يبعدنا عن كل شـــيء باللي فات.

وما كان لهم أحد على قيد الحياة داخل فلسطين كلها، فما فقدوا في هذه الهجمات سوى أصدقائهم، وجيرانهم، وجـــزء كبير من داخلهم !! اقتطع فجأة وبسرعة كأنها عملية جراحية تتمُّ من دون مخدر، أو مواد كاوية... بتَر ذلك الجـــزء بحـــدَّة، وترك دمهم ليسيل بلا انقطاع عبر شمال البلاد كلـــها، حـــتى توقفوا في صفد، شمال البحيرة اللامعة. كانت المدينة بأكملهـــا تحت السيطرة الإسرائيلية، ولكن مخيمًا عشوائيًّا لا يحمل اسمًـــا حتى، كان قد نشأ شرقي هذا المكان منذ سنوات، ولم يستقروا داخل هذا المخيم حتى، بل ذهبًا إلى بيت يبعد عـــن المخـــيم الجديد عشر دقائق مشيًا. بيت منفرد ومتوحِّد ككليهما.

يتكوَّن البيت من طابق واحد، له نوافذ كبيرة، ويطل علـــى أنوار المخيم البعيدة من جهة، وعلى الصحراء التي تنمـــو بهـــا بعض النخلات من جهة أخرى. ولم تحاول أن تسأله لمَ ابتعـــد حتى عن المخيم الجديد، فلم يستقرًّا بداخله مثل باقي الأســـر؟ ربما كان الإسرائيليون يبحثون عنه، أو حتى الشرطة! وهـــي لا يهمها أن تعرف، ولا تريد أن تجرحه بسؤالها. ومـــن يومهـــا، توقف حتى عن الذهاب للمسجد كما كان معتـــادًا، وصـــار يصلي مختليًا بنفسه في الصحراء، وأطلق لحيته التي كان يحلقهـــا من قبل، وتغيَّر.. حتى نظراته متعددة المعاني التي لا تفضح نواياه تغيَّرت، كل شيء تغيَّر، أو هكذا كانت تظن...

لفها نجيب بذراعه، وهما يسيران فوق الحدود الشمالية لمعسكر وكالة الأمم المتحدة، وقمم الأكشاك تلتمع في الشّمس المواجهة لهم. يسيران الهوينى فوق العشب النضر على المنحدر الذي يقل فيه الماشين، هابطين من فوق المرتفعات نحو قرية حلتا الواقعة عند السفح.

- ما بعرف، هو إتعرف على عالم جداد بعد ما جينا هون؟ ولّا هو إجه من الأساس تا يكمل بطولاته الوطنية.

كانت تتحدَّث بشرود مسندة رأسها على كتفه، فحاول التخفيف عنها قائلًا:

- وإنتِ شو يللي بيفرق معك؟ هو بالنهاية بيصير يعمل يللي بده.

- يفرق معي، إنه حسّسني بأمان منه حقيقي لما جينا هون، كنت باعتقد إنه كل شي شغلة بحياته اللي فاتت انتهت، حتى لو كان هربان من ناس بيطاردوه، كنت بدعيله وأنا عم صلي تا ما يلاقونه...

زفر الهواء من رئتيه في عنف، رافعًا رأسه، ومتأملًا للوجوه القليلة التي تمر حولهم صاعدة من المنحدر العشبي أو هابطة عليه، ولاحت له من بعيد جدران المنازل القليلة الرابضة داخل القرية، فذكرته بقريته التي طالتها الهجمات الجوية منذ يومين فدمَّرت معظم المنازل. كان قد ترك أمه والخالة سماح على قمة المنحدر، بعد أن ركبَا سيارة أجرة متجهة نحو قريتهم التي

أصبحت مجرد عائلات مشردة تعيش في عدة بيـوت ناجيـة، وتوقع حين سارًا على العشب الندي في البدايـة أنّ بمقـدوره التخفيف عن حزنها واضطرابها وربما حزنه كـذلك، لكنـه لم ينجح إلى الآن، ففرك كفه على ساعدها محاولًا إشعارها بدفء وجوده، وهو يقول بهدوء:

– أنا ما بعرف شو أقدر أقولك، لكن أبوكِ مناضل كـبير، وإنتِ فيكِ تفتخري فيه.

رفعت رأسها لتنظر نحوه، وهي تتمتم:

– بعرف...

كاد أن يواصل حديثه حين ارتفعت هزة أرضـية مباغتـة، واشتعل عمود من الدخان على غير مبعـدة بـأزيز مخيـف، ارتعشت محتمية به وهي تدفن رأسها في صدره، فرفع عينيه للسَّماء حيث كانت الطائرة الإسرائيلية تطير فوق رؤوسـهم وهي تلقي بحمولتها الصاروخية من جديد.

انبطح السائرون على المنحدر أرضًا في فزع، وتـصاعدت شقهة مكتومة، ودون أن يدري أو يفكر دفعها بيده في عنـف فسقطت على الأرض، وسقط هو معها محاولًا حمايتها بجـسده من الانفجار. وحين سقطًا متجاورين، أحسًّا باللهيب ينـدلع من الأرض نحوهما، وتكررت الهزة بعنف حتى ارتجَّ كلاهمـا، واندفع خيط الدخان هذه المرة مـن مكـان قريـب، فلفـح وجهيهما بحرارته، وصاحت هي مفزوعة، فامتدَّ بجسده النـائم

على الأرض حتى غطاها بذراعيه، وصار ظهره مواجهًا للنيران والسَّماء من خلفه، وحين تقارب وجهيهما، صار فوقها تمامًا.

ولثوان، لم يستمع سوى لنبضاتها تسرى على قلبه، وأنفاسها المرتعشة وهي ترتطم بصدره، وقميصه، وتشعل وجهه بحرارتها. كانت يداه مفرودتين حولها، وبطنه تضغط على صدرها الإسفنجي الوثير، ملتحمان كأنهما جسد واحد، و تكررت هزتان متتاليتان، وانفجرت أشياء حولهم، لكن عينيها كانتا مسلطتين على وجهه بلا تعبير، وشفتاها مضمومتان في هلع لا يتغير. أما هو فكانت عيناه تنظران من فوقها إلى المدى الواسع، والطائرة الحربية التي حلقت من بعيد مخلفة رائحة الاحتراق النباتي من حولهم، ورائحة البارود القوية، والجسدان المتعرقان في مكانيهما.. قام من فوقها مضطربًا مبلبلًا يتصبَّب من عرق الخجل والتوتر، وكأنه كان يغتصبها لا يحميها، و لم يدرِ ماذا يقول، فأشار بيده محاولًا تفسير أيِّ شيء، ولكنه عجز و لم تخرج الكلمات من شفتيه، و لم تطلب هي تفسيرات، وهي تسوِّي فستانها الأزرق فوق كتفيها مطرقة الرأس، وقام من حولهم عدة أشخاص نافضين ثيابهم، وململمين شتات أنفسهم وأعصابهم التي نثرتها القنابل في كل مكان، وأمكنه أن يبصر خيوط الدخان تنبعث من قلب القرية الصغيرة، ومن على المنحدر إلى جوارهم، وإن بدا وكأن أحدًا لم يصب في تلك الهجمة.

سمع الجميع أزيز طائرة قادمة من جديد، فارتفعت الأعين في فزع للسَّماء، ولكنها كانت هليكوبتر حربية كأنها للاستطلاع، انتثرت منها مئات القصاصات من الورق فوق السهل، والقرية، والمنحدر، والمرتفعات... وأغرقت الطائرة السَّماء بمنـــشوراتها فالتمعت جوانب الورق والهواء يلفلفه في الهواء، فتتكسَّر عليه أشعة الشَّمس، وسار نجيب ومريم متباعدين بآلية نحـــو نهايـــة المنحدر والمبنى الأول للقرية — الذي كان محطمًا ومهجـــورًا- يقترب، وأحسَّ بالذنب، وهي تسير بعيدة عنـــها خاشـــية أن تلامسه عن طريق الخطأ ولو حتى باليـــدين. تطلّـــع لوجههـــا الشارد في الطريق، فلم يتمكن من رؤية تعابيره جيدًا؛ بـــسبب الشَّمس الساطعة، ولكن ضوءها انحجب فجأة خلف الجـــدار السميك نصف المتهدم - الذي صارت طلقـــات الرصـــاص المحفورة فيه بيوتًا للعناكب - لذلك المبنى المحطم على مشارف القرية، وغشيتهم رطوبة الساحة، وظلها الهادئ البعيـــد عـــن حرقة الضوء والحرارة، وتطلّع للمكان من حوله فأدرك أنهمـــا وحيدان تمامًا، ربما يجدر به أن يقول لها شـــيئًا علـــى ســـبيل الاعتذار، فما حدث كله ما كان مخططًا له، وما كان ذنبـــه.. توقف لثانية، فمضت في طريقها كأنها لا تسير إلى جـــواره، ثم هرول نحوها فالتفتت إليه. كانًا بالضبط أمام الحائط الذي كان به سابقًا باب المكان، والمبنى من الداخل يلوح لهمـــا مظلمًـــا تخترقه الأشعة الصفراء في عدة مواضع متفرقة، ويشعُّ رطوبـــة عليهما حوَّلت كل العرق الذي بذلاه إرهاقًا، كمن كان يجري

طويلًا، ثم استلقى فجأة أمام المروحة. شعور غـامر بالخـدر، والتفكك غشيه قبل أن يتحدَّث إليها، فمدَّ يديه نحوها، ولمست أصابعه المترددة خصرها الملفوف حولـه الفـستان، ولثانيـة ارتعشت مبتعدة عنه كأنما لمسها ثعبان، وكأنهمـا مـا كانـا متلاصقين منذ لحظات والقنابل تهـوى فـوقهم، ثم هبطـت الأصابع برفق على الخصر من جديد، وحين نظـر في سـواد عينيها الواسعتين اقترب بوجهه منها وقبلها فجأة.. واستسلمت هي لقبلته الطويلة اللاهثة، وامتدَّت ذراعاها تنعقـدان خلـف رقبته كعقد من العاج الأسمر يتزين به، ودفعها قليلًا نحو الجدار، ويده تمتد عبر فتحات فستانها الأزرق، المشدود فـوق نهـديها المتحفزان، كفهود تركض طليقة في أحضان الغابة، ثم أمسك بهما صياد محترف فتدورا في يديه بنعومة، وتملَّكته رغبة عارمة، وهو يستقر بجسمه كله فوق طلاء شفتيها الملتهب، وناداهمـا المبنى المظلم الرطب بخلوته الفريدة، فرقدَا على الأرض تحـت النافذة. واستلقت على ظهرها العاري فوق الـبلاط البـارد، وامتدت إشعاعات الشَّمس المتسللة لترسم عليها أشكالًا مبهرة، فذاب فوقها في عراك مرير، وتحركات معذبة وغريبة لا يعرفها كلاهما، فلم يكن أحدهم وصل لهذا المنعطف من قبل مـع أيِّ إنسان آخر، لذَا غرقَا في اللحظات المشتعلة بلا أيِّ تفكـير ولا ترتيب، وصار بداخلها شخصٌ مختلفٌ، دخل فلسطين منتصرًا فعانقه أهلها بحب صادق، عرف الكثير بين ثنياتها، واقتحم بها أسوارًا ما كان يحلم بوجودها أصلًا. وحين انتهت نشوة الملك

المنتصر باللهاث المتواصل، والانتفاضة الرائعة في النهايـــة، أراح رأسه على كتفيها، مبللًا بالعرق، والحـــب، وســـكيرًا بخمـــر الإنهاك.. وامتدت يده المبللة على الأرض، فلمس ورقًا خشنًا. كانت بعض المنشوارت التي تلقيها الطائرة العابرة قد وجـــدت طريقها عبر هذا المكان متسللة من النوافذ العلوية، والفتحـــات الصغيرة التي صنعتها القنابل في سقف المبنى قبل سنوات. أمسك بإحدى تلك الورقات، وجفف بها وجهه، ثم أمسك أخـــرى، وقربها نحوه راخيًا رأسه فوق عينيها المغمضتين تحتـــه، وكأنهـــا أميرة نائمة.

وبصعوبة بالغة، رفع عينيه ليتمكن من قراءة المنشور الـــذي كتب فيه:

هذا هو جزاء ما فعله حزب الله بتصرفه غـــير المـــسؤول، جلب من خلفه حربًا عنيفة، وما يجني ويلاتهـــا ســـوى أنـــتم اللبنانيين المدنيين غير المتورطين، ومساندته لا تعني سوى المزيد من الدمار في كل مكان... القيادة الإسرائيلية.

***

حين سمعت وقع خطوات أبيها فوق أرض المـــترل، ورأت ظله يتحرك وسط الأضواء القادمة من تحت بـــاب حجرتهـــا تظاهرت بالنوم، وجذبت الغطاء حول جسدها كله فـــشدته حتى نهديها المطلقين تحت قميص نومها، كأنه إن رآهما – مـــن خلف الثياب حتى- سيعرف كل شيء. هناك من أمـــسكها،

واحتضنها، وقبَّلها، لم تكن هكذا من قبل!! وكــأن الفــوران الغامر الذي اعترى جسدها من الداخل تسرَّب إلى خارجــه، وأغمضت عينيها بسرعة حين انفرج باب الحجرة قليلًــا عــن عيني أبيها وأصابعه الجافة حول المقبض، ثم ابتعد حين وجــدها لاتزال نائمة بعد عودتها من السوق. وحين كانــت مغمــضة عينيها، رأت وجه نجيب أمامها تمامًا، ليس متعرقًا ولا متعبًا، بل مبتسمًا ومهذبًا كما كان معها دومًا. وإن شعرت به يغوص في داخلها من جديد، وتمتد يده لتخترق كل أجزائها كأنه امتلكها منذ زمنٍ، وحان وقت اكتشافها. لم تكن مغضبة مما حــدث، مشوَّشة ومضطربة بلا شك، ولكن سوى ذلك لم تكن تــشعر إلا بطعم فمه في أنفاسها باقيًا كالتاريخ، ورأسه يغفــو علــى صدرها مستسلمًا لهبوطه، وصعوده متوسدًا نهديها. كانت ثملة بالحب، والرطوبة، وبرودة البلاط.

ولكنها لم تكن على استعداد قــطُّ لمناقــشة أبيهــا في أيِّ موضوع، فقد كانت ملامحها كلها تحكي قــصة الــصَّباح في سطور عريضة، لهذا تظاهرت بالنوم، ولابد أنَّ أباهــا ابتعــد مرتاحًا عن حجرتها موفرًا على نفسه عناء مواجهة حادة، قــد تتسبَّب في جراحٍ لأيهما أو كليهما، وسمعته من فوق فراشــها يجلس في الصالة، ويحاول متابعة أيَّ شيء في التليفزيون، ولكن الأصوات التي انبعثت من الجهاز مختلطة، وتتحــدَّث في آلاف المواضيع بلا ترابط، أكدت لها أنه يقلب ما بين القنوات بــلا هدف، وبالتأكيد عقله يفكر فيما يمكنه أن يقول لها، بالتأكيد

هو يفكر، ماذا سأقول لها لو خرجت من الباب الآن، وطلبت مني تفسيرات هي جديرة بها؟! ولكنها لم تكن لتفعل، فهي هنا على الفراش تتظاهر بالنوم.

تمامًا مثلما فعلت بعدما شعرت برأسه تتخاذل فوقها، وبيده تترك جسدها لتعبث بالأوراق المتناثرة على الأرض، أغمضت عينيها بلا تعبير كأنها نائمة؛ لأنها ما كانت تعرف ما الذي ينبغي أن يحدث!! تركت له الفعل كله مكتفية ببرد الفعل، واستكانت حتى تتيح له التصرف كيفما يشاء؛ لأنها بلا خبرة سابقة في أيِّ شيء، وما كانت تظنه ذا خبرة أيضًا، فكلاهما اندفع خلف لحظات ولّدها توتر الهجوم الجوي، ورجولته وهو يحميها بظهره فارضًا شذاه على أنفاسها، لكنها تركت له التصرف؛ لأنه الرجل، ورجلها بالذات بعدما صار بينهما اليوم. ويبدو أنه شعر بها؛ لأنه همس في أذنها بكلمة لينة واحدة، وبلهجة هادئة متعبة:

– هنتجوز...

هكذا ! بلا أيِّ مقدمات، أو مشاعر، أو حتى لهجة فيها فرح أو أسف، لم يقل إن كان يحبها، ويريد الزواج منها بالفعل؟ أم أنَّ تلك الكلمة هي إحساس بالذنب تجاه فتاة لوَّثها بنفسه فأجبرته أخلاقه على طلب الزواج منها!! لم تعرف وهي تفتح عينيها فجأة، فقد أذهلتها المفاجأة تمامًا، وما كانت تتوقع أن تخرج الكلمة منه بتلك السهولة التي جعلتها لا تفهم شيئًا،

ثم قام من فوقها ليمحو ثقله من عليها، فتنفست شهيقًا واسعًا يحتوي كل هواء الكون في صدرها، وارتدت فستانها الذي كان قد تجعَّد تحتهما بعدما انخلع عنها، وخرجا من البناية المهجورة وشمس العصر الدافئة تلسع كلًّا منهما بخطيئته التي يعشقها. وهكذا تفرقَا عند رأس المنحدر، بلا أيِّ كلمة أخرى، ولا أيِّ وعد من أيِّ نوع.

لم تطلب أيَّ شيء، و لم تستمع إلى أيِّ كلمة منه، فقط انتظرت حتى استدار نحو الأكشاك المعدنية- التي تعكس لوحة الطبيعة على سطوحها البراقة - وسار مبتعدًا، والتفتت إليه لتتأمله من ظهره، وهو يبتعد في نظرة طويلة جدًّا، انتهت برحيلها عن المكان.

وبين طيات الأحلام والذكرى التي داعبت عقلها، وهي تتظاهر بالنوم في غرفتها، سقطت نائمة فعلًا، وساعد على هذا الإنهاك الغامر الذي ألمَّ بها فنامت بعمق لا مثيل له، ومع سماعها لأذان الفجر من جامع المخيم البعيد، قامت مفزوعة، وتوالت أنفاسها المتلاحقة إلى أن هدأت، يا ترى هل غادر أبوها بالفعل وهي نائمة؟! امتدت يداها تزيح الستائر عن النافذة الواسعة في حجرتها، وطالعتها النخلات، وصمت الصحراء والليل الذي بدأ يتحول إلى اللون الأزرق، ثم ظهر كعادته، وأمسك القلة ذات الفم النحاسي، و توضأ ثم صلى الفجر. خشيت أن يسير نحو مقصده، ولا يرجع للبيت بما أنها عرفت وما صارت هناك ضرورة للتأكد من نومها قبل رحيله، لكنها تذكرت أنه لا

يزال مرتديًا الصديرية والسراويل، سيصعد؛ ليرتدي ملابسه ثم يذهب. هذا هو الوقت المناسب تمامًا لمفاتحته في نقاش نشاطه الليلي الغامض،قبل أن ينسل منهما يومٌ آخر، تنوي الذهاب فيه لنجيب لتتفق معه حول ما سيفعلانه.

وتذكرت ما كانت تفكر فيه الصَّباح الماضي، حين قررت أن تسانده فيما ينوي فعله على أيِّ وضع، وخطر لها أن تقوم بعمل جنوني هذه الليلة، ستتبعه بنفسها لتعرف إلى أين يذهب!! لم تدرِ لماذا خطرت تلك الفكرة الجنونية على رأسها في تلك الليلة بالذات؟ ربما بسبب أنَّ ما حدث بالأمس مع نجيب جعلها تعيد التفكير في حياتها كلها، لم تعد بنتًا ضعيفة تتحسَّس طريقها في الحياة، بل صارت امراة ناضجة في عهد جديد من عهود عمرها، و لم تعد مساعدتها لأبيها ومساندته شيئًا سلبيًّا يتم بالحديث ومشاطرة الهموم، بل صارت أفعالها تتسابق مع كلامها في المساعدة، و لم تكن تريد أن يعرف أبوها أنها تتبعه، وقررت ألا تظهر نفسها له، ولا حتى تخبره بأنها تبعته في تلك الليلة، سوف ينتهي ذلك النهار الوليد بها في المترل، ومعها معلومات مؤكدة حول ما يفعله بالتحديد، بعد هذا يصير الكلام معه ممكنًا، وتصير مساندته خيارًا متاحًا.

وانتظرت حتى خرج من المترل، ثم انسلت من وراءه في صمت، وما إن لامست قدماها الشارع حتى لفحها نسيم الفجر المنعش، ورأت أباها بعيدًا يسير باتجاه الحدود اللبنانية التي كانت تبعد حوالي نصف الساعة سيرًا على الأقدام، مرتديًا

قميصًا وبنطالًا، وحاملًا بيده حقيبة سفر كبيرة وبعض الأوراق. ووصلًا لمكان ما في الصحراء بعد ربع ساعة فقط من السير، فقدرت أنهما أقصى شمال مدينة صفد الإسرائيلية. وقف أبوها متلفتًا حوله، وكأنه ينتظر شخصًا ما، فتوارت هي خلف صخرة وبضع جذوع أشجار بعيدًا عنه، ثم لمحت شبحًا طويلًا لأحد الشباب يدنو منه، ورأته يسلم عليه مرحبًا، وعلى الرغم من المسافة البعيدة حيث تعذّر عليها رؤية ملامح أبيها وانفعلاته من مخبأها البعيد، فقد نقل لها النسيم الليلي، والصّمت المطبق جملة الفتى المرحبة:

- السلام عليكم يا شيخ حسين، بعتذر لإلك ع التأخير.

ثم ابتسم، وهو يؤكد اعتذاره:

- كان عندنا درس في الكنيسة ها الليلة، وما قدرت أخرج من القرية قبل ما ينتهي، وإنتَ بتعرف ما بريد حدًا يشوفني تارك الدرس فيمشي وراي.

قال أبوها، وهو يربت على يد الفتى المصافحة:

- لا، ولا يهمك، أنا ما صار لي كتير هون.

ثم قال فجأة بلهجة مختلفة، وهو يسلم الحقيبة للفتى:

- هون البنادق يللي طلبتن اياها، والأدوات اللازمة لمنصات الصواريخ الجديدة، وهايدي هي الملفات، فيك تراجع كل شي بنفسك.

فقال الفتى، وهو يتناول الحقيبة:

- ما بيصح أراجع وراك يا شيخنا.

فرد أبوها بسرعة، وكأنه يتوقع هذا الرد:

- هايدي منا حاجاتك يابني، هايدي حاجات ناس أمنوك تستلمها لهم، وهلأ فيك تراجعهم، هايدي أمانة.

فأمسك الفتى الحقيبة، وانحنى على الأرض فاتحًا إياها محاولًا المراجعة بشكل سريع، غير مدقق؛ كي لا يسبِّب الإحراج للواقف أمامه، وقال أبوها للفتى المنهمك:

- وبلغهم إن إحنا بيسعدنا نتعامل مع رجال المقاومة اللبنانية الأبطال، وقل لهم كلهم بارك الله فيكم.

حاولت مريم أن تقترب أكثر؛ حتى ترى هذا الشخص مندوب المقاومة اللبنانية، فربما كانت هي أو نجيب يعرفانه، فخرجت من خلف الصخرة، وحاولت أن تتقدَّم، ولكن أبيها التفت للخلف فجأة بغريزة المقاتل، ورآها واقفة على بُعد أمتار منه كأغرب الأشياء التي يمكن أن يراها، ودون أن يفهم انقلبت ملامح وجهه مغضبة، وصاح بدهشة صارمة:

- مريم!!

فالتفت الفتى المنحني على الحقيبة بغتة لأعلى؛ لكي يرى ما يقوله الشيخ، ولكن ما إن رفع رأسه حتى تجمَّد مترعجًا. وذهلت مريم وهي تطلع لملامح الفتى الواقف خلف أبيها

الغاضب، ومدَّ أبوها يده فجأة ليمسكها من ذراعها في قسوة، وتمتم وهو يضغط على أسنانه غيظًا:

– شو يللي بتعملي هون؟ ليش تبعتيني من البيت؟! هايــدا خطر منك فاهمة!!

تناقلت البصر في وجه أبيها الحانق ،دون أن تــرد، ووجّــه الشاب الذي قال في دهشة مختنقة:

– هايدي بنتك؟!

ثم ندم على سؤاله حين حدجه الأب ببقايا نظراته الحــادة التي صبَّ معظمها على ابنته، ولكن نجيب بنظرة واحدة أدرك أن هذه هي حبيبته التي كانت ملكه في هذا النــهار بالــذات، وهي ابنة الشيخ حسين فعلًا، الذي وقف ممسكًا بذراع مــريم السَّمراء الفاتنة وكأنها ستهرب منه، وتبادل نجيب مــع مــريم نظرات حادة دون أن يجرؤ أحدهم على إعلان معرفته بالآخر.

– راجعت كل شيء، فيّ روح من شان ما إتــأخر، ألــف شكر يا شيخ.

ثم تراجع نجيب غير منتظر أيَّ إجابة من الشيخ حسين فعلًا، وحمل الحقيبة والملف ورحل بعيدًا عنهم في سرعة، وهو يغالب دموعه، وتأخر كثيرًا في تلك الليلة فوق مرتفعات بنت جبيــل قبل أن يذهب إلى حيث يسلم الحقيبة. صعد فــوق المنحــدر الذي كانا فيه سويًّا هذا الصَّباح، وافترش الزرع الندي بــين أكشاك الأمم المتحدة نائمًا على ظهــره، وشــهدت الجبــال

المرتفعة في لبنان، والسَّماء التي بدأ ينبلج ضوؤها في تلك الليلة، تحطمت أحلام شابٍّ أحبَّ سمراءَ فاتنة، ووعدها بـــالزواج، ثم تبين له بعد سنة كاملة من علاقة حبهم أنَّ الفتاة على غير دينه، ويستحيل بأيِّ شكلٍ أن تتزوج منه.

***

الفصل السابع

رحيلٌ

أتاه صوتها الحنون عبر أسلاك الهاتف مخترقًا حواجز المساحات الملأى بالقتلى والجرحى، ومتجاوزًا حتى الحدود الجغرافية الحمراء المؤسفة، فابتسم منتصرًا على الرغم من المسافة القاسية التي تبعد بينهم.

– لا إله إلا الله، كيف حالك يا محمود ؟ دخيلك...

هكذا في أول المكالمة، كأنما لا تستطيع الانتظار لآخرها، فهتف لها:

– محمد رسول الله، أنا مليح نشكر الله، من وين بتحكي؟

– أنا بحكي لألك من عند نجيب في الشغل، عاليا قايمة معي بأكثر من الواجب، واتحملت نضرب ها المشوار في عز الظهر تا نكلمك من هون، ونجيب ابن حلال، ما خلانا ننطر كتير.

خنقه كلامها عندما ذكرت نجيب وعاليا جيرانهما، وتذكر قريته وبيته، فتساءل ملهوفًا:

– كيفك؟ وكيفها هالة؟ شو أخباركن؟!

لهفته المشبوبة أطلقت ضحكة قصيرة جافة من جانبها، وقالت:

- كل شي بخير الحمد لله، ما بينقصنا إلا إننــا نــشوفك، وترجعلنا بالسلامة.

أكمل متلهفًا:

- من شان الله ديري بالك عليها، مــافيّ أوصــيكِ!! مــا بريدها تحس إن ناقصها شي.

ردت بسرعة:

- ما تعتل هم، اللي بينقصنا قعدتك وسطنا.

أجاب بعد ثوانٍ من الهدوء:

- أنا فيّ أقعد هون بسوريا شي أسبوعين، تا تتحسَّن أحوال الشركة في لبنان؛ بسبب الحرب، وبعدين بيرجعوني من جديد.

جاوبه صمت من جانبها حينما علمت ببقائه لمدة تزيد عن المتوقع، فقال محاولًا إدارة دفة الحديث:

- حاكيتي أهل زيد متل ما قلتلك...

صديقه الأشقر الذي مات في الطريق إلى سوريا، تنهدت ثم جارته في التغير الذي أراده:

- مرقت على بيتهم من يومين، أمه بعافية وإخواتــه عــم بيسلموا عليك، وبيشكروك من شان قمت باللازم مع المرحوم، أنا قلتلهم لا شكر على واجب، وأنه هايدا الزلمي كان صاحبك واللي عملته هو يللي المفروض ينعمل...

- كتر خيرك.

بلا اهتمام، وكأنه انتزعها من فراغ صـــدره، وانـــدلقت ذكرى صديقه الذي قتل في الطريق بين جنبات صدره كالشَّمع السَّاخن فأحرقته ببطء، لكنها- كالشَّمع أيضًا- تيبَّست سريعًا فمحت فورة الحزن، تاركةً غصَّة مؤلمة لا تنتــزع، وترقرقــت الدموع على جنبات عينيه، فخشي أن تسيل إلى صوته، وهـــو يقول:

- ما بعرف شو كنت بعمل من دونك يا أم هالة...

توقع منها شكرًا لإطرائه، أو المزيد من السؤال عن حالــه، و لم يتوقع هذا إطلاقًا:

- أنا راح فل!!

- شو؟

تساءل في حيرة فأجابته:

- أنا راح فل... من القرية يعني.

- ما بفهم، بدك تمرقي ع أقاربك بصيدا؟!!

أعجزها عدم فهمه عن متابعة الحديث، فسكتت، حمية نار كلامها المؤجَّجة أطفأها باستفساراته، وبدلًا من غضبته الـــتي كانت تجتنبها، صار الحوار عبثيًّا يدور بين ســـؤال وســـؤال، فاستشاطت غضبًا:

- إنتَ ما عم تفهمني، أنا راح فل، كلنا راح نفل... القرية إنهدمت على روسنا، والبيوت إتشلعت. عاليا، وأنـــا، وكـــل

النسوان، والرجال!! بنرحل ع أي مكان غيرهـــا، بنفـــل ع الشمال...

جملتها المندفعة كالطلقات وأد ذكرى صديقه في حينـــها، وتوقفت الدموع في محجريه وهو يتساءل في دهشة عارمة:

- تفلّي؟ ولو يا سماح، إنتِ اللي بتقولي هيك حكي؟

ندم على عبارته بعد فوات الأوان حين قالت:

- شو بتقصد؟

- ما بقصد شيء...

تراجع عن عبارته مقدرًا ظروفها في تلك اللحظات، فهـــي من تعيش الحرب في القرية وليس هو، ولكنها ثارت في وجهه هاتفة:

- ما بتقصد شيء، هيك عم بتحل كـــل مـــشكلاتك!! بتقول يللي بدك ياه وبعدين ما عم بتقصد شيء، وأنا عم إسمع الحكي تبعك في ودني، وعم إسمعك ما تقصد شيء، دخيلك...

كاد أن يعتذر ولكنها واصلت:

- وبعدين قللي هون، ليش ما عم تقصد شيء، يمكن تكون ما بتقصد اللي أنا فهمته وبتقصد شيء مختلف، لكن... كيف ما عم تقصد شيء أصلًا؟! كيف بتحكي لو ما عـــم تقـــصد شيء؟!

قاطعها مسرعًا:

- جارتنا عاليا وولادها رايحين معك؟! وكل القرية بتروح ع الشمال؟

فقالت بلا صبر:

- ع الشمال أو عا جهنم... فينا نترك البلد والسلام، عاليا بتعرف لكن قالتلي إنها هتخبِّر نجيب الليلة أول ما يرجع من الشغل، بتقول ما فيها تقول له في مكان شغله، وتعمله فضيحة هيك وسط الناس... إنتَ بتعرف إنه بيشتغل في الوكالة، ولو سيبنا القرية راح يسيب الشغل...

ثم هدأ صوتها، وهي تختم العبارة قائلة بلا لهجة:

- شو رأيك؟!

لولا أنَّ أسلاك التليفون لا تنقل الانفعالات، لكانت قد عرفت فيما يفكر محمود، وهو يعتصر السماعة بكلتَا يديه، لكنها على الأقل تتفهَّم الصَّمت الذي يسري في أذنها من السماعة كالحديث تمامًا، وربما أكثر حدَّة من الحديث نفسه، فهو في الحديث قد لا يقصد شيئًا مثلما قال، ولكن الصَّمت لا يمكن ألا يقصده، صاحت:

- أنا بعرف إنتَ ف شو عم بتفكر، تلاقيك فايق لما كنا إتكلمنا من قبل كتير، قلتلك ما بدنا نفل، وإن إنتَ راحلي وبدنا نصير ببلدنا، بس يا ترى فايق ابنك اللي مات في بطني بأيام الحرب؟!

فايق كيف إتبهدلنا، ودخلوا بيوتنا برجليهم الوسخة؟!

اللي مات ف بطني كان هيصير عزيز علينا، إنما هالة عزيزة وأنا خايفة كتير عليها، ما بدي تعيش مع الإسرائيليين حتى في بيتها وف بلدها، تموت بالصواريخ أو يغتصبوها قصاد عيوني، بتعرف كل هايدا ولا شو؟ وإذا كنت بتعرف، ليش مـــا عـــم تحكي؟!

تمتم بلهجة حزينة:

– أحكي أقولك شو؟! أنا ما عم بفكر في كل هايدا يللـــي ف راسك، أنا بعرف إن هيك من حقك، من حقنـــا كلنـــا، نعيش بمكان أحسن، وبنتنا تتربى بعيد عن الصواريخ والنار... وإن الحرب عندكن صارت شديدة في ها الإيام...

أردف بعدما تنهَّد تنهيدة طويلة:

– لو بتريدي تعرفي شو يللي بفكر فيه، أنا عـــم فكـــر أني بشكر الله إنك إنتَ وهالة سالمين هلأ، وعم فكر إن ما في شي بيسوى تتعرضوا للخطر شي ثانية، فللي متل ما بدك... بس ع وين؟

سكتت قليلًا ثم قالت تفرغ شحنات صدرها :

– لما قلتلك إنك راجلي وأنه ما فينا نفل، إنتَ ما فهمتني، أو ما فهمتني متل ما كنت أقصد، أنا ما كنت بريد أهددك، أو

أذكرك بشي بنعرفه كلاتنا، أنا كنت بتكلم عن جد، أنا كنت محتاجة لإلك جنبي... عن جد...

هدَّج صوتها، وصمتَت لحظات تحت وطأة النَّهنهات التي انبعثت من التليفون، ثم أكملت بصوتها الباكي:

– إنتَ ما بتعرف كيف إنتَ مهم لإلي، إنتَ كل شي لإلي... بتظن إني أقوى منك، وإني عم بأتمسك بالأرض والبلد مثل أهلي اللي ماتوا فوقها... إنتَ غلطان... إنتَ كتير غلطان...

أنا بتمسَّك بكل شي؛ لأن إنتَ كنت جنبي، وكانت قوتي منك... وهلأ ما في أتحمَّل أكتر من هيك، وبريدك ترجعلنا بخير من جديد يا أبو هالة !!سمعت صمته عبر السماعة من جديد، ربما كان مذهولًا مما تقول، وقد كان يظنها أقوى منه بمراحل، وقد كان يريد أن يبكي منذ لحظات خلال السماعة؛ لأنه كان ضعيفًا وهي القوية، مثلما يذهب الطفل من المدرسة شاكيًا إلى أمه مضايقات زملائه وهو يبكي... الضعيف يبكي أمام القوي، هذا هو المعتاد، أما أن تبكي الأم في قوتها وهي تسمع شكوى ابنها فهو أمر محبط لكليهما، ولهذا حالما ضعفت كلماتها، قويت كلماته، ولكنها تعرف أنه ما كان يعلم في النهاية أنَّ قوتها تلك مستمدة منه، وعائدة إليه في دورة العطاء الجنون التي لا تنتهي، لهذا هو بالتأكيد صامت لا يبكي كما رأته من قبل على مدخل دارهما، وعمها يقول له أنه يبكي مثل

الحريم، جملة مؤلمة ناشفة قصيرة، انغرست في صدرها كالسكين. هي الوحيدة التي تعلم مبلغ قوة رجلها الذي كان مختفيًا خلف الذقن النامية، والدموع المترسلة على أطراف الوجنتين. لهذا قالت له أنه رجلها، قوتها، والآن فقط فهم جملتها بعدما أفهمته هي بعباراتها الحادة، ولأول مرة في نقاش كهذا لا يثور، ولا يضعف أو تتهدج كلماته،بل بادلها بصمت مهيب جعلها تقول:

- أنا ما بعرف ع وين بدنا نفل، أول ما بنوصل لأي مكان بكلمك في التليفون وبقلك على مكاننا...

فرد عليها بصوتٍ بدا لها مهيبًا قويًّا ومختلفًا عن صوت زوجها المعتاد أتمَّ الاختلاف:

- على بركة الله، أول ما تستقروا وتكونوا بخير، بريد أسمع صوتك من جديد، وحقيقي مني زعلان من أي شيء، الله يسلمكن لأبي يا أم هالة...

***

الفصل الثامن

العراك

لم يكن يعرف من ينظر إليه حقًا، شــخص والــسلام، أي شخص!! ولكنه بدا له طويلًا أكثر مما ينبغي! وشعره مــشعث أكثر مما ينبغي أيضًا! وكأن المواصفات التي وضعها للــشخص الذي سيقابله في ذهنه قياسية، ولابد أن تُحقق، ودفع له بيــده المليئة بالزيت الأسود، فاعترض الواقف قائلًا:

- مائة ألف دينار، هذا أوين قليل...

وكان شابًا كذلك، لم يتجاوز الخامسة والعشرين، وهذا هو أسوأ ما في الأمر، ومخالفًا لتصوراته المسبقة بــشأن الــشخص المبعوث إليه. كان يعتقد أنه سيقابل رجلًا، فــودين أشــيبين، وكرش نام، وربما شارب كث يغفو في حكمة فــوق الــشفة العليا. هذا هو الطراز من البشر الذي يظن أنه يجيد التفاهم معه في سهولة!! كهل في مثل سنِّه، فخطوط التجاعيــد القاســية المحفورة في وجه كليهما هي نتاج كفاح مشترك، وتقدير واحد لقيمة المال، أما الشباب مثل هذا الواقف أمامه فبالتأكيد تختلف معاييرهم في تقدير كل شيء، هذا جيل نشأ ليجــد الــدينار العراقي يتزلق بعنف في منحدر بلا قرار، حيث ســعر الــبترين الملوث بالرصاص يرتفع بجنون ليصل سبعة أضعاف ثمنه في أقل من عام، وللحصول عليه ينبغي أن تقف في طابور طويــل لا ينتهي كالقدر...

وحتى لو اعترض هذا الشخص الذي رسمه في ذهنه على السعر، سيتكلم معه بود واضعًا يده على كتفه، أنت تعلم كساد الحال، ميكانيكي سيارات؟! ومن يمكنه أن يصلح سيارته ما لم يمتلك أولًا قوت عياله؟!! باختصار، سيكلمه كرجلٍ لرجل، أما مع هذا الشاب فارع الطول، فكان متأكدًا أنه لن يدعه حتى يلمس كتف فانلته الزرقاء المرصعة بالصور والكلمات الإنجليزية، بيده المكتزة الملوثة بالشحم... لذلك لم يجد بدًّا من التحدُّث بفظاظة مع الشاب المنتظر منه ردًّا:

- هذوله هم المتوفرين ها الحين، إذا بتريد بتاخدهم...

نظر له الشاب نظرة طويلة محملقة، غير فاهم، أو غير مجهز بالرد، أو متحير بين ترك الصفقة كلها وبين قبول المبلغ الصغير. حزم أمره، وغمغم قابضًا على الدنانير في كفه:

- المرة الجاية مو هاخد مثلهم.

- المرة الجاية لسه ما إجت!

غاب الميكانيكي البدين في أضواء الجراج تاركًا الشاب واقفًا بالباب، منهيًا كل شيء، فغادر الشابِ المكان هو أيضًا، وانحسرت الشَّمس من خلفه في الأفق كاشفةً عن ليلٍ رمادي وليد.

ترى لو كانًا قد ذهبًا إلى البصرة مقيمين فيها، أكان هذا ما يحدث لهما؟! هناك يعيشون حياة مختلفة، ويتعاملون بالتومان

العملة الإيرانية، التي تختلف بالتأكيد عن تلك الدنانير الكسيحة التي تعتبر الآلاف منها فتات نقود!!

هناك، عاصمة الشيعة، والمكان الحقيقي الذي ينتمون إليه، حيث هدَّد محافظ البصرة بقطع إمدادات النفط عن الحكومة وكأنها مملكته الخاصة، وعلى الرغم أيضًا من وجود قوات البريطانيين في المدينة!

كان غسان قد غادر بغداد — حيث ولد- من قبل مرات قلائل، ومعظمها كان إلى ميناء شط العرب، فلم يذهب إلى أعماق مدن أخرى مثل البصرة أو النجف، وحتى قبل أسبوع حين خرج مع بعض الرجال في مهمة بداخل لبنان - يوم ضرب الإسرائيليين لمطار بيروت- ذهب وعاد في قلب الليل وفي اليوم ذاته، فلم تتسنَّ له فرصة رؤية البلد ذاتها.

- نروح على البصرة، الرجال بيرحبوا بينا هناك...

- لا، ما بنترك بيتنا والمدينة.

ما الذي يثير أمه في تلك المدينة العجوز متناثرة الأشلاء؟! بغداد!! حيث التويثة وحيُّ الجهاد، الذي عاش بينهما طويلًا حتى سئم وانفلق ذهنه بضجيج عال، كأن رأسه شجت حين جال بذهنه ما حدث في حيِّ الجهادَ من قرابة الشهر، النيران المفتوحة على مصراعيها، والطلقات التي تحصد الأجساد الجافة والسمينة، وهو واقف خلف النيران كما لم يعتد من قبل، تلوث الشظايا عينيه وروحه بينما يبقى جسده سليمًا كما هو.

وعلى العكس كان في لبنان، يضرب ويُضرب، يقتل ويُقتل... انجرح غليظ الملامح ذو العينين الزرقاوين جرحًا بالغًا، واضطر الأربعة الآخرون بمساعدة المصوِّر الأصلع إلى حمله نحو السيارة فارين بأعمارهم من البلد كلها. وبالرغم من هذا، فالعمليـــة لم تنجح، و لم يجدوا العميد السني المختفي، وطوال الطريق نحـــو الحدود العراقية صاحبتهم النظرات الزرقاء الباردة متعبة، ولكنها تنضح بالاتهام. كان غسان يعتقد أن هذا الرَّجل غليظ الملامح كرديٌّ الأصل وليس عربيًّا، فهذا يفسِّر زرقة عينيه، على الرغم من غلاظة ملامحه، وبالرغم من هذا كـــان قائـــدهم في تلـــك العملية!!

تقدمت خطواته البطيئة، ومن خلفه عتبـــة جـــراج ذلـــك الميكانيكي الذي باعه لتوه قطعتين من السلاح الأبيض. الرَّجل البدين اللعين، يستقبله بابتسامته الـــودود، وفانلتـــه الداخليـــة المتسخة العرقانة، ويديه الملوثتين بالشَّحم، ثم يكلمه بفظاظـــة بعدما أشعره بأنه صديق قديم. وبالرغم من أنَّ حاجته للمـــال ليست حقيقية، ولا هو بالفعل مضطر لبيع تلـــك الـــسكاكين الحادة لكسب قوت يومه، إلا أن الغـــصَّة الـــتي انحـــشرت في حلقومه آلمته، وكان مبعثها الأصلي هو حاجته لتمثيل كل هذا.

فأمه لم ترض قطُّ عن انضمامه لفيالق حـــزب الفـــضيلة، معتبرة مقتدى الصدر نصابًا تمامًا كأبيه محمد صادق الـــصدر- الذي لمع نجمه حين كان نظام الرئيس صدام حـــسين يمـــارس دكتاتوريته – ولهذا كان عليه أن يمثل عليها أنه يعمل في شيء

ما؛ لتفسير الدخل الثابت الذي تحصَّل عليه منه، ولهذا أيـضًا كان يبيع تلك الأسلحة الرخيصة للأشـخاص المجـاورين في مدينتهم التويثة بالذات، معتمدًا على معرفة أهل المكان بعضهم ببعض حتى إذا سألت أمه عنه من خلف ظهره، ثبت لها أنـه بالفعل يعمل في المدينة.

لملم شتات نفسه حين صار على مقربة من منزله، وصـعد طوابق البيت القديم في هدوء حتى صار بداخل الشقة الصغيرة، ومسَّه الهواء البارد الذي يتربَّى بين الجدران الرطبة لتلك المنازل المغلقة القديمة، ومن نافذة الصالة الضيقة والمواربة؛ لكي يخـرج منها الذباب في وقت المغيب، رأى الشَّمس تنحـدر بـسرعة، والزرقة الرمادية تلتهم كل شيء مبشِّرة بليلة رطبـة وحـارة. تساءل في ذهنه عن أمه حين أتاه صوتها من المطبخ البعيد:

- إنتَ جيت يا غسان؟!

سؤال بلا معنى تسأله دومًا، ويضطر للإجابة عليها:

- نعم.

صار خلفها عند باب المطبخ، قاطعًا الممر الذي يفصله عن الصالة، وتأملته أمه حين التفتت خلفها، فملأت عينيها بوجهه المبتسم، وشعره المجعَّد الكثيف، وقالت مبتسمة:

- أنا أطبخ لك شي أوين بيعجبك، وما بريدك تنزل هـذا المسا...

كانت عجوزًا شارفت على السبعين بلا ريب، وإن كان لم يسألها قطُّ عن سنها، وأبوه قد مات منذ زمن بعيد، وكان أكبر منها بكثير، فهي كانت زوجته الثانية التي تزوجها في الأربعين من عمره، لا يريد أن يحزنها، ولكنها تظن أنه لن يخـــرج ليلًـــا كعادته لمجرد أنها قامت بإعداد ما يحبه من الطعام.

- ما بقدر، إنتِ بتعرفين إن هذا شغل.

صاحت بغضب:

- مو بعرف إلا إنك لازم تقعد مع أمك العجوز، دخيلك.

يكره أن تبدأ في الصياح وكأنهـــا غاضـــبة، ثم تـــستعطفه وتتوسَّله في نهاية الجملة، هي أمه ولا ينبغي أن تفعل هذا.

- باجيكي على طول، ما أريد أتأخر، وما أريدك تمنعيني م الخروج..

ألقى الموضوع كله في يدها بجملته، وكـــأنها حقًّا تستطيع أن تمنعه من الخروج، هكذا صار عليها أن توافقه بهزة رأســـها، وتعود لأعمالها بالمطبخ، ولكنها قالت:

- انزل مثل ما بتريد، بس لازم تاكل قبل ما تنزل، انتظرني ثواني، غيَّر هدومك وتعال.

ابتسم من جديد، وهو يغادر المطـــبخ المملـــوء بـــالروائح المتناقضة، ليدخل إلى حجرته فيستلقي على الفـــراش بملابـــسه كلها. لم يكن ليرتدي الزي الأسود الخاص به في منزله، كـــان

يقوم بإخفائه في حقيبة صغيرة، وهو يخرج من المترل ويرتديه عند أحد أصدقائه في الكتيبة، وكذلك الكلاشينكوف الخاص به، والمحفور على أحد جنباته بمطواة عبارة فارسية، قال له أحد الأكراد - الذين عاشوا في إيران- أنها تعني ما شابه: '' لتمت العراق ولتصعد على أنقاضها إيران'' فهذا السلاح الروسيُّ الأصل، كان قد قدِم مع أمثاله من إيران بعد الحرب التي خاضوها مع صدام حسين في الثمانينيات حين كان طفلًا...

كان يخبئ هذا السلاح عند صديقه ذاته، و لم يكن هذا بالطبع هو السلاح الوحيد الذي يملكه، كان يملك كلاشينكوفًا آخر أكثر حداثة بداخل المترل، أخبر أمه من قبل أنه للدفاع عن النفس ضد السرقة، أو ما شابه، أو ربما ضد أيِّ هجوم سني متوقَّع – فالمنطقة التي يحيون فيها كانت تعج بأهل السنة- وأخبرها عن مكان الرصاصات الفضية اللامعة المخبأة بأحد الأدراج، ولكنه بالطبع لم يتوقَّع منها أن تستعمله حتى وإن قامَ جيش كامل بغزو شقتهم الضيقة.

دقائق قلائل وكان ظلام الشارع قد ابتلعه تمامًا هو وصديقه في الكتيبة، من المفترض أنّ الهويات تظل في نطاق السرية الشديدة، وألا يتعرَّف أحد الرجال داخل الكتيبة على الآخرين، أو يتعرفوا هم عليه، اللهم إلا بالأسماء الكودية التي يلقبون بها أنفسهم، وموقعهم التخطيطي بداخل الجيش، وعلى الرغم من المعرفة الحقيقية بين غسان وصديقه فريد داخل الكتيبة بحكم الجيرة، إلا أنّ كليهما كان ينادي الآخر باسمه

الكودي، حتى حينما يكونان منفردين، كأنهما بتلك الأسماء يترعون عباءات المجتمع الصغير، والنداء الذي كانت أمهاتهما تناديهما به منذ الطفولة، فيصير كل منهما شخصًا جديدًا، نسر وفهد...

لاحت لهما من بعيد مشرحة بغداد المركزية، وقابلاها بجسدين يرفلان في السواد، ومتشحين حتى وجهيهما.. يمسك كلٌ منهما ببندقيته الأثيرة للجهاد، فيصبح منظرهما مرعبًا في الشارع، حيث لا يجرؤ أحد من المارة على إزعاجهما أو حتى المرور بجوارهما مطيلًا النظر، هذا إذا كان أصلًا هناك من يجرؤ على السير في الشارع في ليل بغداد المخيف.

- يا هلا بيكم، هذه الليلة باينة حارة، والرطوبة بالجو، الله يكون في عونكم...

وعلى الرغم من النبرة الهادئة في الصوت، والسواد الذي يغلق الوجه أمام قارئه، حتى لتبدو العينان كآبار عميقة. تمكن غسان من تمييز نبرة الشماتة المختبئة خلف الكلمات، فقال:

- أي نعم، لكن الشغل بالليل أسهل حيل من النهار.

وابتسم من خلف قناعه الأسود الخانق، فلم يدرِ إذا كان محدِّثه قد لمح حتى تلك الابتسامة. وهكذا تمَّ تبديل الورديات في ثوان، فغادر الحراس الصباحيون للمشرحة وحان دورهم، وما لبثَ أن استقرت لفافة التبغ الإيرانية في فم غسان على مقعده بجوار باب المشرحة، حيث يتَّحد مع الليل وصوت

الصرصور المسائي والمزروعات القليلة المتناثرة حول المبنى، وزفر دخان السيجارة المتلوي في ضيق، وهو يهمس للعجوز الجالس بجواره مبتسمًا:

– الليلة بأشعر بيها هادية، ما بنريد أي مشاكل.

أومأ العجوز الكردي النحيل برأسه في هدوء. كان أحد حراس المشرحة والعاملين فيها... الحقيقيين!! وليس من بعثهم جيش المهدي لفرض نوع من الحصار على المشرحة!! حصارٌ دعائيٌّ في معظمه، حيث كانت مهمة غسان ومن معه في هذا المكان، هي ضمان عدم صدور معلومات عن المشرحة نفسها تتهم جيش المهدي وغيره من الميليشيات الشيعية بأعمال القتل للسنيين أو لغيرهم، وبالطبع ما كان مسموحٌ لهم التحدُّث مع عمَّال المشرحة وموظفيها خارج نطاق الأوامر المعتادة، أو عند مرورهم الليلي اليومي على الجثث في الثلاجات لسحب من يريدونه منها، ومعرفة هويات الباقي. وكانت معظم الجثث التي يأمر قائد القوة المحاصرة بوضعها خارج الثلاجات هي جثث لأئمة سنيِّين ينظرون إليهم بازدراء، لكن تلك الأوامر كأيِّ شيء آخر قابل للاختراق بسهولة، وإلا ما كان غسان جالسًا إلى جوار الحارس العجوز ينفخان الدخان في وجه بعضهما البعض، ويتجاذبان أطراف الحديث المكبل ليفكا قيوده.

– ما في مشاكل بإذن الله...

– ليلتك منورة يا عم عجيل.

وابتسم غسان من جديد، ومرَّ على ذهنه خاطرٌ ترجمه على الفور:

- مو فكرت أسألك من قبل، كم جثة بتـــذب يوميًّـــا في الثلاجة؟

- معذور... إنتَ كل يوم بتقعد هنا، ومو بتمر ع الجثـــث صار لك حيَن.

وفكر غسان في اللحظة التالية بأنَّ العدد حقًّا ليس مهمًّـــا، وأنَّ سؤاله أحمق، ولهذا لم يجبه العجـــوز... فالعـــدد يعتمـــد بالأساس على عمليات القتل، وهو أولى من العجوز بمعرفة من يقتل في تلك الليالي، وحتى في النهار، وساد صمت ثقيل...

- حوالي ثمانين كل يوم...

ثم أردف العجوز:

- باستأذنك،في حدا بينده، الظاهر وصل جثث جداد...

وابتسم بشكل بدا لغسان بلا معنى، ولكنـــه قـــدر هـــذا للعجوز، فهو لم ينسَ أنَّ من يحدِّثه يرى ويكلِّم شبحًا أســـودَ مخيفًا لا أكثر، ولولا أنَّ هذا العجوز شحيح البصر من الأساس، ويقيم الناس بناءً على أصواقم، لما تمكن من عقد نـــوعٍ مـــن الصداقة المسالمة معه. وانسل العجوز غائبًا في المشرحة تاركًـــا غسان في عتمة المجلس الليلي، وسرعان ما تـــدافعت رائحـــة الدماء في هواء الليل النقي من داخل المشرحة، فسرت رعـــشة في بدنه! لا تزال رائحة الجثث الطازجة تثير فيه الغثيان بـــرغم

في بدنه! لا تزال رائحة الجثث الطازجة تثير فيه الغثيان برغم فترة تدريبه الكبيرة، بالذات حينما تفوح تلك الدماء في أول الليل أو شقشقات الصَّباح، كأن اندلاعات الجو المتتالية التي تكسبه مذاقًا ناريًّا خاصًّا سواء في الفجر أو المغرب، تحمل معها الأرواح المثقلة في الهواء، لتزكم أنوف الأحياء حولها. وتطلّع للباب الأسود الممتد كفوهة البركان من حيث تصاعدت الرائحة الغريبة، وتخيل عم عجيل عجوزًا منحنيًا بالداخل فوق أشلاء المقتولين، يفرزهم، ويعدهم، ويضعهم في أماكنهم، وربما كان يبكي أيضًا... تخيله في ذهنه يبكي بحرقة فوق الجثث، وكأنها لأهله ذاتهم، ولا يدري لِم؟!

ربما؛ لأنه يبتسم طيلة الوقت، وتتراجع جوانب فيه كاشفةً عن أسنانه عقب كل جملة، لهذا تخيله يبكي بالداخل، و لم يبدُ له هذا بعيدًا ولا صعبًا، فمن تعوَّد أن يبتسم تزلفًا لمن يهدده ببندقية بالتأكيد يبكي بالداخل، على الأقل بشأن كرامته الجريحة، فغسان لم ينسَ نفسه قطُّ!! وبرغم الحوار الدافئ الذي يدور بينهم كل ليلة، هو ليس إلا محتلًّا للمشرحة، ولا يجبر عم عجيل شيئًا على الحديث معه والالتفات إليه سوى البندقية المعلقة في جرابها، نائمة وفوهتها لأسفل، ولكن يمكنها أن تستيقظ في أية لحظة معلنة عن نفسها بوضوح.

تأخَّر حارس المشرحة العجوز قليلًا بداخل المكان، ربما ربع ساعة أو ما شابه، فقرر أن يقوم ويذهب للداخل، متذكرًا عمله الذي هو هنا من أجله. فقام من مجلسه مجمِّعًا شجاعته

ليغوص في بحر الرائحة الثائر الذي لا ينفكُّ يغرقه وهو على شاطئه، وجذب من سيجارته نفسًا طويلًا حادًّا، كأنما يحذِّر أنفه من الانسياق خلف ما تشمُّه، ويهددها بشكل جذري... وقذف السيجارة في الهواء، كما يطرد مخاوفه لتسقط على الأرض.

كان الجو متوترًا بالداخل، وسهَّل له إدراك هذا منذ البداية، وعم عجيل واقفٌ لا يبكي كما تصوَّر، ثم مع دخوله التام للمكان، استطاع أن يرى خمس أو ستَّ جثث لشباب ملتحي. كان المنظر عنيفًا جدًّا ومفاجئًا، كأن هناك من عالجه بضربة على رأسه فور دخوله، طريقة القتل نفسها، والدماء التي تتمدَّد باستمرار على الأرضية المرصعة بالبلاط الرخيص، صدمة خرساء بلا توقف... تابع بعينه تمدُّد الدماء التي تفترش أسفل الجثث، حتى وقعت عيناه على أحد مساعدي المشرحة يحمل دلوًا وممسحة!! ويتحرك في همَّة نحو الأجساد كأنما سينظف بقعًا من الصلصة الحمراء. لم يتخيل أنه يمكن أن يتأثر بتلك السهولة، ولم يتصوَّر أن يميل على الأرض بانحناءة مفاجئة فيسقط تحت قدمي أحد الشباب المقتولين. ووجد نفسه فجأة ينظر لأقدام القتيل المتربة ونعاله المهترئة، هذا الاهتراء والتراب هما آثار الآدمية الممحوَّة عن هذا القتيل. بعد قليل سيغسلونه، ويدخل الثلاجة نظيفًا حافيًا باردًا، كأنما لم يكن إنسانًا قطُّ!! وكأنه تمثال من الشَّمع يخشى صاحبه أن يذوب إذا ترك خارج الثلاجة قبل إعداده للبيع!!

غالب غثيانه بصعوبة راجيًا ألا تنفلت أعصابه أكثر من هذا، وقد تبيَّن له وجود أكثر من فرد من كتيبته، يرتدون السواد كالأشباح. كان هذا مشتتًا وعنيفًا حين كانوا ينظرون إليه، بقع من السواد متجهة نحوه لا يعلم إن كانوا يتعاطفون معه، أو يسخرون منه، وإن خالطه شعورٌ بالارتياح؛ لأنهم لا يرون وجهه أيضًا. ومدَّ مساعد المشرحة يده المرتجفة الخائفة نحو غسان ليعينه على النهوض، وحالما وقف على قدميه من جديد ملوثًا بالدماء التي تغرق البلاط والغثيان الذي يعتصر بطنه وعقله، سمع صوت صديقه فريد من أحد الرجال الواقفين مغمغمًا، وهو يمسك بهاتفٍ خلويٍّ يضغط أرقامه بشكل متتابع:

- اتقتلوا من ساعة شمال بغداد، كلهم ماتوا ومو في حدَا فر.

أدرك أنَّ صديقه يكلمه محاولًا تجاوز ما حدث. وقبل أن يرد هتف صديقه فجأة متكلمًا في الهاتف، وهو يحاول إبراز الحزن في صوته من خلال بطء مقاطعه :

- سلامو عليكو، أهل حسن معي، البقاء لله... أنا بتكلم من الجوال تبعه، هو هون في المشرحة وبيريدوكم تتعرفوا على الجثة، وعليكم السلام ورحمة الله.

ثم أغلق زر الهاتف ملتفتًا نحو عجيل العجوز، وغسان، والشابين الآخرين، وقال:

- حسن هو زعيمهم، بيجوا حالًا أهله، نحنا بنتبعهم ويوفقنا الله...

ثم أردف قائلًا لعجيل:

- عم عجيل، بينظرو للجثة ويتعرفوا عليهـــا، وتتـــركهم يمشون بسرعة، أنا والرجال بنكون بالخارج.

تلفّت غسان حوله في دوار بسيط، وسمع صـــديقه يكمـــل قائلًا:

- بنريد حدًا يظله هنا للحراسة، نسر... يناسبك هذا؟

- لا...

متحشرجة وسريعة كأنما يرفض اتهامًا حادًّا، ثم أتبع متمالكًا نفسه:

- ثواني وبروح معكم، أتركوا هنا أي حدا.

خرج الرجال الملثمون ثلاثتهم، وظل العامل يمسح الأرضية في صمت، وعجيل يعد أماكنًا للمقتولين في ثلاجاته بالداخل، قبل أن يذهب ليوقظ طبيب النوباتيجية لفحصهم، وقبـــل أن يخرج غسان من الحجرة التي تنضخ بالدماء والموت، ألقى نظرة أخيرة على أجساد الرجال الخمسة المقتولين، كأنما يتأكد مـــن موتهم قبل رحيله. كانت أيديهم وأرجلهم مقيدة، فيما أعينهم معصوبة وأفواههم مكمّمة بالأشرطة اللاصقة، وفي كل جثـــة كان هناك مكانٌ لجرح يترف ببطء، شرايين مقطوعة أو رسغ

نازف، وبعض الجثث تحمل أثارًا للتعذيب، مثل هذا القتيل ذي النعلين المهترئين التي تسيل الدماء من جرح في ظهـــره بغـــزارة كثيفة. كانت تلك الطريقة المرعبة في القتل هي ما صدمه حين وطأ المكان، الأجساد المكبلة بقوة، وكأنها إن فكت حبائلـــها تحيا من جديد وتشهد على قاتلها، والحياة التي تترف ببطء مع كل قطرة دم تسيل من هذا الجرح، ليموت المجروح في أكثر من نصف ساعة متشنجًا قرب نهايته، وقد تمردت أجهزته العصبية على كل شيء آخر.

طريقة حراس الخميني، الطريقة التي كان يقتل بهـــا الجنـــود العراقيون على يد الإيرانيين في الحرب العراقية الإيرانية، تعـــود الآن وبقوة، وكأن تلك الأيام قد عـــادت، أو أوشـــكت أن تعود... همَّ غسان بالخروج من الحجـــرة حـــين رن الهـــاتف الخلوي من جديد — الموضوع فوق جثة صاحبه بإهمال– فرفعه نحوه متطلعًا إلى الكلمات على الشاشة، نظر طويلًـــا لكلمـــة ''المترل'' مستمعًا للنغمة التي لا تنقطع، ثم قذف بالهاتف فجأة نحو الجدار البعيد، فتهشم عليه محدثًا صوتًا متقطعًا، ثم ســـقط على الأرض مكسورًا وصامتًا...

***

عاش غسان حسن الهاشمي طويلًا جدًا في التويثة، على الأقل بالنسبة لسنواته الخمس والعشرين، وحفظ أبواب بيوت المدينة وهي لا تزال تتشكل مثل طفولته وصباه. قامت مدينة التويثـــة بالأساس في مكان المفاعل النووي الذي ضربه الإسرائيليون في

عام ١٩٨١، عام مولده تحديدًا، ولكن سرعان ما زحف إليها العمران من بغداد، وصارت مزدحمة مثل أي مكان آخر. عرف والده في هذا المكان، ولكنه لم يعرف إخوته إطلاقًا، لم يرهم، أو يسمع شيئًا عن أخبارهم، ولم يزعم حتى لنفسه أنــه بحــث عنهم بجدية مفترضًا أنهم الأكبر منه، والأجدر بالبحث عنــه، حتى قد عرف اسميهما بعناء من أبيه العجوز، وهو في السادسة من عمره، كاظم وعلي، وعرف أن كاظم قد مــات في عــام ١٩٨٠، ولهذا السبب هجر أبوه زوجته الأولى وأم ولديه.

يا سبحان الله، تركها الرَّجل وتزوج فور وفاة ابنه، ويقــال أنها تركت منزلها بعد رحيله حتى لا يعــاود البحــث عنــها، ولكنها كانت مخطئة بكل تأكيد، فأبوه كان نذلًا كمــا سمــع عنه، ولم يكن ليبحث عنها، أو عن ولده الثاني الذي كــان في الثالثة عشر وقتها، يكفي أنه تزوج وأنجب في سرعة وبساطة، وكأن تاريخه شيءٌ لم يكن، وكأنه يمحو ابنه الميت عن عاتقــه، يمحو من حياته السنين الطويلة التي قــضاها في البــصرة أو في بغداد، فقد كان أبوه فاسدًا، ونذلًا، وحقيرًا، وإن كان لم يــرَ منه هذا، لم يرَ منه سوى عجوزًا مسالمًا، يعيش من عمله البسيط حتى مات في سنين طفولته، وصار عليــه أن يتــرك المدرســة للعمل، ولكنه لم يكن آسفًا لهذا، ولم يكن غاضبًا من أبيه بشأن هذا أيضًا.

كان أبوه قد فسد طويلًا حين كان في البصرة، حيث قــام عبد الكريم قاسم بعمل الانقلاب الكبير على الملــك في تمــوز ١٩٥٨، وتحولت البلاد إلى الجمهورية وأسقطت الملكيــة، وتم

السَّماح للحزب الشيوعي بالعمل والتحرك، ودخل في جحافل الشيوعيين الذين صاروا في كل مكان، يملؤون البلد ضجيجًا وصراخًا، ذلك التيار الذي غزَا كل البلاد العربية والعالم في وقت من الأوقات. انجرف أبوه حسن الهاشمي في منحنيات هذا التيار بكل قوته، صار عنيفًا وفظًا وملحدًا.. حُكي له أن الشيوعيين كانوا يجوبون الشوارع، وينظمون المظاهرات، ويقتلون معارضيهم شر قتلة، يطالبون النساء بالخروج والتظاهر مع الرجال، وكانوا يرمون الأفاعي والعقارب على المخالفين لهم، وكانوا يقطعون أجسام المعارضين لهم في الشوارع قطعًا، ويحرقون المعارضين لهم وهم أحياء بعدما يسكبون عليهم النفط والبنزين، أو يعلقونهم أحياءً أو أمواتًا على قنارة القصابين ثم يقطعونهم بالسواطير... وما استعصى على فهمه هو فكرة الحرق بالنفط!! ولكنه علم فيما بعد أنه بعد تلك الثورة اتبعت شركات الامتياز النفطي الأجنبية سياسة معاقبة للعراق بالحد من إنتاجه في الأسواق العالمية، فصار النفط مندفعًا في داخل البلاد ومتوفرًا، ربما أكثر من البنزين. وحُكي له كذلك أنهم كانوا يمدون الضحايا على الأرض بعد ربطهم بالحبال، ثم يداسون بالسيارة الثقيلة المعدة لتسوية الأرض التي تسمى المحدلة. حكي له أنَّ أباه ارتكب كل هذه الشناعات، وحطَّم كل المقدسات في الدنيا، فصار يشرب ويزني بلا أيِّ رادع. لهذا لم يندهش حين علِم فيما بعد أنه فرَّ من زوجته وابنيه الحي

والميت؛ لأنه بهذا يمحي آثار المحدلة- التي سوَّت حياته بالأرض - عن ذهنه.

وبالطبع مع شخصية مثل شخصية أبيه، لم يكن هذا هو الفرار الأول في حياته، كان قد فرَّ من قبل مع زوجته الأولى من البصرة إبَّان حكم عبد السلام عارف، الذي كان سنيًّا عنصريًّا يضطهد الشيعة، فرَّ من مدينته نحو الشمال على الرغم من تحذيرات أهل المكان له من الحرب التي يشنُّها عبد السلام عارف على الأكراد شمالًا، وذهب إلى بغداد لأول مرة مع زوجته وولديه.

وفي ١٩٦٨ قام حزب البعث العراقي بعمل انقلاب عسكريٍّ آخر ضد عبد السلام عارف، ولكن هذا لم يمح عهد العنصرية السنيَّة في العراق. وعاش أبوه منذ ذهب لبغداد مع عائلته في عزلة، وحاول التغيير من حياته الطائشة في شبابه، فظل لفترة طويلة يحاول رسم الخط الفاصل بين الموت والحياة في خلايا عمره، إلى أن جاء ما دمَّر كل ما فعله: الحرب العراقية مع إيران في مطلع الثمانينيات. كان يعتبرها حربًا سنية شيعية، ليس طرفًا فيها، أو على الأقل ليس طرفاً عراقيًّا، حيث كانت تدار من قبل صدام حسين، ولكنه على الرغم من هذا أجبر على أن يدخلها بقلبه وعقله، حين تمَّ تجنيد ابنه كاظم في الجيش، وقتل في أول شهور الحرب مع هجمات الإيرانيين المتفوقة، وعندها لم يحتمل، وتحطمت حياته تحت ثقل همومه، ففرَّ من البيت كطفل يهرب من أبويه، وتزوج من سيدة

بغدادية شابة، تعيش مع أهلها في التويثة محاولًا نسيان كل مـــا حدث له، بإنجابه في نفس العام طفلًا جديدًا وكأنه الأول. نذالة أحكم استعمالها التدهور النفسي، فصار لا يعرف حتى الآن – رغم أنه فكر في الموضوع كثيرًا– ما إذا كان أبوه مخطئًا ودنيئًا، أو ضحية لتدافع الشباب، وتبدل الظروف.

سؤالٌ صعبٌ، ولا يمكن الإجابة عليه بشكل منطقي شاف، وإلا صار على من يجيب أن يخبره بمدى أخلاقية ما يفعل، وهو واقف على باب المشرحة منتظـــرًا أهـــل الخمـــسة المقتـــولين بالداخل، الذين كانوا قد وصلوا منذ دقائق بلهفة محمومة نحـــو جثث آلهم. وكان المبعوثون في هذا الليل من الرجال الملتحين، وأهل السنة كذلك.

وقف مع فريد والرجال الآخرون ينتظرونهم حتى يتبعـــوهم إلى منازلهم، ولم يخفَ عليه أنهم سيقتلونهم أيضًا بعـــد ذلـــك، وربما بالطريقة ذاتها التي رآها في المشرحة منذ دقائق، لهـــذا دار أبوه في ذهنه منبعثًا من الماضي. لم يبالِ قطُّ منذ خمس سنوات قضاها مع السلاح بالحلال والحرام فيما يفعل في الجهاد، قـــالَ لهم الشيوخ الذين يترأسونهم في الكتائب مـــرارًا أنَّ المـــسلمين السنة أو أيَّ طائفة أخرى غيرهم في النـــار، دمهـــم مبـــاح، وأموالهم غنائم، ولكنه لم يهتم حقًا بهذا!!! من قبل كان عصر مسلمي السنة يمارسون ضد الشيعة والمخالفين أفظع الجـــرائم الفردية والجماعية، واليوم في خضم الاهتياج الأمريكي بالعراق، يشرق عصر الشيعة، يقتلون مسلمي السنة، وينكلون بهم، هذا

هو ما يهتم به وكل شيء آخر هراء.. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ من يقتل ينبغي أن يحسن القتلة، هذا لا اختلاف عليه، أما تعذيب من تنوي قتله ليموت ببطء صارخًا متشنجًا هو حرام... حرام، سواء للشيعة، أو السنة، أو حتى من لا دين له، لهذا لم يعر أدنى اهتمام لكلمات الشيوخ حول قتل السنيين وترهيبهم، هذا ثأر مدني، وسياسي، وجهاد في الوقت ذاته، ولهذا السبب بالذات ظل أبوه مثالًا حيًّا في ذهنه طيلة الوقت، لم يره ولكن سمع عنه، ما الذي يدفع الشيوعيين في عام ٥٨ لقتل كل هؤلاء المعارضين؟ وبالوسائل السادية المرعبة التي حكى عنها كل من عاصر تلك الفترة؟ ما الذي يدفع قوات حرس الخميني لقتل الجنود العراقيين بطرق مشابهة، ولا تقل بشاعة عن سالفتها؟! الترهيب هو المسمى الظاهر لهذه الطرق، ولكن الانتقام هو المسمى الحقيقي، وهو كان ينتقم، لأبيه المراوغ الذي مرَّ فوق حطام الأيام ليموت فوق رأسه، ولأخيه المقتول في الحرب، وربما بنفس الطريقة التي رآها منذ قليل، ربما سالت دماؤه من فتحات ظهره على البلاط ليمسحها حارس المشرحة بالدلو والممسحة أيضًا، ولأخيه الآخر الذي غاب بعيدًا قبل مولده ولا يوجد أمل في لقائهما، وحتى لو تلاقيا... ربما صار كلاهما عدوَّين في بلد مثل العراق، منقسم لمئات الطوائف والأعراق.

كل هذا حدث له ولأهله، ولابد أن يدفع ثمنه شخص ما، ولهذا كان ينتظر خلف الجدار وسط الأنفاس المختنقة في القناع

الأسود ليقتل أشخاصًا جاءوا للتعرف على قتيلهم بمكالمة تليفونية واشية خائنة، هذا هو ما يحدث ولا يوجد أدنى سبيل لتبريره أو إعطائه شكلًا جهاديًّا أو عقائديًّا، فهو إنسان مثقف، قرأ كثيرًا وكان يكتب حتى الشعر!! أكثر جوانب الأدب رومانسية وإرهافًا فلم يعد باستطاعة أحد خداعه، أو تسمية الأشياء بغير مسمياتها.

احتضن ماسورة الكلاشنكوف إذ سمعوا وقع الخطوات الخارجة من المشرحة، ورأوا ثلاثة من أهل المقتول يسيرون على مهل، وهم ينهون حديثهم مع عم عجيل. توقفت خواطره فجأة عن التوارد عبر ذهنه، وتجمَّد أبوه في الهواء مع بروز الرجال المنتظَرين، ثم ركب مع زملائه سيارة رمادية عتيقة، تتبَّعت السيارة الأخرى التي استقلها أهل القتيل على غير مبعدة من المشرحة.

غاصت أفكاره تمامًا وسط سواد الليل المحيط بالسيارتين، وهو يسأل الجالس إلى جواره:

- إيش ناوين نسوي معهم؟

- مو بعرف، فهد يخبرك.

صديقه فريد، وزعيم تلك المجموعة بشكل مرتجل وبلا تخطيط؛ ربما لأنه أكثرهم خبرة قتالية، أو سنوات جهاد، أو لمجرد أنه أكثرهم شراسة وغلظة على الرغم من تقارب عمريهما، وردَّ فهد تلقائيًّا بلا سؤال:

- بنقتلهم أول ما يغادروا، وبنعرف وين ساكنين زين...

صمتٌ متفهمٌ من جانب غسان أعاد الهدوء، وسرعان ما انتهى خط السير بتوقف السيارة في أحد شوارع الأعظمية، تبعتها في الوقوف السيارة الرمادية، وخرج أهل القتيل من سيارتهم تستقبلهم لهفات أهل الدار وبكاؤهم، سيدتان، وشابة، ومجموعة قليلة من الرجال الواقفين في مدخل البيت المنير بالحياة، بالرغم من قرب الفجر.

منيرٌ بحياة قاطنيه، أو منير بموت أحدهم!

دار الملثمون حول سيارتهم، وأحاطوا بالمكان من الجهات المختلفة في الظلام الكثيف، وبرزت أعينهم من بين طيات اللثام كلغة حوار، فأشار فريد برأسه أن يتقدموا، ثم رفع كفه لهم فجذب كلٌّ منهم ذراع أمان الكلاشينكوف، وبالرغم من القفازات التي يرتدونها راودت البرودة عظام غسان، وهو يجذب طرف سلاحه، فيمضغ المعدن بعضه بعضًا محدثًا صوتًا معدنيًّا جافًا...

هذه الناحية مسدودة، من هون هنمشي، ماكو أي منفذ ولا حتى من هذه الناحية... الله أكبر... حسبي الله ونعم الوكيل، كيف نعيش بهذا الإرهاب؟!

تتجمَّع الذكرى حادة كنصل دامٍ، وترتدُّ التفاصيل بسرعة كطبق زجاجي مكسَّر تتجمع شظاياه من جديد، طرقات، وصراخ، ووميض عنيف، وأصوات البنادق والرصاص، وتناثر

الدماء في كل مكان... تلحمه الذكرى حين تصل إلى السنيران المغرقة في حي الجهاد، ولكنه ينفض كل هذا عن رأسه من جديد، ويحاول أن تحتل اللحظة ذهنه بالكامل، وأن لا يسمع أصواتًا خارجة من زمان مضى، ومع انفراج أسارير البنادق لهفة للقتل، سمع اثنان من أهل القتيل صوت المعدن المتراكب، فالتفتا خلفهما والتقت أعينهما بعيني فهد للحظة واحدة مباشرة، ثم انطلقت الرصاصات مجلجلة لتقتل الرجلين في اللحظة ذاتها، وكان هذا إذنًا بإطلاق فيض الرصاصات من البنادق كلها، وانهمرت الطلقات من الجهات الأربع نحو الأسرة الواقفة أسفل المبنى، فسقط من سقط واحتمى اثنان ببوابة المبنى الحديدية في صمت وكأنهم كانوا يتوقعون، واشتدت الطلقات التي انعكست من فوق تضاريس الباب المعدنية قبل أن يصيب بعضها المختبئين فخرًّا صريعين بسرعة، وانتهت العملية بلا صرخات أو توسل، فقط بدماء غزيرة أغرقت عتبة المبنى وأرض الشارع. التمع وجه غسان لحظيًّا خلف لهب بندقيته قبل أن يتوقف تمامًا، وهدأ كل شيء فانهمرت على رأسه الذكرى كالرصاص من جديد، حادة، وقاتلة، ومرعبة... وثار عقله كله، فضغط الزناد بقوة من جديد بلا هدف، كأنما ينقذ نفسه من مشاعره، ويقابل رصاصات الذكرى برصاصات بندقيته...

***

- هذه الناحية مسدودة، من هون هنمشي...

صاح قائد السيارة الصغيرة الحمـــراء —الـــتي كانـــت أولى السيارات في الطريق — بصوت بلغهما عند مفـــرق الطريـــق، وترقب بعينيه المجعدتين ردَّة فعل جنود جيش المهـــدي الـــذين يسدون الطريق عند مخرجه، بلا تحفز معين أو نية في التحرش، وحاول حتى أن يفكر في المرور بينهم، ولكنه استدار للخلـــف جاذبًا مقبض السرعات ومديرًا للمقـــود، ونظـــرت زوجتـــه للأطفال في توجُّس ثم قالت:

- ماكو أي منفذ، ولا حتى من هذه الناحية.

ولكنه لم يستمع إليها، فتراجعت العجلات أمتـــارًا فـــوق الأسفلت الندي في هذا الصَّباح الباكر، وظهرت مـــن بعيـــد مجموعة أخرى من الملثمين تسدُّ الجانب الآخر من الطريق بجوار البيوت المتراصة، وبقي لديهم منفذ واحد في وسط الـــشارع العريض في فرجة بين عمارتين. تأمل أحد الطفلين توتُّر والديه وهم يبحثون بأعينهم بين وجه الرجال عن نوايا تحرش، وتفرَّس الأب من جديد في البنادق المعلقة في أماكنها، ومكبر الـــصوت الموضوع على فوهته فوق أحد البراميل التي تسدُّ الطريـــق، ثم أدار المقود نحو المخرج الأخير. اكتشف وجود مجموعة ثالثـــة تسده فتملكته روح الحصار، وتمتمت الزوجة المرعوبة:

- شكلهم مو بينوي ع الشر, سمي وامشي من وسطهم...

- بسم الله الرحمن الرحيم.

اهتزت شفاه الرجل بغمغمة ما، وسارت الـــسيارة بطيئـــة متوترة فوق الطريق، نحو أول مجموعة من ملثمي جيش المهدي، وحاول الرَّجل ألا يركز بصره في أيٍّ شيء، فنظر أمامه نحـــو فرجة من نور الشَّمس الوليد تنبثق من على تقاطع الشارع مع الشارع الرئيسي، وتوهجت بقعة النور مع تقدمـــه، وكأنهـــا مكافأة يجنيها بتجاوز هؤلاء الرجال، توصلت لمسامعه همسات عديدة تجاهل التفكير فيها، وحاذر من النظر إلى جانبه، وقـــد أصبح بين الملثمين تمامًا...

- الله أكبر.

انطلق الهتاف فجأة من اللامكان، وتبعته الحناجر الأخـــرى هاتفة، واستبد الذعر بالرَّجل فضغط دواسة الـــبنزين بـــصورة مفاجئة؛ ليعبر ما تبقى من الطريق، حين تعـــالى إلى مـــسامعه صوت الاحتراق والنيران التي تأكل أحد البيـــوت المجـــاورة، وخرجت البنادق من معاقلها، وتحرك الرجال الملثمين فجـــأة، فاحتضنت الزوجة طفليها الجالسين في المقعد الخلفي...

وكان هذا حين هوى أول دبشك بندقية من الفراغ نحـــو زجاج السيارة محطمًا إياه في عنف، وتبعته بعدها ظهور البنادق الأخرى.

- حسبي الله ونعم الوكيل...

صرخت أم غسان، وهي تتابع نشرة الأخبار فجأة، فمـــال بجذعه خارجًا من المطبخ، على حين تابعت:

- كيف نعيش بهذا الإرهاب، والله حـــرام... ربنـــا مـــا هيتركهم لحالهم.

شاهد سيارة حمراء صغيرة ممزقة ومحترق جانبها، وبقع دماء واسعة تحتل شاشة التليفزيون، وبعض الملـــثمين يركـــضون في المكان، وشاهد بيوتًا تحترق بالدخان المتصاعد دون وجود أيِّ سيارة للمطافئ، ثم نظر إلى أمه التي تشاهد كل هـــذا بعيـــنين خائفتين إلى حدٍّ الرعب، لم يستطع أن يـــرى نفـــسه علـــى التليفزيون. كان قد غادر قبل أن يُسمح لمـــصوِّري الأخبـــار بالنفاذ إلى المكان، بعدما وقف طويلًا في برد النـــهار، وقـــسوة السطوة تمنحه قشعريرة في ظهره، مع صوت الصراخ المتتـــالي والبنادق تنهال على السيارات.

بعض الرجال سحلوا من على مقاعد القيـــادة، وأصـــابتهم الرصاصات في أمخاخهم، والبعض مات مع أسرته بداخل سيارة محترقة أو مهشمة... الشيعة يمرون، والسنة يقتلون، وكان معهم بضع رجال من أهالي حي الجهاد نفسه يعرفون سكانه واحـــدًا واحدًا، وكانت العملية مخططة تمامًا ومنسقة، وجاءهم الحـــشد والإمداد مرارًا من حي العامل المجاور، وتوقفت سيارات وزارة الداخلية عاجزة تمامًا بخارج هذا الحصار على أطراف الحـــي.. اندلعت النيران من بيت عضو الحـــزب الإســـلامي العراقـــي، وخرج جيران المنزل صارخين تستقبلهم الرصاصات من كـــل مكان، سحب اثنان من الرجال أحد السنة الملتحين إلى وســـط

الشارع المليء بمن خرج من السكان، وأقعده وسط الدماء فتلوث جلبابه تمامًا، ووضع الكلاشينكوف على رأسه:

- هذا الخائن سيقتل ليكون عبرة لغيره، الله أكبر...

وغطت صرخات النساء والرجال على صوت الرصاص والدماء المتفجرة، وتابع غسان ما يحدث من خلف برميل معدني، لم يكن أطلق النار، ولا شارك في ملحمة الدخان والدماء الدائرين على رأسه، كان يلتفت للناحية الأخرى من الطريق، وكأنه يراقب حذرًا من قوات الشرطة، وهو في الحقيقة يهرب بعينيه مما يحدث، لا الشرطة، ولا غيرها تستطيع أن تخترق صفوف جيش المهدي، أو حتى تقترب منه، ولكنه يمثل المراقبة، و ثم يعود فتلتقي عينيه بأعين زملائه وسكان المنطقة الخارجين من كل شبر في الأرض بفزع عميق، والنيران المفتوحة على مصراعيها، وفجأة سحب أحد الرجال إلى جواره مكبر الصوت موجهًا فوهته إلى السَّماء؛ ليعبر بصوته فوق الصراخ، وأصوات القتل، والتدمير... ثم صاح:

- يا أهل السنة في المكان، كلكم أخرجوا من حي الجهاد، هذا الحي ملك للشيعة فقط، واللي مو هيخرج هنقتله هو وجميع أهله في الحال، نحنا معنا مقاتلين بتعرف الناس واحد واحد، أخرجوا أحسنلكم بسرعة...

لم يكن يعلم أن هذا هو الهدف من تلك المجزرة، حتى سمع تلك العبارات المقتضبة والرهيبة، كان يظنها مجرد عملية لحرق منزل عضو حزب الجهاد الإسلامي هذا وقتله، وظن أن هذا

هو الهدف من الحصار، لكن الآن تبين له كل شيء، وصارت عملية التهجير والقتل الجبرية لسنة المنطقة مفهومة بالنسبة لـه تمامًا، وصارت النيران التي يراها دموية، وعنيفة، ومفاجئة... ممنطقة، وذات هدف واضح.

رحل عن المذبحة في أول الراحلين، وتوقف أمام التلفزيون إلى جوار أمه، وكأنه لم يكن هناك منذ ساعات قلائل، يواجه الصَّباح القادم على المارة في الشارع بالفزع والإرهاب... إرهاب!! تمامًا كما وصفته أمه، إرهاب، أو جهاد، أو قتل لمجرد القتل... كلها أشياء مختلطة المعنى، لا يرغب في تفكيكها في ذهنه. بوسعه أن يتَّهم أمه بنقص الدين، وعدم تقدير الجهاد الشيعي حق قدره، وبوسعه أيضًا أن يتَّهمها بالسَّذاجة السياسية، وعدم معرفة مقتضياتها، بل بوسعه حتى أن يتهمها بالرقة الزائدة والضعف، ولكنه لن يفعل.. فهي بكلماتها لم تنقض معتقدًا لديه، فتجعله بحاجة للبحث عن تبرير، فالمعتقدات في ذهنه مركبة تمامًا كما في ذهن كل الناس، وليست صافية هذا الصفاء الذي لا يرى إلا في برامج التلفزيون حيث أفكار الأشخاص بلورية شفافة. هذا شخص يعتقد أنَّ التفجيرات والقتل إرهابية، وآخر يعتقد أنها جهاد أكيد، وهذا شخص يحب العراق ويسعى لرفعته، وهذا آخر يكره الإيرانيين، ويرفض التعاون معهم بأيما شيء... أفكار ناصعة البياض، أو حالكة السواد في مظهرها!! على الرغم من أنَّ الحقيقة بخلاف ذلك تمامًا، فهو يحب العراق، ويكره الإيرانيين – كيف لا،

وهم من قتلوا أخاه والكثير من أهله في الحرب؟ وهـــم حـــتى يحاولون فرض السيطرة السياسية على بلاده الآن ؟! - ولكن هذا لا يعني شيئًا، لا يعني أيَّ شيء...

رحل من أمام الشاشة ذاهبًا لغرفته؛ كي يهرب من مشاهدة ما فعلوه بأنفسهم في الصَّباح، وصاحت أمه من خلف رأسه:

- شفت الكفرة إيش بيعملوا؟ قتلوا ناس سنيين جيراننـــا بحي الجهاد، بيفرقوا بين البلد، هذا أكيد لعبة يلعبها الأمريكان، هما اللي بيشعلوا الحرب بيناتنا.

الأمريكان المساكين!! ابتسم للفكرة برأسه، ولكنه لم يخبرها أنه لا شأن للأمريكان بالموضوع، وأنَّ هذا هي دواخل البلـــد التي لا يستطيع حتى الأمريكـــان الغـــوص في غمارهـــا، وأنَّ القنوات التلفزيونية العراقية ذاتها هي التي تسعى لتصوير كل ما يجري، ونهش الفضيحة حقيقة وتخيلًا، كأنها فرصة مواتية لكـــل قناة لإبراز سياستها، فالعالم كله بعد هذا، قد شاهد بالـــصور والأدلة التي كشفها عدنان الدليمي وغيره أنَّ أجهزة الـــشرطة كانت موجودة أثناء المذبحة، و لم تتدخل لمنعهـــا، وأنَّ أجهـــزة الشرطة العراقية هي في الأساس عبارة عن التكوينات الـــشيعية المسلحة مثل جيشهم و فيلق بدر، ولهذا لم يكـــن غريبًـــا مـــا كشفته صحيفة لوس أنجلس تايمز من وثائق ســـرية للحكومـــة تحتوي على نتائج ٤٠٠ تحقيق داخلي عن الفساد بين صفوف الشرطة العراقية، بل ربما يمكنه أن يقول ٤٠٠ تحقيق فقط!!

توقفت الأفكار في ذهنه على باب شقته، كأنما يودّع كــل ما يمتُّ لعالم القتال بصلة على باب المترل. كانت أحداث حي الجهاد قد حدثت منذ ثلاثة أسابيع كاملة، ومع ذلك لم يــنسَ على الإطلاق أنّ أمه دعت عليه قائلة أنّ حــسبها الله ونعــم الوكيل، ونعتته بالكفر والإرهاب، حتى وإن لم تدرك أنها تفعل كل هذا بابنها، وأرداه هذا شعورًا بالذنب متصلًا بلا انقطاع، حاول تعويضه في معاملة أمه بكل حسن ورقة، كأنه أذاها هي من قبل. وتبعت عيناه الساعة المعلقة في مدخل المــترل وهــي تشير للرابعة فجرًا، تأخر عن ميعاد عودته ووعده لأمه بالعودة باكرًا؛ بسبب حادث المشرحة المفاجئ. كان يتوقــع الظــلام الدامس في الشقة؛ بسبب انقطاع التيار المتردد بكثافة في هــذا الوقت، بعد ثلاث سنوات من دخول أمريكــا في العــراق لم تستطع حتى إعادة التيار المتصل حتى في بغداد العاصمة ذاتهــا، ولكنه رأى أمه مغمضة العينين من بعيد علــى المقعــد أمــام التلفزيون نائمة بانتظاره، فنظر للتليفزيون المضيء بإهمــال، ألم تنقطع الكهرباء حتى الآن؟! ثم ذهب إلى الحمام تاركًــا كــل شيء ومفكرًا في المهمة التي سيفعلها في ليل الغد وحده، بدون أيِّ حمايات، أو أغطية، أو تعليلات بعــدم معرفــة المقــصد الحقيقي... وحده تمامًا..

عاد من الحمام، فجلس أمام التلفزيون وتناول الريموت من أمام أمه، ثم حوله إلى قناة بغداد، وجلــس ليتــابع. كانــت السهرات سخيفة كالعادة، وحبلى بالإعلانات والمسابقات التي

تتخلل كل شيء فتفقده معناه، ولكنه كان ينتظر تحديدًا إعلانًا معينًا، ولا ينشد متابعة تلك السهرة.

ولم يخب ظنه، إذ سرعان ما برز له وجهٌ ذو ذقن صغيرة مشذبة الأطراف تحيط بالفم، وملامح مبتسمة سعيدة، ونشر الوجه من بين جنباته نورًا شفافًا احتل الشاشة، ثم ظهرت صورة كاملة للشخص الواقف ومن خلفه خارطة كبيرة للعراق.

– إذا بتريد تعرف أهم الأحداث للحين، وتشوف كل ما يدور بالبلد...

إذا بتريد تصير وسط الأخبار والتحليلات، ومو تكون بعيد عن كل شيء، وبكل صدق وأمانة وحيادية... تتبدل الصور متتابعة على الشاشة بين أم ثكلى، وطفل جريح، ودبابة يتصاعد منها الدخان...

– كل القضايا و الموضوعات اللي بتهم الشارع العراقي، وكل الأخبار والأفكار اللي بتريدوها

في مناظرات حادة وقوية ومثمرة، كل يوم ثلاث على قناة بغداد.. تعود من جديد صورة المذيع المبتسم، كأنما يملك من الثقة ما يعيد به العالم إلى نصابه الحقيقي.

– ... مع المحاور خالد أسامة، غدًا العاشرة بتوقيت بغداد على الهواء مباشرة، في حلقة خاصة عن مجزرة حي الجهاد...

تنطلق من الخريطة الفسيحة كلمة ذهبية مجسمة الأبعاد.

- ... من برنامجكم، العراك.

مهمة اغتيالية تحدث كثيرًا، ولكنه لم يقم بها من قبل.

طمأنه فريد بأن كل شيء معدٌّ بعناية فائقة، وأنهم سيحصلون على مبتغاهم من المتفجرات قبل الموعد المحدد، وأخبره قائد الفصيلة بأن كون العملية انتحارية أم لا، يعود له وحده ولقدرته على التنفيذ. يجب أن يتمَّ التفجير على الهواء مباشرة، وبداخل الأستوديو بحيث ينتهي كل شيء بسرعة ووضوح، وله حرية اختيار كيفية التنفيذ، إذا كان سيفجر نفسه مع الأصابع المشتعلة أم سينجو بحياته !! وإن لم يستقر بعد على ما سيفعله فعلًا.. تكشفت في لحظة إعلان العملية له كل ما كان يخشاه من حقائق يختفي بعضها خلف بعض، وانفضَّ ذهنه عن ذكر أبيه، وتجميع أطراف شظاياه الممزقة، والتلسن بأطياف الانفعالات والقناعات. ما ينوي أن يقوم به في صورته المجردة بلا تزويق، هو قتل مذيع نشيط ينوي كشف حقائق ضدهم في برنامجه واسع الشعبية، ولا يدري حتى إن كان هذا المذيع سنيًّا، أم شيعيًّا أم كرديًّا يجيد العربية... فقد بعث البرنامج برسالة استضافة لأحد كوادر الحزب، ورسالة أخرى إلى كادر آخر في حزب الفضيلة، وأخبرهما في الرسالة بحضور قادة سنيين في البرنامج، ونال الموافقة التامة على حضور

الشخصين، ولكن خلف الموافقة حيكت أطـــراف الاغتيـــال البشعة

خيطًا خيطًا. نسج فوق عينيه الواثقتين وأمامهما، و لم يره برغم كل شيء، وإلا كانت ابتسامته الواثقة قد اختفت تمامًا، وانغرست الإبر بخيطاها في مئات الأطراف، بدءًا مـــن مـــورِّد السلاح في الفطين، إلى غسان الجالس أمام تليفزيونه، ليجمعهم كلهم رداء واحد، سيرتديه غسان في هذه الليلة للمـــرة الأولى في حياته!!!

اغتيال على الهواء مباشرة!! من أجله أم، من أجل الحـــزب الذي ينتمي إليه؟! من أجل نصرة الجهاد الإسلامي الـــشيعي؟! أم ثأرًا شخصيًّا يختفي خلفه أبوه الشيوعي المـــذنب الفـــار؟! وأخوه المصلوب فوق جدار حرب لم يـــشأ ولوجهـــا مـــن الأساس؟! ودخلها باسم الدفاع عن الوطن؟! وخرج منـــها بذات الاسم ؟! وهل سيبقى حيًّا بعد تنفيذ الانفجار أم سيقوم به كفدائي؟! فينسف نفسه مع كل شيء في الحياة؟! ليس هذا هو السؤال الصائب؟! بل الأكثر صوابًا أن يتساءل: هل مـــن المهم أن يخطط؛ كي ينفِّذ العملية دون موته؟! أم بنهاية العملية ورنين الانفجار ينتهي كل شيء؟! حتى عقائـــده المتطاحنـــة؟! تأمل قليلًا صورة المذيع المشاغب خالد أسامة إلى جوار اســـم البرنامج وميعاد البث، المثبتين لحيظات قبل نهايـــة الإعـــلان، وحدَّق في الذقن الرفيعة المحيطة بالفم كـــالأقواس، والعيـــنين الباسمتين في ثقة متحدية بدت له بلهاء، ثم مدَّ إصبعه للريمـــوت

كنترول، فانغلق التلفاز فجأة بلا صــوت، وســاد الـصَّمت والظلام في فضاء الصالة الضيقة.

**

إنَّ قضاءنا العربي أنْ يغتالنا عرب،
ويأكل لحمنا عرب،
ويبقر بطننا عرب،
ويفتح قبرنا عرب...
فكيف نفر من هذا القضاء؟
فالخنجر العربي ليس يقيم فرقًا
بين أعناق الرجال، وبين أعناق النساء
بلقيس : إنْ هم فجَّروك، فعندنا
كل الجنائز تبتدي في كَربلاء،
وتنتهي في كربلاء...
لن أقرأ التاريخ بعد اليوم.
إنَّ أصابعي اشتعلت، وأثوابي تغطيها الدماء...
ها نحن ندخل عصرنا الحجري،
نرجع كل عامٍ، ألف عامٍ للوراء...

الشاعر الكبير/ نزار قباني

من قصيدة بلقيس

الأيام الأخيرة

الفصل التاسع

الله قد ضرب الأقل لنوره...

قال لها محاولًا مدَّ جذور مقطوعة:

- لو قدرت أشوفك تاني لما أرجع، هيبقى أسعد يوم في حياتي.

- مش عارفة !! معرفش لو شوفنا بعض تاني هيكون إحساسي إيه ساعتها...

تنهَّدت، وأطرقت لحظة، ثم نظرت له، وأحرقته بكلماتها:

- أفتكر لو شفتك في الشارع وأنا ماشية مع جوزي وولادي بعد عشر سنين... مش هيبقى أسعد يوم في حياتي ولا حاجة.

حدَّق طويلًا في عينيها الفيروزيتين في هذا اليوم، سواء وهو يكلمها، أو وهو يتشرَّب منها كل كلمة تقطرها، وتركهما على باب المطار منتزعًا منهما، كمن ألقاه بحر ثائر فوق جزيرة صحراوية. استقل الطائرة مفكَّك الأوصال تمامًا يمتهنه الإنهاك بعدما ألقاه محيط عينيها في فضاء الكون الفسيح، إلقاءة عالية بلا سقف. حتى السُّحب الداكنة التي ظنها نهاية الصعود، اخترقها بأجنحته وهو يتأمل المدن من أعلى، مدينته التي عاش فيها والتي التقاها فيها أيضًا عبر سنوات الجامعة الخمس!!

لم يكن ممن يضحكون على الفتيــات باســم الحــب أو الصداقة، كان جادًا في الارتباط بها، ولهذا كان الفراق أكثر ألمًا لكليهما، ولكنها في المطار كانت بلا دمعة واحدة يتلألأ فيروز عينيها من خلالها، وعندما حدّق بها طويلًا حينها كان منتظــرًا تلك الدمعة التي لا تجيء، لعل آخر ما يراه على أرض الــوطن، هو دمعة وداعٍ من عين حبيبة متأثرة، ولكنها كانــت جافــة تمامًا... تمامًا. لونها لون البحار الفيروزيــة، ولكــن كلامهــا وإحساسها في جفاف صحراء لم ترَ المطر، على عكــس أمــه وباقي أهله، الذين كان وداعهم تقليديًا حارًا، يحبل بالــدموع والدعوات بالرزق والنجاح في الغربة، وكل شيء في الــدنيا، وما زاده حرارة هو حيرة أهله من الأمر كله، منحــة الــسفر المفاجئة التي أعطتها له الكلية، والتي جاءت بلا أيِّ إجــراءات، أو انتظار، أو تمنٍّ، فلم يكن الأول على دفعته، ولا حتى علــى قسمه – قسم التصوير – كي ينال تلك البعثة الممتــدة طيلــة سنتين. كان شيئًا غريبًا جدًا على أهله، والأغرب هو الدولــة التي ستكون فيها البعثة، إيران!! وهل توجد لدى الجامعــات بعثات متبادلة مع إيران؟؟!أدهشهم حينما أخبرهم بأنه أنهى كل الإجراءات بنفسه، وليس عليهم سوى إيــصاله و توديعــه في المطار!! فهو لم يكن قطُّ من الذين يعتمدون على أنفــسهم إلى حدِّ التجهيز للسفر بدءًا من جواز الــسفر حــتى التأشــيرة،

والتذكرة، وكل شيء... سرعة مخيفة جدًّا قادتهم نحو عتبات المطار، كأنهم يركبون قطارًا مندفعًا في الملاهي، لديهم نفس الشعور من الذهول والريبة، وربما لو طالت الأيام قليلًا لصرخت أمه من الخوف أمام هذا السيل المتسارع من الأحداث...! ولكن كل شيء مضى في طريقة بلا أيِّ تعطيل.

سنتي الغربة البعيدة مع من لا يتحدثون العربية، التي كانت في ظاهرها بعثة تعليمية كما أخبر أهله، وفي باطنها عمل — شغل — كما أخبره العقيد حسام جلال في حفلة السفارة، التي استسلم بعدها أمام قدر متأرجح كأهله الذين كانوا يظنونه رتَّب لكل شيء، أخبره العقيد أن الشغل الذي يريدونه فيه يعتمد على مهارته في التصوير، وإنه يستغرق عامين فقط، بعدها يعود إلى وطنه سالمًا ليمارس حياته كما كانت من قبل، والاختلاف الوحيد هو إنه سيحصل على مبلغ مالي كبير لم يتحدَّد بعد، مقابل تعاونه مع الحكومة من دون تسجيل مسبق أو لاحق في سجلاتهم الرسمية.. لم يخبرها هذا كله، أخبرها بأنه راحل لعامين فقط، وسيعود بعد ذلك قادرًا على التقدم لخطبتها؛ لأنه سيعمل أثناء البعثة، فرفضت الانتظار بشدة:

- إنتَ مش فقير؛ عشان تسافر تكون نفسك، وكان المفروض إنك هتتقدملي الشهر ده، وهتشتغل هنا في شركة الإعلانات اللي بيشتغل فيها باباك.

فردَّ مترعجًا:

- وحصلت ظروف، إنتِ عارفة إن أنا مش مسافر أشتغل، دي بعثة بتاعت الكلية وجت لحد عندي.

صاحت:

- خلاص أسافر معاك.

- تسافري معاي إزاي ؟ بصفتك إيه؟

قالت بسرعة:

- إنتَ بتقول باقي شهر... نتجوز، ونروح نقعد سوا هناك، وإن كان على بابا وماما خليهم عليَّ أنا... أنا هقنعهم.

هتف فيها:

- تقنعيهم بإيه؟! إنتِ إتجننتِ، حد يخطب ويتجوز في شهر...

تراجعت أمام حدته حتى تضع له خيارًا آخر قائلة:

- خلاص بلاش، نعمل الخطوبة، وبعدين إنتَ تسافر، إنما متسبنيش متعلقة كده.

- مينفعش، أنا معرفش الظروف هناك عاملة إزاي...

كان هذا آخر حجر في جدار احتمالها، فهبَّت من مجلسها في الكافيتريا، وصاحت:

- ظروف إيه؟! إنتَ مش عايز ليه تـرتبط بيـا؟ خـايف لتعجبك القعدة هناك، ولّـا إنـت م الأول مـش نـاوي ع الجواز...

ثم أكملت، وهي تسحب حقيبتها، وتخرج مـن المكـان بطريقة درامية فاقت توقعاته:

- وعمومًا إنتَ حر، أنا مش هكمِّل كلامي معاك دلوقتي.

وتركته جالسًا في مقعده، وممسكًا برأسه في وجـوم، لقـد ضغط عليها حقًا، وهدم آمالها في سهولة ويسر، وهـي مـن ناحيتها أعطته كل الاحتمالات، ولم تجعل له مخرجًا، ولكنه لم يكن يعرف حقيقة ظروفه في هذا العمل الجديد، قد لا يصدق العقيد حسام، وقد يكون وعده هو مجرد اجتـذاب لـشبكة عنكبوتية تمتصه في داخلها، ولكنها برغم تلك النهاية الداميـة، كانت أصيلة معه إلى أقصى حد، وأوصلته حتى المطار مع أهله، فقط حرمته من دموع وداعها، وكأنها ستختصها بالـشخص الذي سترتبط به، أو وكأن الوداع الجاف هو من نتاج عتـاب حادٍّ.. ولكن العقيد حسام صدق، وبعد مضي سـنتين تمامًـا أخلى سبيله من هذا العمل في شوارع سمرقند القديمة، في لقـاء سريع مع العقيد – الذي أصبح عميدًا حينها – داخـل أحـد المطاعم التي تطل على قبة بيبي خاتون زوجة تيمورلنك، أخلى سبيله، ومنحه المال الذي وعد به، وفوق هذا تركـه يحـتفظ بجواز سفره المموَّه الذي لا يسفر عن شخصيته، وإذن بالـسفر

في أيِّ وقت كان يحتاجه خلال مهماته، قال له العميد الــذي صار أشيب الفودين في ملل تمثيلي:

– ألف مبروك يا عم، اترحمت من أم الشغل اللــي إحنــا مطحونين فيه، تقدر ترجع تاني، وتتجوز البت بتاعتك اللــي كنت بتعمل عليها راجل ساعة المظاهرات.

ثم فرك عينيه في هدوء، وقال فجأة كأنما تذكر:

– شفت، أدى آخرة اللي يمشى عدل، ويبطــل الكــلام الفارغ، والدوران في الشوارع مع العالم الصيِّع. تلاقي الواحد فيهم كل ليلة بايت في أمن الدولة، كأنه بيبــات في لوكنــدة ومتسجِّل في مليون قايمة!! والصبح مظاهرات وكلام فاضــي، أديك يا عم لسه مابتديتش حياتك، وبقى معاك لغــة أجنبيــة وفلوس، وكمان جواز وتأشيرة جاهزين على طول.

وابتسم بجانب فمه مكملًا:

– لو كنت أقدر أجيب ابني مكانك كنت عملت كــده. وبالمناسبة، إحنا مش هنلغي لا الجواز، ولا إذن السفر؛ عشان تقدر تسافر وتتفسح في أيِّ وقت، خليها علينا؛ عشان تعــرف إننا مابنسبش حد تعب معانا...

مثلما كان خلال العامين الذين عرفه فيهما، يسير في حديثه دائمًا كنهر يتجه إلى مصب ثابت، ومن أول جملة تشعر أنــه خطط للجملة الأخيرة مسبقًا، كأن الحوار مرسوم كمونولوج

طويل، وليس نزالًا ما بين عقلين، لذلك ما كان ليعترض طريق حديثه، أو يسأله إلا فيما ندر:

– يعني أقدر ما رجعش مصر، وأفضل هنا؟!

ابتسم من جديد، ثم ضحك ضحكته المجلجلة التي ترجع رأسه للوراء، ويرن صداها في المكان كله:

– إيه، لقيتلك حرمة هنا وحاطط عينك عليها، تلاقيها بنت واحدة من الروسيات اللي عايشين هنا من أيام الاتحاد السوفيتي.. ماتوعاش إنتَ ع الحاجات دي.

يا بني الأجانب اللي هنا دول شرامـ... مش بتوع جواز، ديتها شهر ولا اتنين تظبيط، وكل حي يروح لحاله وإنتَ ممكن تتفسَّح هنا شوية، تزور بخاري تشوف الجوامع، تسزور الحي الروسي تنام مع الرقاصات، ممكن تروح إيران شوية، وبعديها إبقى ارجع بقه بلاش خو... ...

ثم قال متجاوزًا تلك النصائح:

– لو عايز تفضل إفضل، ولو عايز ترجع وتبقى تيجي تاني براحتك، إذن السفر بتاعك هيفضل شغال زي ما قولتلك، ومرة تانية يا سيدي... ألف مبروك.

قام واقفًا فالتمع نور الشَّمس الساطع عليه فجأة برغم برودة الجو، وامتدت يده الغليظة مصافحة، فقام الشاب مادًّا يده، وتلاقيا في تصافح ودود حقًّا هذه المرة.

وعلى الرغم من أن الضابط بصفة عامة بالنسبة إليه شخصية مكروهة، وربما كان في هذا معممًا أو مخطئًا! ويده السمينة الغليظة الملتصقة بيده هي في الحقيقة ملوثة بدماء من عذبهم ممن يعتقلون بلا سبب في بلاده. الشباب الذي لا جريرة له سوى انتقاد أوضاع سياسية أو حتى ما هو دون ذلك. يكفي أن يكون ملتحيًا أو يسير في مظاهرة سلمية ليقع فريسة للقوات التي تحوم في تلك الأماكن، ومن يسميهم هو العيال الصيع الذين يبيتون في أمن الدولة، هم مزيج من أصحابه، ومعارفه، وزملائه في الكلية، هو نفسه كان لينضم إلى هؤلاء الصيع، لولا أنه خشي التهديد الذي تلقاه في المبنى الحكومي في يوم لقياهم الأول.

ومن يدري ؟! ربما كانوا يضعون أعينهم عليه من قبل تلك المظاهرة، ولهذا اكتفوا بتقويمه حتى لا يشذ عن السكة التي رسموها له؛ ليحصلوا عليه في النهاية، ولكنه لم يرَ منه أبدًا أيَّ سوء، ولهذا لم يستطع أن يكرهه!!

كتلة ضاحكة حتى السعال، مليء بالحيوية، والذكاء، والتواصل الإنساني، يصعب عليه أن يتخيله واقفًا في حجرة التحقيق يضرب شخصًا ما، ويهينه، ويعذبه... من الممكن أيضًا أن يكون السبب في ميله إليه هو بعدهما عن الوطن في هذا الركن من العالم، حيث يصير حتى الضباط من رموز بلاده التي تشعره بالحنين، وليس بالخوف أو المقت... الله أعلم!! على الرغم من غرابة اللقاء الذي جمع بينهما طيلة تلك السنوات،

والذي بدأ في مبنى حكومي غريب، يعبق بـدخان السـجائر والنسور المعلقة في الجو، وينتهي الآن في أحد المدن الكردستانية القديمة أمام قبة تاريخية. أدرك الشاب أنه حقًّا سـيفتقد هـذا الرَّجل الملول الصاخب، سيفتقد وقاحته المقتحمة، ومعاملتـه الأبوية، وحتى ألفاظه المقذعة. تلاحمت اليدان طويلًا ثم اشتبكا في احتضان مفاجئ بلا تخطيط، فقط مالًا على بعضهما وتلاقيًا، كأنه أبوه الذي يودعه ولن يراه مرة أخرى، وفرك العميد يـده فوق ظهر قميص الشاب في حرارة، وتباعدا من جديد بابتسامة واسعة متأثرة على فم الشاب، وابتسامة مماثلـة علـى وجـه العميد، الذي قال مازحًا، وهو يداري بسمته:

– يا ابن الكلب، البدلة بتاعتي اتكسرت، ومنظرنـا بقـى يضحك وسط الناس، عمومًا يلّا مش خسارة فيك، الحمـد لله إني مش هشوفك تاني.

ورحل فجأة قبل أن يمتدَّ الحديث بأكثر من هـذا، ولكـن الشاب لم يرحل، لا من المطعم، ولا من البلد بأسرها لـيس بسبب فتاة قابلها كما قال العميد، ولكن للسبب الذي قالته له هي منذ سنتين. لقد صارت له علاقات متعددة في أواسط آسيا والدول العربية بحكم عمله خلال العامين المنقضيين، وتعـرَّف على رجل عسكري قديم يدعى نصري زند، وعـده بأعمـال مماثلة. وكان تملصها من العلاقة في المطار عامله الأخير؛ كـي يبقى في هذا المكان، لا يريد العودة إلى أهله كـي يقابلـها في الشارع مع زوجها وأولادها كما قالت، لن تكـون اللحظـة

الأسعد في حياتها، ولا في حياته هو أيضًا على الأرجح، لقد كانت بعيدة النظر في ذلك، وجفاف عينيها الفيروزية هو ما أبقاه في هذا المكان الحافل بالاحتمالات الجديدة. وقف خارج باب المطعم يتأمل سيارة العميد الماضية في الطريق بعيدًا كأنها تمضي نحو الوطن ذاته، وأدرك أنه لم يلحق بها، ولن يلحق بها، بل سيبقى في هذا المكان.

وبعد السنوات الثمان التي قضاها في آسيا، وإيران، ولبنان، وفلسطين، وسوريا، وأفغانستان حتى، لا يزال يتذكر كل ما حدث كلما سنحت له الفرصة، لا يأمل في مقابلة العميد حسام جلال الذي ربما أصبح لواءً أو خرج على المعاش، ولا يأمل كذلك في مقابلة فتاته التي تزوجت بالتأكيد، وأنجبت طفلين أو ثلاثة، ربما إذا قابل اللواء لم يعرفه، أو لم يعطه حرارة الماضي الوهاجة، وإذا قابلها ربما يكتشف أنها صارت أمًّا بدينة ملولة، أو حتى لا تزال تنتظره عزباء جميلة كما كانت، لا يريد أن يعبث في صورة الماضي معتبرًا إياه حيًّا في أفضل صوره، كأنه فيلمٌ سينمائيٌّ شاهده وأحبه.

للفيلم نهايته المحددة التي ينقضي عندها تتبع المؤلف لخطى أبطاله، وحتى أكثر المعجبين بالأفلام لا يريدون تجاوز هذه المنطقة، ومتابعة شخصيات الفيلم بعد أعوام من رؤيته، من المحتمل أنّ من تزوج في النهاية السعيدة تطلق بعدها، وأنّ من مات شريرًا تكتشف براءته فيما بعد... أيًّا كان، يبقى المشاهد راغبًا في تذوق الفيلم ربما طوال عمره، ولكنه يراه صورة

مكتملة لا ينبغي تتبع مساراتها التي لا تنتهي. هذا يشبه الـــذي يتأمل صورة فوتوغرافية عبقرية التكوين والإضاءة لفتاة تغـــسل أطراف ثوبها في النهر معلقة في معرض ما، ثم يسأل المصوِّر في تحفز، وماذا بعد، ماذا حدث للفتاة بعد ذلك؟ مـــاذا بعـــد! لا شيء طبعًا، افترق المصوِّر والفتاة بعد هذه اللقطة، وكلاهما لا يرغب في الالتقاء من جديد، ولا حتى من أجل صور جديدة، فميزة الصورة عفويتها، والاتفاق على المزيد من الصور لا يعني سوى إفساد جمال الصورة الأصـــلية، وتحويـــل الفتـــاة مـــن عشوائيتها والتصاقها بموضوع الصورة إلى موديل مأجورة تمثل الانطباعات.

هذه هي فكرته الدائمة عن الماضي، انطباعات قديمة عفوية، ولَّدت أحداثًا، كانت في وقتها مـــدعاة للحـــزن، والفـــرح، والتوتر، ولكن مع مرور الزمن لا تبقى سوى مدعاة للتـــذكر والتأمل، ولا يستسيغ بتاتًا أن يلتقي مع صديق قديم له من أيام الكلية مثلًا، ويحاولان إشعال جذوة صداقتهما مـــن جديـــد، يمثلان الاكتراث والحب، ويحاولان الـــتكلم في موضـــوعات الماضي وكأن الذكرى يعاد تمثيلها لتخرج في صورة أحـــسن. كان يكره دائمًا هذه النقطة، وماذا بعد...! إذا قابـــل هـــذا الصديق أثناء محاولة للحصول على وظيفة، هل سيكترث لأمر صداقتهما القديمة، ويخشى على صديقه حقًا حـــتى وإن مثـــل ذلك اجتماعيًّا أمامه أو أمام نفسه؟ لا يحب أن تسير الأحداث

وكأنها في تمثيلية، ويصير اللقاء تتمة للمزيد من المشاهد، كــأن من يجلس، ويراقب، ويتساءل... وماذا بعد؟

لا يدري لماذا طافت هذه الذكرى المتلاحقة في ذهنه في هذا الوقت تحديدًا، ولا لماذا راودته تلك الخواطر حول انبعاثــات الماضي، وهو يتأمل الصورة التي ينقلها التليفزيون في الفنــدق الفاخر. نام طويلًا تلك الليلة بعد الاجتماع الذي أجــراه مــع إسماعيل ورجال آخرين، واستيقظ في الصَّباح الباكر حتى يتسنى له رؤية المنظر الهائل من النافذة في الصَّباح، فهذا الفندق الشهير يحرص على أن يكون تصميمه في شكل نصف دائــرة، حــتى تحصل كل الغرف على وجهة مطلة على ذلك المنظر البــديع. تناول إفطاره المعد فندقيًّا، وجلس أمام التليفزيون بلا نوايــا في تفكير عميق، إذن لماذا قفزت تلك الذكرى إلى ذهنــه أمــام التلفزيون؟ كانت إحدى القنوات اللبنانية التي تعــرض آثــار الحرب الدائرة منذ ما يقرب من شهر في أرجاء لبنان، ذلــك الشهر الذي قضى أول يومين منه في لبنان مــا بــين المطــار والطريق الأسفلتي المنسوف، وقضى ما بقي في سوريا ما بــين عزاء ذلك الرَّجل الذي يعمل في البنك، والذي كــان يقــود السيارة، وما بين لقاءاته المتقطعة مع إسماعيل وسواه، يرفل هنا في الغرفة المترعة بالنعيم الشيقة، كأنها اكتشاف جديد، والحرب تدور راحها على الحدود. تناقله التليفزيون بين أصابعه الخــبيرة وسط الجثث وضحايا الحرب، وقرى الجنوب الــتي دمــرت وأهلها نازحون أمامه في سيارات محملة بــضرورات الحيــاة،

عددها أكثر بمراحل مما كان في أول يوم للقتال، وفجأة انتزعه من كل هذا ذكراه العنيفة، وكأن الدموع هي مربط الفرس، فطوال البرنامج الذي يعج بالثكالى، والمصابين، والجرحى، رأى كلامًا كثيرًا، وزعيقًا، وصراخًا، ودعواتًا، وتفاؤلًا، لكنه لم يرَ دموعًا، جفت عيونهم برغم الصراخ المخيف تمامًا كعينيها على بوابة المطار. هذا هو ما جرَّه إلى عالم من الماضي لم يعد موجودًا، أقصى عتاب هو في المآقي الجافة تمامًا...

دق باب الغرفة دقات متوالية، فقام قائلًا:

– مين؟

لم يسمع ردًّا، ولكنه قام ففتح الباب، ودخلت فتاة أنيقة الملبس إلى الحجرة الواسعة، فكأنما في أناقتها ما يتناسب مع فخامة هذا المكان، وقالت له بلهجة عملية:

– صباح الخير، أنا هون من طرف الإستاذ إسماعيل المروان المحامي.

تفرَّس في ملامحها الدقيقة الجذابة، وشعرها البني المموج حول وجه ملائكي رقيق، في حوالي الخامسة والعشرين من عمرها، كما يشفُّ جسمها المتناسق التكوين، سألها:

– وينه الإستاذ إسماعيل؟ المفروض كان هو اللي يقابلني هلأ.

أجابت وهى تنظر في الغرفة بلا تعبير — ولا حتى فضول أنثوي — كأنما قضت في هذا المكان دهرًا، بل حتى لم تلتفت للتليفزيون الذي يشع صخبًا في المكان:

– هو ممكن يمرؤ عليك، وممكن لا، ومن شان هيك بعتني لإلك. أنا منة، السكرتيرة الجديدة تبعيته هون في سوريا، تا أساعده في الاتفاقية الجديدة.

مدَّ يده مصافحًا:

– أهلا وسهلا فيكِ، تشرفنا.

يدها ملساء ومريحة جدًّا في ملمسها، انقبضت أصابعه حولها فلم تتحرك أعصابها تحت الجلد مرتخية، ولا منقبضة، كأنهما يعيشان سويًّا منذ فترة، والتقاء أيديهما في المصافحة أمرٌ عاديٌّ روتينيٌّ مكررٌ...

نفره منها هذا الشعور الغريب، عملية وجافة تمامًا، تتعامل مع كل شيء بفتور، كأنها تعرفه طيلة عمرها، وعلى براءة وطفولة ملامحها لا يبدو أنّ هناك شيئًا في الكون يثير دهشتها، ولهذا صارت فجأة مملة تمامًا، كأنها آلة يعبث بأزرارها، وليست إنسانا جديدًا يتعرف عليه.

اتخذت مجلسها على أريكة بيضاء مكتسية بالشّمس بجوار باب الشرفة الواسعة – التي تتبين تفاصيل جدرانها البيضاء

والمزروعات الخضراء من خلف زجاج بابها - وقالت له ببسمة جافة، وعينيها على التلفزيون:

- الحرب صاير لها تلات أسابيع، ليش لساك بتابعها؟! بتعرف حدا هونيك؟

نظر إلى طفل ممزق عبر الشاشة اللامعة، وانتقل بعينيه متأملًا تأثير هذا على وجهها... لا شيء كما توقّع، فقط الضوء يسقط على ملامح ثابتة، سواء كان المعروض حربًا أم فيلم رسوم متحركة. فذهب وجلس في مواجهتها:

- ما عم تابع شي.

هزت رأسها بلا اكتراث، ومدّت يدها في أحد جيوب بذلتها الأنيقة، وأخرجت مجموعة من الأوراق، افترشت المنضدة الزجاجية التي بينهما بلا ترتيب، وبقيت نقرات أظافرها الطويلة المطلية بعناية فوق زجاج المنضدة، وهي تقلب في الأوراق ترن طيلة حديثها:

- بعد حوالي إسبوع، راح نطلع كلياتنا على مدينة قرب الحدود لسه ما تحددت، وهونيك راح نبدل الأسلحة يللي معنا بعصاري من رجال جايين من ورا الحدود، بنريد التصوير يظهر وكأنه من كاميرا أحد مراسلي التليفزيون، بعد هيك بنخترع قصة إنه هايدا الرجال كان بيصوّر شي تاني في البلدة، وبعدين حضرنا ونحنا عم نبدل السلاح فإجا تا يصورنا...

- وشو الهدف من هيك؟

- شو!!

- الهدف، بتريدوا شو من هايدا الشريط اللي راح نصوره.

ضحكت ضحكة قصيرة ثم قالت:

- الهدف، ولو يا زلمي، أنا ما بعرف شو الهدف مثل إنتَ ما عم تعرف، وإذا بتريد فيك تسأل إسماعيل بيه لو إجه، بس ما بظن هو حتى عم يعرف شو الهدف، منا كان لازم تفوت عليك هيك الشغلة.

- ما فاتت، بس الفضول عم يقتلني...

- إشكر الله إنه الفضول اللي عم يقتلك، ع الأقل بعدها بتضلك عايش بالدني.

تأملت أحد الوريقات وأمسكتها من فوق المنضدة، ثم مدَّت ذراعها لتسلمها له:

- هايدا شيك بتلات تلاف دولار باعتينه لإلك، شي متل مقدم أتعاب أو ربط كلام، ما إلي في هيك شغلات...

ثم ابتسمت وكأنها آلة مزدوجة المهنة، تصنع جمل الحديث والبسمات، ولكل جملة من حديثها بسمة جديدة تختلف عن غيرها، وكان تبسطها معه هو ما دفعه للسؤال المازح:

- ما إلك في هيك شغلات؟! وشو الشغلات اللي إلك فيها؟

مدَّ يده فتناول الشيك، وراجع بعينيه المبلغ، وهـو يـسمع ردها:

– عم بعمل شغلات كتير تانية، بس أنا في الأساس محامية، الله وكيلك، مش قلتلك إنه أنا سكرتيرة إسماعيل بيه، ليش مـا عم تركز في الحكي؟!

دقت طرقات جديدة على الباب، فقالت:

– هايدا ممكن يكون الأستاذ... فرصة سعيدة.

قامت من مكانها، فتبعها متسائلًا:

– لوين؟

– راح فل، هو بده يحاكيك بنفسه، مادام قرر يمرق عليك.

اتجهت صوب الباب وانتظرته حتى فتح لهـا، فخرجـت متبادلة تحية الصباح مع إسماعيل الذي دلف إلى الغرفة بـشعره الأشيب، وكرشه الكبير، وملامحه الشحمية الممتلئـة. أغلـق الأصلع الباب، والتفت ليجد إسماعيل قد وجد مقعـده أمـام التلفاز، وأخذ يتابع التقرير الذي لا ينتهي عن الحرب. كـان الآن رئيس الوزراء فؤاد السنيورة واقفًا أمام وزراء الخارجيـة العرب في هذا الاجتماع الذي التأم في بيروت وشهده العـالم كله، كانت اللحظة المعروضة هي اللحظة الأكثـر إثـارة في الخطاب، كان صوته متهدجًا في إلقاء الكلمـات، والقلـوب الواجفة التي يخيفها البكاء تتابعه في حرص، وهو يقول:

- إنَّ عروبتنا غير مشروطة، وهـي ليـست بالإرغـام، وموقفكم معنا واجب عليكم...

ثم توقف صوته باكيًا للحظات، وأكمل:

- إنَّ الأمن العربي أمن واحد، والمستقبل العـربي مـستقبل واحد...

رأى الدموع في مآقي رئيس الوزراء مختزنة أولًا، ثم متساقطة ثانيًا، ورغمًا عن أنَّ هذه هي المرة العاشرة تقريبًا الذي يشاهد فيها هذا المشهد الذي تلاقفته وسائل الإعلام، خرج صـوت الأصلع متحشرجًا وهو يقول:

- أهلا فيك، السكرتيرة حكيت معـي علـى تفاصـيل الاتفاقية.

أفلت إسماعيل بصعوبة من التركيز الذي ملأ حواسه منجذبًا لهذا المشهد، فقال خارجًا عن الموضوع:

- إمتى صار هايدا اللي عم ينعرض؟

اندهش الأصلع، فبعد ما فعلته قنـوات الأخبـار بتلـك اللقطات، صار من لا يعرف ماذا يحدث شخـصًا أسـطوريًّا غريبًا... ردَّ عليه:

- هايدا اللي عم ينعرض، عم ينعـرض للمـرة الألـف، اجتماع وزراء الخارجية في بيروت.

- وبكى قدام اللي قاعدين!!

- ....

- وشاشات التليفزيون!! ولله شو وطني هايدا الرجّال، هيك بيكون الرجال لما عم يشوف بلده بتنفجر، ما يستحي من مشاعره، ولو قدام الدنيا كلها.

شعر! ما قاله إسماعيل هو قطعة من الشّعر، جعلت أسارير الأصلع تنفرج في ابتسامة قصيرة، وذهب في فراغ الحجرة نحو ثلاجة بعيد وأحضر مشروبًا، قال لإسماعيل وهو يناوله المشروب، ويجلس أمامه:

- أنت بتعرف إني بكتب شعر.

- لا...

- فيّ إحكيلك قصة حصلت زمان إلهَا علاقة بالشّعر، أيام الأمير أحمد بن المعتصم والمتنبي، إنتَ بتعرف إن الشُّعرا زمان كانوا بيمدحوا الملوك والأمرا تا ياخدوا مصاري، متل نفاق ها الإيام بالضبط...

التفت إليه إسماعيل تاركًا البرنامج الذي انقلب لمشاهد الحرب من جديد، غير فاهم ما يرمي إليه الأصلع، هل يظن أن بكاء رئيس الوزراء في حدث جلل كهذا هو من قبيل النفاق؟! ينافق من؟ ولماذا؟!

- المهم، إنه أبو تمام الشّاعر المعروف، كــان عــم ينــشد قصيدته السينية ويقول:

إقدام عمرو في سماحة حاتم *** في حلم أحنف في ذكــاء أياس

فتدخل أبو يوسف يعقوب الكندي، هايدا الزلمي المشهور، وبدو أنه يكون أكثر حبًّا للأمير، أو أكثر نفاقًا، قاله: شو عــم تقول؟ الأمير أعلى بكتير من هيك، مــين بيكونــوا حــاتم، وأحنف، وأياس تا تقارنهم بالأمير، الأمير فوق من ذكرت.

فراح أبو تمام صار في موقف لا يحسد عليه، وكان لابد من النفاق فوق النفاق، فارتجل بيتين من أشهر أبياته :

لا تنكروا ضربي له من دونه * مثلا شرودا في الندى والباس**

فاللّه قد ضرب الأقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس**

أعجب إسماعيل بالبيتين، فأكمل الأصلع:

- بتعرف شو معنى ها الحكي، أنه بيضرب المثال بالنــاس اللي ذكرهن على الرغم من كونهم أقل من الأمير، مثل مــا الله

بيضرب مثال لنوره بمشكاه ونبراس، هيك الحكي حرام، وفيه شرك واضح.

اقترب منه قليلًا بوجهه، وهو يتابع:

– هايدا الحكي الحرام كلياته نفاق.

– ما بفهم، شو علاقة هايدي القصة ببكا رئيس الوزرا؟

تراجع الأصلع مرتاحًا بعدما أنهى حكايته:

– رئيس الوزرا ماله دعوة بالحكاية، وهو راحل وطني وعلى راسي، لكن كل القنوات التلفزيونية يللي ذاعت الخبر دخلت في مولد النفاق، كل يوم بيزيد عن الثاني، يللي عم يحكي ويقول بكي من شان الشهدا يللي راحو، وبعدين من شان بيروت اللي انضربت واتدمرت، وبعدها صار عم يبكي من شان موقف العرب من القضية الإسرائيلية، وبعدها صار عم يبكي ع العروبة الضايعة اللي إندفنت على أبواب أمريكا... كل قناة كبيرة صارت بتخاف على سمعتها، صار لازم تذكر الخبر ومعاه نفاق أكتر وأكتر... متل أبو تمام، عم بيجروا نفسيهم لكلمات تخاريف متل اللي قاله، بيقلب القضية ويشوه صورة اللي عم بينافقوه.

مال إسماعيل للخلف حينما فهم، وابتسم ابتسامة عريضة، ثم قام من على الأريكة ففتح باب الشرفة الواسعة المشمسة،

ودخل إليها، فتبعه الأصلع نحو سور الشرفة الفسيح، المـــزدان بالزخارف المعمارية التي تميز طراز هذا الفندق، واستندا ســـويًّا على الشرفة، متطلعين إلى الحدائق والنافورة الطويلـــة في فنـــاء المكان، التي يمتد بعدها شارع يعج بالسيارات والمـــارة، قـــال إسماعيل:

– أنا اللي صار في رتب معك كل شيء، كان المفـــروض بيرسلوا لإلك مندوب من عندهم، لكن لما عرفوا إن إحنا جينا سوا صرت أنا المسؤول عن دورك في الصفقة، بس قبـــل مـــا نحكي في التفاصيل بدي أخبرك شي...

أردف وهو يتطلع للسَّماء:

– أنا عندي حوالي أربعة وخمسين عـــام، كنـــت محـــامي بفلسطين من أيام حرب تشرين ٧٣، بعرف إشيا كتير وعندي خبرة، لساك شاب وما عم تملك مثلها، فيٍّ إحكيلك حكايـــة مثل ما حاكيتني...

أنزل عينيه من السَّماء الزرقاء نحو الشارع البعيـــد، الـــذي يظهر صغيرًا جدًّا من ارتفـــاعهم الـــشاهق، ونظـــر للمـــارة، والسيارات، والشمس، والعرق الذين يملؤون الشارع،ثم أكمل:

– تخيل معي أنه في كوكب بيعيش فيـــه النـــاس الأغنيـــا، كوكب غير كوكب الفقرا، الشَّمس تبعيته صـــافية، والـــسَّما

زرقا مثل هايدى اللى فوقنا، وعم يشوفوا العالم من فوق... من دون ما يدوخوا أو يتعبوا..

ثم مد يده إلى منضدة مجاورة، ورفع كأساً يوحى شكله بأنه من الشمبانيا مملوء عن آخره ! .. وشرب منه قبل أن يكمل:

– كوكب .. الأغنيا بيقدرو يتركوا فيه كاس شمبانيا تمنه غالى جداً فى البلكونة لحاله! .. مش هايدا نحنا لقيناه هون ؟..

رد الأصلع مبتسماً:

– هايدى تحية من الفندق، وموجود من ساعة ما جيت .. مش عم بشرب .

– المهم، أن هايدا الكاس يمكن ما يشوفه حدا من سكان كوكب الفقرا طول عمره... هم بس بيعرفوا العرق، بتعرفه؟

– أيه، بس ما بعرف من شو بينعمل.

ضحك إسماعيل، ثم أردف:

– أنا وانت أغنيا ونقدر نكون من سكان كوكب الأغنيا، تفتكر الفقرا يللى فى الشارع تحتينا هلأ، وكل واحد فيهم فايت على عمله أو على بيته.. كيف بيبصولنا ؟!..تفتكر حدا فيهم يقدر يمرق ع الريسبشن تبع هايدا الفندق ولو حتى من باب الفضول؟..

شرب إسماعيل الكأس كله دفعة واحدة، فأحترق جوفه قبل أن يقول:

– السكان يللى فوق كوكب الفقرا بيخافوا من المصارى، يخافوا يدخلوا هايدا الفندق الغالى.. ويوقفوا بالريسبشن.. كأنهم هيدفعوا مصارى بس من شان دخلوا المكان .. تقدر تحس إنت بشعور هيك.... بتعرف ليش أنا قلتلك كوكب أغنيا وكوكب فقرا.. لأنهم عالمين منفصلين وبعيد عن بعضيهم كتير...

ثم لخص قصته ليصل إلى معناها:

– يعنى اللى انت عم بتسميه مولد للنفاق بين الإعلام، فى كوكب الفقرا بيعتبر شى كتير مليح، شي عبقرى.. لناس بيوتهم هدمت أو أقاربهم ماتوا فى الحرب.. بيكونوا مسرورين هلأ لما بيسمعوا فى التليفزيون إن حدا بيبكى عليهم وعم بيحس بيهم..

ثم تمتم هازاً رأسه:

– عمرنا ما هانعرف كيف بيفكر سكان كوكب الفقراء...!!!

سكت فى مختتم حديثه، وكأنما يعلن بتلك الجملة الجوفاء حقيقة الكون الوحيدة ، نظر للكأس الزجاجى للحظة، ثم إلتفت إليه فجأه مكملاً وهو يلوح بالكأس الخالى :

- قلتلى ما عندك غير هايدا الكاس.. ما فى إزازه هون ؟

- لا .. هايدى هدية من الفندق قلتلــك ، وعمومــاً إذا بيتريد نترل نكمل كلامنا تحت فى الهول، تا تشرب مثــل مــا بدك.

تأمل إسماعيل الكأس الزجاجى لحظة، ثم نفض الفكرة عــن رأسه قائلاً بسرعة:

- لا..لا.. صار فينا نتكلم هلأ فى الصفقة، وما بينفع يكون فى الهول...

الفصل العاشر

بين فلسطين ولبنان

تفرست مريم فى مجموعة من الوجوه المتباينة التى أحاطت بها فى مبتدأ الأمر، وكانت الشمس لا تزال ضاربة أطنابها فى هـذا المكان ، على الرغم من أن الساعة لم تكن قد تجاوزت التاسعة بعد .. تضربها الأفكار بضراوة فوق رأسها منذ خمسة أيام حتى باتت مشتتة فى تصرفاتها، تسير على غير هدى فى المكـان .. خمسة أيام فقط هو ما إحتاجته لتلملم شتات نفـسها، علـى الصعيدين.. أباها ونجيب، ولكن خمسة أيام ليـست بـالفترة الكافية لتتغير الأمور.. أم لعلها كافية... ؟!

ذهبت للكنيسة أولاً، وصلّت.. لها ولنجيب وللأب الـدائر فى أحزاب المقاومة برغم سنه الكبيرة وسجنه الطويل .. ركعت على ركبتيها وتوسلت، وابتـهلت.. ثم خرجـت للـشمس فإرتسمت كل الملامح المتعاقبة على وجهها كأنه حلم عنيـف بدأ منذ فترة طويلة و لم ينتهى قط ..

منذ أقترنت عينا نجيب بعينيها فى تلك النظرة المحدقة حينما إكتشف أباها أنها تتبعه، والأفكار تضربها دون ترو أو هـدوء ولا خلاص منها.. نظرته الطويلة بلا نهاية فى عينيهـا مـشبعة بعدم الفهم، فى البداية بالتأكيد اعتقد أنها تبعته هـو إلى هـذا المكان.. ثم أظل الفهم عينيه حين أدرك أنها ما تبعته بل تبعـت

الشيخ حسين... أباها، وليت هذا هو كل شيء.. إختلاف دينيهما تجلى فى لحظة الفهم التالية، هو كان فى الكنيسة يحضر درساً دينياً بينما أباها شيخ..!! فلم يكن حواراً حول الدين قد دار بينهما من قبل، على الرغم من إمتداد علاقتهم نحو سنة كاملة..

لو كان الحوار قد دار بينهما لعرف كل شيء ! .. وفهم الحقيقة، وصارت هذه المأساة غير ضرورية على الإطلاق، لكنها حين كان ذراع أبيها يلتف حول ذراعها قارصاً بحزم الخائف ما إستطاعت عيناها أن تقول لحبيبها أى شيء .. لا...لا تفهم كل شيء بشكل خاطيء .. هذا هو ما إجتهدت أن تقوله بعينيها له ولكنه لم يفهم، وإلا ما رحل مسرعاً يدارى الدمع بإنخفاضة رأسه.. بالتأكيد لم يفهم..

تحركت شفتاها أكثر من مرة، لتحاول الحديث إلى أى شخص من المحيطين بها والذين يتحركون فى كل مكان، ولكنها أحجمت.. ودارت على قدميها فوق الجبل الأخضر الفسيح بين أكشاك الأونروا التى كانا يلتقيان بها، بالتأكيد ما خانتها ذاكرتها.. ماذا حدث للكشك الخاص به ؟ لماذا لم تره على الرغم من أنها بالتأكيد طافت على كل الأكشاك فى دورانها المحموم.. فسرت هذا بأنه عدم تركيز منها، وفضلت ألا تثير حوله المشاكل بسؤال أحدهم عنه، فرجعت للوراء نحو المنعطف الذى تأتى منه كل يوم بعد عبورها للحدود .. تماماً كل شيء كما هو، والزحام الهائل ما بين الموظفين والمتطوعين

واللاجئين حول الأكشاك المعدنية اللامعة والخشبية القائمة فوق المرتفع الأخضر الفسيح الذى ينتهى شمالاً بمنحدر كبير، وتبرز قرية حلتا فى نهايته.. هو نفس المنحدر الذى ... إقتربت من الموقع الذى يفترض أن يكون فيه الكشك المعدنى، فوجدته أخيراً.. الدرجتان الخشبيتان اللتان ترفعانه عن الأرض، والجدران المعدنية للكشك، والإفريز المعتاد للنافذة الذى تعقد ذراعيها فوقه حين تأتى، فضلت أن تدخل من الباب فى هذه المرة، فخطت نحو مقدمة السلم، وأمكنها أن تطالع من الباب المفتوح الجدران الداخلية المبطنة بالقماش والمكتب المزدان بالشعارات والأعلام، ولكنها حين صارت داخل جحيم حرارة الكشك.. رأت شخصاً بديناً يمسح عرقه بمنديل ضخم، قال لها دون حتى أن ينظر فى وجهها:

- أنا آسف.. نحنا بنستقبل اللاجئين من الشباك، لفى لهون..

حدقت فى وجه الرجل ، وجدران الكشك الحار دون أن تتحرك أو تفهم، واقفة على الباب وحرارة المكان تلفحها من الداخل بينما هواء طفيف يربت على ظهرها ويدفعها للتقدم:

- لو سمحت.. فيى أقابل موظف هون إسمه نجيب؟ ..

- أنا بخدمك ف اللى بدك ياه، بس هو ممنوع حدا يدخل الكشك من دون الموظفين..

إبتسم فى حرج، ولكنها سألته فى توجس:

- هو لسه ما إجه؟

- بتعرفيه؟

- أيه.. هو موجود ولا لا؟

نظر لها الرجل البدين ملياً، كأنه سيسرب لها معلومة عظمى ثم قال:

- هو رحل... فل..!!

- فل ع وين؟

الإندهاش والذعر المفاجيء فى صوتها أصاباه بالإرتباك.. فقال لها:

- هو كان بيقربلك ولا شو يا بنيتى؟!.. بقدر ساعدك بداله؟..

- كيف فل؟ أخد أجازة؟...

نفى بسرعة:

- لا.. هو قدم إستقالته، بيته يللى فى القرية إنهدم، فإضطر إنه يفل مع أهله من البلدة كلياتها.. وقال أنه هيشتغل بشى محل تانى...

أصابها الدوار فجلست على مقعدها الخشبى المعتاد، ولكنها فى هذه المرة لم تتراجع به حتى يلمس ظهره الحائط ، و لم

تسترخ عاقدة ذراعيها مثلما كانت تفعل حين تزوره .. أهدم بيته فعلاً أم أن هذه مجرد حيلة كيلا يظنونه يتخلص من العمل على الجبهة و يتهمونه بالجبن والفرار؟... وكيف لا يريد أن يتهمونه بالفرار وهو فر بالفعل، فر من علاقتهما الطويلة ومن وعده لها بالزواج وهو نائم فوقها .. بينما أنفاسه تضرب وجهها ، فر منها وليس من خطر نيران الإسرائيليين .. جلست على طرف المقعد متحفزة وسألت من جديد:

- وبتعرف لوين فل؟ أو وين محل شغله الجديد؟

- أنا آسف يا بنتى، بس ما فى حدا هون بيعرف ..

ثم قرر أن يساعدها بعلمه الخاص فأردف:

- بس بالتأكيد فل ع الشمال، لوين يعنى بده يفل؟

إصفر وجهها بشدة وتمتمت لنفسها:

- أو يمكن خرج من البلد كلها، راح سوريا أو الأردن...

- يمكن .. كنت بريد ساعدك أكتر من هيك..

ناداه من ناحية النافذة صوت غاضب، لشخص متذمر من طول وقوفه، فإلتفت للخلف بمقعده وإنخرط فى الحديث مع صاحب الصوت . لم تكن تعرف لنجيب أقارب خارج لبنان.. أبوه مات منذ زمن بعيد وهو يحيا مع أخوه الصغير وأمه التى إلتقت بها فى المرة السابقة، إذن لأين يحتمل أن يكونوا قد

ذهبوا؟... هو قدم تلك المرأة الأخرى المحجبة على أنها جارتهم فى المسكن، ماذا كان إسمها...؟.. سماح، وقال أنها مثل خالته، فهل ذهبت تلك السيدة معهم.. لو وصلت إليها لأمكنـــها أن تعرف منها أو من الجيران الآخرين إلى أيـــن قـــد ذهبـــوا... إستندت بذراعيها السمراوان فوق المكتب الخشبى، وبـــرزت أمامها مشكلة أخرى، فهى لا تعرف مكان قريتـــه حـــتى .. وسرعان ما إلتفت إليها البدين ثانية فبادرته بالسؤال:

- وإمتى إستقال من الشغل وقال إنه هيفل؟

فرك الرجل رأسه وتنهد مجيباً:

- من شى يومين، الأول كان بيجى ســـرحان ومهمـــوم، وبعدين قال لنا ع السبب وإنه راح يقدم إستقالته.. ومن يومها ما شفناه..

- وبتعرف شو هى قريته؟ تفتكر يقدروا يخبرونى فيها ؟!!!

- أنا ما بعرف قريته، لكن أفتكر فى حدا ممكن يعـــرف.. أمرقى هون بكير هاتلاقيني سألتلك حدا يكون صاحبه وبيعرف بيته يا بنتى..

قامت مضطربة تصارع أفكارها، وقد تضاعفت ضـــربات رأسها وشكرته فى عجل، وأبتلعها الطريق الأخضر والحـــرارة الملفحة فى السماء .. فسارت حتى سيارات الأجـــرة وذهنـــها مختلط ولا تقوى حتى على تنظيم أفكارها..

وهى تسير فى الطريق نحو السيارات شعرت للمـــرة الأولى أنها تفتقده .. كان دائماً هو الذى يستمع لما يؤرقها ســـواء فى علاقتها مع أبيها أو أى شيء آخر، حين تجد فى نفسها هـــذا الشعور الحائر المتخبط تعلم فى قرارة نفسها أن عليها أن تذهب إليه غداً.. ليضمهما الكشك الحار أو أى مكان أخر، ويحتويها بين ذراعيه مبسطاً مشكلتها مهما بدت لها معقدة وعصية على الحل، الآن تشعر تحت هذا القيظ بتخبط غير عـــادى.. فـــلا يوجد من يستمع لأحزانها وكلامها المعجون بالقنوط ويـــصر على أن ما تراه صعباً ومستحيلاً قد يصير متاحاً فى يـــوم مـــن الأيام، حتى أبيها لا تستطيع أن تفضى له بسر كهذا.. يستحيل على أى وضع أن تخبره الحكاية التى كانت جميلة – حتى اليوم – بكل تفاصيلها من اللقاء الأول فى المكتب الثابت للأونـــروا وحتى مفترش المبنى الرطب الندى، وكلمة هنتجوز التى كانت آخر ما سمعته يخرج من فيه..

... ولا حتى نصف الحكاية، فهو سيسهل عليه أن يعـــرف الباقى من أى مكان، خاصة وقد رأت أبيها يـــسلم ســـلاحاً لنجيب الذى إتضح لها أنه يعمل مع رجال المقاومة اللبنانية .. وقفت على الطريق الأسفلتى الطويل الذى يمتد كأنـــه يختـــرق الحكاية نفسها، كأن الطريق عبئاً ثقيلاً تحمله علـــى أكتافهـــا وليس هو الذى يحملها.. وإغرورقت عيناها بدمعات قلائـــل سرت على وجهها الأسمر الطرى ثم نفذت فى الطريق أســـفلها تخترقه كالرصاص... كم تتمنى أن تـــراه الآن ولـــو لدقيقـــة

واحدة، فهو معذور، معذور حتى الأفق البعيد.. حتى تنتهى الكلمة من معناها وتصير مجرد تكوين حروف لا يعنى أى شيء، فهو قد أصيب بصدمة أطاحت بتوازنه !.. وليست هى السبب ولا أبيها، ولا هو، ولا أى شخص.

.. كانت لعبة قدرية محتومة تسير فى خط بلا رجعة، تخرج خلف أبيها لتتبعه للمرة الأولى فى حياتها فى نفس الليلة التى يقابل حبيبها فيها، وتتجمع الوجوه الثلاثة ممزوجة بالذهول والمفاجأة دون أن يقدر أحدهم على اللفاظ بكلمات الحقيقة الغائبة بين ثلاثتهم .. ولا حتى أبيها استطاع أن يتفوه بها ...

حين سأله نجيب ذلك السؤال الذى فهمت مغزاه على الفور وإن لم يستوعبه أبيها ... هايدى بنتك !! .. نظرت لنجيب لحظتها نظرة مرتعدة خاطفة وتمنى عقلها لو يجيب أباها بالحقيقة، لكنه صمت.. وهو ينظر له بحدة قابضاً على ذراعها بغلظة لم تعهدها فيه، لم يفهم... بالتأكيد لم يفهم.. وإلا ما كان أدار كل شيء فى حياتهما بشكل طبيعى تلك الأيام الخمس وكأن ما فعلته حادثاً منتهياً، و لم تقو هى على الحديث إليه حول أى شيء، وتبخرت المناقشة الموعودة بينهما وحتى لقائها التى كانت تزمع عقده للإتفاق مع نجيب فى الصباح التالى للحادثة تبخر فى خضم إرتباكها ..

واليوم هو أول الأيام التى تخرج فيها من المترل لتذهب إلى حبيبها، لترتمى فى حضنه دامعة وتشرح له كل شيء... هذا

ليس أبى .. لا أكذب عليك ولا أتــبرأ منــه.. لــيس أبى .. والعذراء مريم التى سميت تيمناً بها هو لــيس أبى، ولا يمــت لى بصلة قرابة أصلاً ..... !!!

ومن قال أنه كان سيصدقها ؟!.. ربما كــان هــذا البعــد المفاجيء أفضل لكليهما، ولتتمنى ألا تحبل منه فينكشف كــل شيء وتصير فى ورطة لا فكاك منها ... فحكايتها أغرب مــن أن تصدق، وطنها كله أغرب مــن أن يــصدق.. فلــسطين المتناقضة بكل ما فيها من إحتلال وظلم وقهر وتفاوت طبقــى وخيانة وبطولة وفداء وحب وسعادة وشقاء لا تصدق، و على الرغم من أن إعجابه بها بنى فى عقله على إعجابه بفلــسطين، ودار كلامهما كثيراً حولها.. ذلك الحديث الذى كانت تعتبره تقليلاً من شأن وطنها وتحويله لقضية موضوعية مــا، فإنهــا لم تخبره إطلاقاً على القصة الأغرب فى حياتها.. والــتى كــبرت وعاشت لتجد نفسها مغرقة فيها بشتى تفاصــيلها.. الــشيخ حسين ليس أباها الحقيقى، كلمات قلائل همشها كلاهما مــن حياته فإعتدلت الأمور.. وما كانت تظن أن هــذه الكلمــات نفسها هى التى كانت لتحل المشكلة التى وقعت فيها...

هى لا تذكر بالضبط ما حدث، لا جملة ولا تفصيلاً .. فقد كانت فى الثالثة وقتها من عمرها، وكان هذا منــذ ســنوات بعيدة، وكأنها أسطورة.. وفلسطين تنهدم فوق رأسها ، فوق رأسهم جميعاً... أمها وأبيها وجيرانها، حسين الــشاب وأمــه

وأبيه... وفجأة غارت الأرض بكل شيء، فصارا وحدهما تماماً في هذا العالم... إنتقل كل سكان ذلك المكان الذى ولدت فيه إلى المخيمات، وكان من نصيبهما مخيم جـنين الـذي كانـا يعيشان فيه..

حكوا لها أنها كانت متعلقة بشدة بحسين جـارهم، علـى الرغم من كونه فدائياً بين خلايا حركة التحرير الفلـسطينية.. كثير الأسفار ونادراً ما يعود للمنزل ، ولكنها كانت تحبه منذ طفولتها لأنه كان يحضر لها ألعاباً من متاجر بعيـدة لا يوجـد مثلها فى المدينة البسيطة التى كانا يعيشان فيها قبل أن تنهـدم آخذة معها أهلها وأهله .. بكت كثيراً ورفـضت أن يتـولى تربيتها أياً من الجيران أو الأقارب، رفض الطفلة المليء بالبكاء والصراخ ورفض الطعام الذى ما كان يهدأ إلا بمقدم حـسين ليجعلها تأكل بنفسه .. وطلبت أن تظل معه، ولكـن العـائق الأساسى ما كان أنه وقتها كان فى الرابعة والعشرين من عمره ولم يزل صغيراً بعد، بل كانت العقبة أنه مـسلم وأن أهلـها مسيحيين.. كان جدها قساً فى الكنيسة أبـان حـرب ٤٨، وورثت العائلة كلها تدينه ومعاملته الحسنة لجيرانـه ، وورث جيرانه – أبوى حسين الشاب – علاقتهما الطيبـة بجـدها و بآلها...

ولكن لا شيء يفوق إرادة الله المحتومة فى شكل القدر، نفس الإرادة التى جمعت وجوههم الثلاثة ووأدت قصة حبـها منـذ أيام، هى التى جعلته يأخذها أخيراً ليربيها على الرغم من كـل

الصعوبات التى واجهت إنضمامهما من جديد.. وذهب بها إلى مخيم جنين على أنها إبنته هو، وفى وطن مثل فلسطين مشتت الأطراف يعيش أهله معظمهم فى مخيمات بشتى الدول.. تصير معرفة أواصر العلاقات الإنسانية وأصولها من الأمور المستحيلة.. فيما مضى حينما كانوا يعيشون فى عمارة مستقرة على أرض الوطن كانت الشخصيات معروفة، تتبدل مثل الأوراق فى النتيجة.. هذا أبوه فلان، وهذا يعمل فى المكان الفلانى .. هى جدها قسيساً وأبيها خراط ، و فجأة ... إنقطع السيل فصارا فى عالم يجمعهما وحدهما من الزمن البائد.. زالت أرض الوطن من تحت عمارتهما فإنهدمت.. هكذا، بنفس البساطة التى تكتب وتقرأ بها تلك الجملة.. ما كانت تدرى إذا كان الرجال المسيحين — فى المخيم الجديد على كليهما — هم من أجبروه على هذا أم أن هو من نفسه الذى سلمها للكنيسة التابعة لمخيمهم، لم تسأله مثل هذا السؤال ولكنها فكرت فى الموضوع كثيراً من قبل ووصلت لقرار يقينى بأن هو الذى ذهب بها بنفسه، فمن كان ليعرف أى شيء عنهما فى هذا المكان الجديد ؟ ... كان بوسعه أن يزعم أنها إبنته، وأن زوجته ماتت أو أى شيء آخر.. ولكنه فضل أن تربى كما أرادها أهلها، ولهذا صار هناك إحدى القساوسة فى المخيم هو المسئول عن نشأتها الدينية المسيحية..

وبخلاف هذا القسيس ما كان أحداً تقريباً يعلم أى شيء عن حقيقتهما.. وحتى من لاحظ إختلاف إسميهما ظنها مثلاً

إبنة زوجته من زوج آخر، أو إبنة أخته مثلاً ، كبرت وفهمت الدنيا وهى موقنة أن حسين – الذى تحول إلى أبى – هو أبيها الحقيقى، حتى فهمت كل شيء وتعودت على الوضع بسلاسة وهدوء، ودون أن تفقد قط إيمانها بأن هذا هو والدها الـذى تعرفه و لم تعرف غيره طيلة حياتها.

.. يعيشان تحت سقف واحد، على دينين متباينين .. ولكنه أحرص واحد على ألا تقصر فى شعائرها طوال عمرها .. فهم كل شيء عنها وشجعها، وهى أيضاً أيام المدرسة كانت توقظه بنفسها ليصلى الفجر، لأنه ما كان يستيقظ أبداً على صـوت المنبه بعدما ينام منهكاً من يوم العمل المرهق الـشاق، ألزمتـه بتقليص نشاطه السياسى، وألزمهـا بالإبتعـاد عـن الحيـاة الإجتماعية مع أقرانها التى كانت الكنيسة تقدمها... ولكنـهما كانا سعيدين، لم تسأل طوال عمرها عن أبويها، و لم يحاول هو أن يفكر فى الزواج وكأنها فعلاً إبنته، وكأن عدم زواجه هـو إخلاصاً لزوجة ماتت تاركة طفلة صغيرة فى رقبته..

وهكذا صارت أمه التى ماتت عند إنهيار حياتيهما القديمـة، وزوجته التى ما وجدت أصلاً، وإبنته الـتى يتوجـب عليهـا طاعته.. وحين عادا معاً من الجبل فى تلك الليلة العنيفة الحادة، لم يتبادل معها أى كلام .. دخل البيت فغير ملابسه وذهـب للعمل بعد أن أغلق الباب عليهـا بالمفتـاح مـن الخـارج، وإستقبلت هى صمته بصمت .. وتصدعت علاقتهما فى تعكر سريع وفائر وصامت.. صار البيت قبراً يحيا به إثنين من الموتى،

والصوت الوحيد الذى يسمع فيه هو صوت التليفزيون على فترات متقطعة.

وحين عاد من العمل ووجد الطعام معداً، أكلا كعادتهما... سوياً، وجهاهما متقابلين أمام المائدة الخشبية الرفيعة من فوق الصحون، وفى اليوم التالى حين خرج لم يغلق الباب بالمفتاح !! .. كأنه يحلها من رباط حمايته، فلتفعلى ما تشائين .. خوفاً عليها لا أكثر أغلق الباب فى اليوم الأول، ولكن شيئاً من خوفه لم يتبدد بالباب الموصد، فتركه فى الأيام التاليه..

- الباب مفتوح، إذا بتريدى تمرقى ع السوق أو المخيم.

- شكراً.

فتور هادئ لا يقوى على النقاش، إمتد حتى وصل ليومه الخامس .. وحين ظهر البيت أمامها وقفت قليلاً فى الطريق، قبل منعطف يقودها للبيت، وإفترشت جانب الطريق حيث المزروعات التى ترتوى بشمس أواخر آب.. المولود الجديد الذى يكسب الصيف نيرانه اللاهبة .. جلست مطرقة الرأس تماماً كأبيها حين يفكر..

ولا تعلم فى ماذا كانت تفكر تحديداً..! فى نجيب الذى رحل أم فى أبيها الذى لا يجعلها تشعر بالإستقرار للمرة الأولى فى حياتها، ويتركها متخبطة فى حيرة ... أم فى القدر الذى يجمع الناس ويطرحهم مخلفاً لهم أحزاناً لا تندمل، وأعاجيب

تفوق القصص الخيالية كلها، تقتضى الواقعية أن لا تشذ عــن منطق الحياة، ولكن.. هل للحياة منطق أساساً ؟ وهل ما حدث لها فى أقل من أسبوع هو فى المنطق من شيء ؟

أيتخذ الواقع أحداثه من المنطق العقلانى المعروف ؟ أم تسير الحياة وفقاً لإرادة عليا حتى ولو تنافت مع المنطــق والحقــائق والواقع نفسه ؟!!

الآن فقط بعد عشرين عاماً من عمرهــا تفكــر فى تلــك الأشياء .. لقد جعلها القدر ترتطدم بحبيبها دون أن تدرك حتى أنه مسيحياً مثلها !! ، وكان كل شيء ليــسير علــى نهجــه الطبيعى تلقائياً .. يتقدم للشيخ حسين، ويوافق عليــه ويتمــا إجراءات الزواج كما كانت تحلم طيلة عمرها ... فقط لــو لم يتدخل القدر من جديد ليظن نجيب أنها إبنة الشيخ حسين بتلك الطريقة الدموية العنيفة التى لم تترك مجالاً للتعقل والــشرح، و خلفت آثارها المدمرة فى كل شيء...

***

– أنا عم شبه عليك، أنا بعرفك.. أفتكر شفتك من قبل..

.. يوم وقف صديق عمره ليحقق معه داخل غرفة واســعة مترامية الأطراف خالية من الأثاث، ترسم الــشمس مربعــات ضوئها على نصفها تقريباً، فوق الجنديين الواقفين فى أقــصى

الغرفة.. ويتردد صدى الكلمات فيها عبر كـــل الآذان مـــراراً لخلوها من الأثاث ليؤكد على أهمية الكلام ..

يوم لا ينساه، و لم ينساه أبداً.. بعد دهر من تعرفه عليـــه فى العملية الأولى فى بن عامر.. السهل الأخضر الكبير الممتد تحت بطونهما وهم منبطحون أرضاً حين كانا مجرد صـــبيين، كـــان مجرد زميل مدرسة لا يذهبان إليها أصلاً ، ولكن عبر مـــشوار ممتد من النضال صارا صديقين.. كان أصدق أصدقائه، يذهبان معاً من حارتهما القديمة فى حيفا وقتما كان فى مستهل شبابه.. ثم تفرقا لأول مرة عندما ذهب لجنين حاملاً على ذراعه مـــريم الطفلة التى صارت بعدها شغله الشاغل، إلتمع إسميهمـــا عـــبر العمليات الفدائية تنفيذاً أولاً ثم تخطيطاً فيما بعـــد.. وتوغـــل كلاهما فى حركة فتح ودوائر منظمة التحرير بشكل عـــام .. وعلى الرغم من إنفصالهما عن أداء العمليات سوياً بعدما أصبح كل منهما رأساً مدبراً لعملياتـــه الخاصـــة، إلى أن علاقتـــهما ولقاءاتهما المتعددة فى إجتماعات الحزب لم تتغير إطلاقاً... إلى أن إنتمى صديقه إلى دائرتى العلاقات القومية وشئون الـــوطن المحتل فى الحزب، كانت هذه هى أولى أبعاد ما حـــدث بعـــد ذلك، والذى كان تفسيره يكمن بين سطور لم يقرأهـــا مـــن عاشها بهذا الوضوح فإستعصى عليه التفسير وقتها...

كانا على صداقتهما — التى دامت حرارتها حـــوالى خمـــسة عشر عاماً — خطان متوازيان لا يمكنهما التلاقى إلا ويحـــدث

صداماً، كان كل منهما صورة للآخر حتى فى بعض ملامح الشكل، الشارب الذى يربيانه ويعتزان به، والكرش الضئيل فوق قواماً ظل رياضياً متيناً لسنوات خلال التدريب و "أيام الولدنة" كما كانوا يسمونها... وكل منهما هو مصير الآخر مرتسم خطوة فوق خطوة، يرفضان الإستسلام والإنصياع لموائد المفاوضات العامرة بالأكاذيب والتضليل، والممتدة لحدود الشمس ذاتها..

قاوما فى شبابهما تياراً من أكاذيب السلام كان سائداً فى كل مكان بالحزب، بعد إزدياد نشاط حركة المقاومة الإسلامية حماس .. والخط السياسى الذى رسم لحركة التحرير الفلسطينية حتى فى جناحها العسكرى .. لا حرب ! مفاوضات.. مفاوضات.. مفاوضات...!! حتى يمل أحد الطرفين أو يقضى كلاهما، وكأنما سترحل إسرائيل بالمفاوضات السلمية مللاً !!

ولكن صديقه بدأ يتغير بصورة ملحوظة، صار منتمياً لإدارة السياسة البغيضة التى ما كانا يفهمانها أبداً بل وسخرا منها عدة مرات فى أيام الصبا .. ويوم مذبحة الحرم القدسى الإبراهيمى الشهيرة ، تشرين الأول ١٩٩٠ تصادف أن كان خارج البلاد فى أحد المؤتمرات المنعقدة — والتى ألحوا عليه فى حضورها كأحد كوادر الحزب ذوى الشعبية — ولكنه ما إن علم بالأمر، حتى ولى شطر فلسطين من جديد .. ودخل مكتب شئون الوطن المحتل، دافعاً الباب على مصراعيه:

- كيف هايدا يللى بيحصل ؟ عشرين شهيد وميتين جريح!!.. وين كنتوا كلياتكو ؟، وين كانت قواتنا..

فقام صديقه على الفور من مكتبه الذى يتوسط الغرفة مع ثلاث مكاتب أخرى لثلاثة موظفين، وجذبه من كمه ليهدئه:

- المسأله منا حرزانه كل ها الغضب، ما حدا قدر يتدخل.. والموضوع بيتحل دولياً..

- شو؟

إقترب وجهيهما حين إلتفت حسين مجذوباً من طرف كمه، وصارت الملامح قرب الملامح وجهاً واحداً:

- منا حرزانه كل ها الغضب !!!

إختلفت ملامحهما على نحو لا يصدق، على الرغم من أن لا شيء إختلف .. نفس الشكل والتكوين الجسمانى الذى إعتاد كل من يعرفهما عليه، ولكن النظرة تجعل تكوين الوجه معقداً مختلفاً.. نظرة الغضب المستنكرة التى تلصق الحواجب وتضم الفم، ونظرة التروى التى تبسط كل الملامح بلا معنى.. وكلمات حسين الفائرة التى أتبعها قائلاً:

- كيف ها الحكى؟.. شو عم بتقول، منا حرزانه !!

شعر حسين أن صديقه سينهار تحت قسوة نظرته التى تحفر الصخر ذاته، ولكن الصديق قال منفعلاً - أو ممثلاً الإنفعال - ليحظى بمبادرة الصوت العالى:

– إيه... منا حرزانة، شو معقد ها الكلمة يخليك تعيـــدها، إيه قلت منا حرزانة، بس قلت برضه إن المسأله عـــم تنحـــل دولياً.. فى مسئوليات بيفرضها عليك موقعك فى الحزب..

إنهار حسين على كرسى مكتب صديقه، وقد فهم حقيقـــة عدم الشبه بينهما الذى صار فجأه، ثم قام فجأة وتركـــه .. لم يجادله أو يناقشه فيما إفترض صديقه أنها مسئوليات يفرضـــها موقعه فى الحزب ، بعدما إقتحم مكتب رئيـــسهم فى الحـــزب ونعتهم جميعاً بنعوت مشينة شعر أنهم يستحقونها صار أكثـــر إنطواءاً وميلاً للعزلة، وخرج من مكتب شئون الوطن المحتـــل شخصاً جديداً مختلفاً عما دخل .. ذوى إقتناعه بقضايا الحزب وترهات السلام الملفوفة فى حديث صديقه الـــصدوق، بـــدأ يتعرف على أجيال جديدة وسياسات جديدة .. كانت الحركة ذات الشعبية الكبرى فى هذا الوقت بسبب إتجاهها للعمليـــات الميدانية ورفض الحوار هى حركة حماس، وكانـــت بالفعـــل.. مملوءة بحماس إفتقده جيله الذى نمت كروشـــه، وجلـــس فى المكاتب ينعى السلام ويلوك المفاوضات.. يعود السبب في هذا الانتقال إلى أن قيادات فتح – المنظمة التي بدأت من برنـــامج التحرير اعتقدت أن أمامها بعد مدريد أن تسير في برنامج سلام خاص، أو أن تخرج نهائيًّا من الساحة، لأن الحكومات العربيـــة أخذت تفاوض، ولما كانت حكومة مصر قد وصلت إلى اتفاق مع العدو الصهيوني في كامب ديفيـــد، وحكومـــة الأردن في وادي عربة، وكان العدو يلوح بالخروج من لبنان بلا قيـــد ولا

شرط، وكانت لدى الحكومة السورية أوراق تستخدمها، فإن القيادة الفلسطينية الرسمية قد خشيت أن تظل خارج إطار السلام، وأصرت أن تبقى طرفًا مهما كانت النتائج فكان التغيير .. كان هذا فى عام ١٩٩٥، وكل شيء يسير من سيء إلى أسوأ.. وصار يتقابل مع صديقه على مائدة الإجتماع بلا أى حميمية، حين قرر فجأة أن ينضم إلى صفوف حماس، بعد نتائج عملياتها الإستشهادية المتعددة، ورفض أن يظل فى بيته بلا أى قتال وطنى فى سبيل عودة فلسطين، وهو ما لم تفهمه مريم إطلاقاً .. مثل ما الشباب بدهم يحاربوا، الشيوخ بدهم يحاربوا.. ولهذا تحديداً كان كل ما حدث دراميا فى حياته.. بعدما إنقلبت السلطات السياسية فى فلسطين لأداة قمعية للمقاومة، تعتذر لإسرائيل، وترهب شعبها.. بل وتدحض القضية بالمنشورات والمواثيق .. والعنف أحياناً...

- أنا عم شبه عليك، أنا بعرفك.. أفتكر شفتك من قبل..

لهجة صاحبه المتسائلة من خلف المكتب تكاد تدفعه للضحك رغم تورم وجهه المضرم بالدماء من آثار التعذيب، ينكره هكذا بكل بساطة لمجرد أنه واقف خلف مكتب وحيد فى الغرفة وبضع أوراق وقلم.. هكذا صار محققاً وصار الاخرين كلهم متهمين.. مبروك... لقد ترقى وخرج من دائرة شئون الوطن لدوائر أخرى أكثر إحاطة بالسياسة والتحقيق والتعذيب.. وعلى الرغم من إرهاقه شهد لصديقه بالكفاءة، كان أستاذاً.. لقد قبضوا عليه فى سهولة ومن وسط المخيم

ذاته، أمام عينا إبنته الدامعتين، واللتان لا تـــصدقان أن هـــؤلاء الرجال الذين يقبضون على أبيها فلسطينيين.. طوال عمرهـــا كانت تتحسب يوم يقبض عليه الإســـرائيليين أو يقتلـــوه... ولكن..!!!

وبعد هذا عذبوه تعذيباً عبقرياً يجعل الصخر يلين ويعتـــرف بأى شيء، ولكنهم ما كانوا يريدون منه معلومـــات، فقـــط يخشون أن تتسرب معلوماتهم بعد سنوات طويلة مـــن العمـــل معهم إلى أى جهة، سواء حماس أو حركة الجهاد الإســـلامى، والآن جاء دور التحقيق معه.. وصاحبه هو الذى يقوم بهـــذا الدور..

- أنا عم شبه عليك، أنا بعرفك.. أفتكر شفتك من قبل.. و يتحدث بلهجة تمثيلية كأنما هو فـــيلم ســـينيمائى .. أدرك حسين أن التمثيلية مجدية وصاحبه فاز بجدارة، فرد والدم يندفع من فمه مبصوقاً بين مقاطع الحديث:

- ما بعتقد.. ما بظن التقينا من قبل..

ونظر للإرتياح البادى على وجهه صديقه من موافقتـــه فى إنكار علاقتهما، ولسان حاله يقول .. الآن كلانا مختلف عـــن الأخر ولا جدوى من أى شيء، إذن فلنجعل علاقتنا ممحيـــة.. لا أنت تريد صداقة رجل حزب خان القضية، ولا أنـــا أريـــد صداقة عميل منشق عن جبهة التحرير الوطنية.. كأن صـــديقه يتوقع هذا الرد، إندفع للتالى على الفـــور، بعـــدما أعلـــن أن صداقتهما المقضية لن تشفع له بشيء ..

- بتتصل بالإسرائيلين ؟، بتخون الكفاح يللى طول عمرك عم بتقوم بيه ؟ ..

يالها من تهمة مضحكة، ألم يجدو له شيئاً غير هذا، كيف يخون ما كان يقوم به طيلة عمره؟ ولماذا لم يخنه منذ زمن وإستمر يفعله طيلة عمره ؟!!

- كم أعطوك ؟.. نحنا لقينا شنطة مصارى بدارك.. هايدا كل شي، وللا أعطوك شي آخر ؟

تهاوت قدماه من الإنهاك على أرض القاعة الواسعة، فأشار صديقه لأحد الضابطين، وإنهالت لكمة قوية على ظهره، فإنتفض متشنجاً للحظة، ثم وقف على قدميه متمالكاً نفسه ..

- ما فيك تنام ولا تقعد .. إلا لما تخبرنا كل شيء...

- راح خبركن..

- إذن قلنا... ليش عم تتعامل مع الإسرائيليين؟

- المصارى.. هن كانوا هيعطون إشيا كتير مقابل المعلومات، وأنا عم خون البلد لأنى ما لاقى آكل.. والشغل بالمخيم ما بيكفيني أنا وبنتى، هايدا كل شي...

كذب بسهولة ويسر لأنه علم أن كل هذا تحصيل حاصل، وعلى الرغم من أن ما إعترف به يكفي لإعدامه .. سقط متهالكاً على الأرض من جديد، وغامت الدنيا للحظات قبل

أن تظلم أمام عينيه تماماً بعدما أغمضهما فى راحة تشبه راحـــة الموت...

أظلمت الدنيا أمام عينيه وحتى الآن، سجن، وخـــرج مـــن السجن بعد سنوات سبع، وإنتقل مع إبنته من جـــنين بعـــدما ضرب المخيم كله .. كان فزعاً مشدوهاً أمام طلقات الرصاص التى تترع فى أجساد المدنيين فى المخيمين المتلاصـــقين، ورأى فيما حدث خطأ قيادات فلسطين المتناحرة، وغص حلقه حينما تذكر ثورته فى مذبحة الحرم الإبراهيمى.. خيل له أنه لو ثار من جديد، لقال له أحدهم .. منا حرزانه، والموضـــوع بيتحـــل دولياً.. فر من ماضيه الموجع، والشباب الذين يريدون الحرب، والشيوخ الذين يعرقلونها نحو هذا الركن البعيد، عاش فى مترل بعيد عن المخيم الجديد، وأطلق لحيته وتغير.. للمـــرة الألـــف تغير!!..ولكن فى تلك المرة بوضوح حتى لاحظت إبنتـــه مـــا حدث، وظنت أنه قد ترك العمل السياسى بهذا التغيير، ولكـــن أى عمل سياسى ؟! لقد نجح صديقه تماماً، أخرجه من القضية سبع سنوات كاملة حتى لم يعد مفيداً.. كل معلوماته صـــارت قديمة، وخبرته بالأسلحة إختلفت عن الواقع، وصـــار الرفـــاق الجدد فى حماس يعاملونه كرمز.. كبطل حرب سابقة أورثتـــه الشرف وإعاقة بالغة، صار معاقاً ...

لا يعرف إن كان فعلاً عليه أن يتوقف أم لا !!.. فى ســـن الواحد والأربعين — وهى سن صغيرة — يستطيع أن يتـــزوج

فعلاً، وينجب أبناء حقيقيين من صلبه.. يستطيع أن يعمل، ويزوج مريم من شاب يتقدم لها.. كلها أشياء مشروعة وصادقة ورسالة الإنسان فى الأرض .. ولكن .. هل سيرضى عن قراره إذا فعل هذا ؟ أم سيعتبره إنهزام أمام إرادة وقف النضال..

صار على مقربة من البيت وهو غارق فى تفكيره، حين أبصر مريم جالسة على جانب الطريق المفروش بالنباتات الصحراوية، أمام المترل.. مطرقة الجبين كأنها حزينة أو شاردة.. منذ تتبعها له من خمسة أيام وما حدث عند الجبل وهو لا يتحدث معها.. لأنه يفكر.. ويفكر..

بالتأكيد هى تظنه غاضباً من طيشها، ويعاقبها على رعونتها، وعزز هذا الظن لديها أنه أقفل الباب فى اليوم الأول بالمفتاح حتى لا تتبعه من جديد.. ولكنه ليس غاضباً منها لأنها تخاف عليه، هو فقط يفكر خلال تلك الأيام الخمس.. ويستجمع شتات نفسه، كى يتخذ قراراً بشأن المناقشة التى وعدها بإجراءها معها و لم يجرياها قط .. يفكر..

– مالك ؟ زعلانه !.. أنا بعرف من شو إنتى زعلانه ؟..

رفعت رأسها إليه بحزن بطيء، أخرجها من تفكيرها فى نحيب صوت جلوسه على الأرض إلى جوارها على جانب الطريق، وهو يضيق عينيه السوداوين ليحميهما من أثر الشمس.. طالعت وجهه المبتسم وكلماته القلائل وفكرت.. أنه لا يعرف حقاً ما تفكر به !!

– إنا فكرت كتير، قبل ما حاكيكي من جديد.. كـــان فى مناقشه بدنا نقولها، وأنا ما نسيتها...

واصلت النظر إليه وهو يتكلم، راقبت إرتجافة شفتيه حـــين يحاول أن يخرج كلمات غريبة عن ذهنه، وهو يجلس متردداً.. فحاولت تشجيعه قائلة:

– أنا آسفه من شان كل شي قلته، إنت عم تخدم البلـــد.. واللى زيك هم اللى بنعتمد عليهم.

– أنا كنت فعلاً بعرض نفسى للموت، وبعرضك تـــصيرى فجأة من دون أب...

بلعت ريقها حينما تخيلته ميتاً ، ولكنها قالت:

– كنت أنانية لما فكرت هيك.. إعمل اللى بدك ياه، ومنى زعلانه.

قام من جوارها متثاقلاً وهو ينفض الغبار عن بنطاله الجينز، فقدرت أن المناقشة إنتهت، وإنه إعتبر كلامها إجازة له بمواصلة ما كان قد بدأه، نظرت لذقنه المرتعدة وهو واقـــف أمامهـــا وتردده فى قول شيء ما فلم تفهم.. ثم قال فجأة:

– أنا قررت أوقف..

ثم فسر ذلك:

– أنا قررت أشتغل أكتر، وأتزوج.. وما خليكي تقلقي علي... راح وقف كل شي بالسياسة..

– كل شي !!

قالت مشدوهة وغير مصدقة، فقال لها:

– إيه.. نحنا جينا هون بعيد عن العالم من شان نفتح صفحة جديدة، وأنا ما راح لوثها..

وإبتسم إبتسامة واسعة، أعادت علاقتهما إلى طبيعتها في ثوان، تطلعت لملامحه بحثاً عن مرواغات أو عدم رضا .. فوجدتها كالصفحة المفرودة تمتد بإبتسامة واسعة .. مد يده نحوها فأعطته يدها ليساعدها على النهوض، وسارا في إتجاه البيت القريب، قال لها وهما يخطوان على الأرض الرملية في جدية :

– الحقيقة أنا ما صالحتك هلأ إلا من شان شي شغلة واحدة.

نظرت له مستفسرة ، فأكمل وقد بان من إنفراج شفتيه نيته المازحة:

– أنا صالحتك لأن أكلك وحشني كتير، بطتبخيلنا حيالله أكلة أول ما بنوصل.. وبعدين بنتفرج ع التليفزيون، مش رايح فى أي مكان ها المسا .. شو رأيك؟

ضحك ونظر لها فضحكت بدورها، ولكنها فكرت وهما يدخلان للمنزل.. هل تخبره بأمر نجيب وتعكر عليه صفو

سعادته ؟ أم تكتفي بما يظنه هو ما يضايقها وتنتظر حتى تذهب غداً علها تحصل على أثرٍ له ؟.. دار رأسها من التفكير العميق، على الرغم من سعادتها التي لا توصف برجوع أبيها إليها مـــن جديد..

***

الفصل الحادى عشر

فى كهف بين حجرين

إستغرقت الرحلة بالسيارات الجيب قرابة ساعتين كاملتين، على طريق يمتد بين أحراش مزروعة بلا نهاية، و لم تكن الشمس قد توسدت السماء بعد حين وصلت القافلة المكونة من سيارات ثلاث إلى مفترق الطرق الأخير.. قبل الطريق المؤدى إلى الحدود السورية اللبنانية، مما جعل ذكرى ذهابه فى الطريق ذاته منذ أسابيع مع محمود و إسماعيل تطوف بذهنه ممزوجة بمرارة الموت والشقاء .. وتأمل الموجودات التى تتحرك بإطراد خلف النافذة وكأنها تدفعهم للأمام لبرهه، ثم أدار عينه داخل السيارة نحو إسماعيل مختلف عمن كان بالرحلة الماضية ، يجلس تلك المرة مسترخياً وتاركاً بطنه الممتلئة تنام أمامه فى المقعد المجاور للسائق .. ثم نحو شخص آخر يجلس بجواره لم يتبادل معه الحديث طيلة الرحلة..

راح نطلع كلياتنا على مدينة قرب الحدود لسه ما تحددت، وهونيك راح نبدل الأسلحة يللى معنا بمصارى من رجال جايين من ورا الحدود...

هذا هو ما يعرفه عن تلك العملية كما قالت له منة فى حجرته فى الفندق، تهريب أسلحة إلى مقاتلين فى لبنان من على الحدود السورية اللبنانية، من الذى قد يهتم بتصوير شىء كهذا؟! والجميع يعلم أن سوريا هى أحد أذرع الدفاع اللبنانية

المهمة حقاً !.. ولو سئل أى شخص فى الشارع عربياً أو إسرائيلياً لأجزم بأن سوريا هى منبع السلاح الشيعى اللبنانى لحركتى حزب الله وحماس.. وأن بعض هذا السلاح يأتى من سوريا نفسها، والبعض الآخر يأتى من إيران، القوة الشيعية الكبرى !! .. حتى أنه قرأ فى جريدة معاريف الإسرائيلية منذ أيام مقالاً مفاده أن اليد التى تضغط الزناد سورية والتى تعطيها الذخيرة إيرانية !! .. أى أن الأمر تجاوز لديهم تهريب السلاح فصار تهريباً للمقاتلين .. إذن من الذى يستفيد من تصوير مبادلة السلاح ؟.. وما الذى قد يسعى لإثباته أو نشره بعض تلك الصور صحفياً ؟! ..

لم يجد جواباً محدداً فطاف بعينيه نحو ركاب السيارة من جديد، كان أهون عليه أن يركب نفس السيارة مع إسماعيل المتغطرس الأنانى – الذى إستعاد غروره من بعد لحظات التعاطف التى أستلبت بينهم على الطريق سابقاً – على أن يركب فى السيارة الأخرى مع منة.. سكرتيرة إسماعيل، تلك الفتاة الآلية التى تتصنع الضحكات والحديث دون إهتمام حقيقى، كان ليحتمل الغطرسة والغرور.. ولكن الزيف الآلى هو حقاً ما لا يحتمل ..

تسربت الأشجار والسحابات المارة فى الطريق نحو وعيه فملأته بمشاعر متناقضة ما بين خوفه المعتاد أبان كل عملية جديدة، وشعور غريب بالحماس لا مبرر له كأنما يفعل أى شيء بدافع وطنى نبيل.. لذلك وخزه بشده مرآه لذلك الصبى

الصغير الذى كان ينظر من نافذة سيارة مارة إلى جوارهم نحوه مباشرة .. التقت عيناه بعينا الصبى لحظة كالدهر، فحملت شفتيه إبتسامة متوترة بطيئة التكوين .. ثم رحل الصبى والسيارة مبتعدين، ومخلفين ورائهم شعوراً غير مبرر بالإثم هدم الحماس الذى كان يدق فى قلبه للحظات..!!

و توقفت السيارات بعد قليل فى نقطة يظللها جبل كبير، على مبعدة كيلومترات من الحدود.. ونزل الجميع من مجالسهم.. الأصلع و الفتاة وإسماعيل وأربعة رجال آخرين هم المنوطين بإستبدال تلك الصفقة من السلاح .. أشارت منه للأصلع من بعيد فإقترب نحوها، فقالت وهى تعيد تنسيق الجاكيت المخملى الخفيف حول صدرها وردفيها بعد خروجها من السيارة:

- حمد الله ع السلامة..

وإبتسمت فلم يبادلها بشيء من الإبتسام، فواصلت كأنما شيئاً لم يكن:

- شو حلوة سوريا .. عمرك شفت هيك الجبال من قبل ؟

- ما بعتقد ...

قالها دون أن يفكر إن كان صادقاً أم كاذباً، فهو قد زار أماكن عديدة ورأى أشياء عديدة.. غير أنه لم يكن يريد أن يفتح معها أى نوع من أنواع الحوار... وقالت من جديد:

– .. هاودى الرجال الأربعة هما اللى هايظهروا بالشريط ، هتصور من بعيد وبعدين هتقترب شى أمتار .. خليـك عـم بتفكر طول السكة إنك بتصور من دون علمهم صفقة أسلحة لو طلعت صورهم فيها بيروحوا السجن أو المشنقة .. وإحنـا بعد هيك فى المونتاج بنركب صور من قرية هـون قريبـة ع الحدود ، كـأنك كنت عم بتصورها وشفتهم صدفه بيسلموا سلاح ..

إستدار ليحمل حقيبته السوداء من السيارة الـتى لازالـت أبوابها مفتوحة، فسمع صوتها يكمل:

– وطبعاً ما فينى قلك.. أنه هايدى الرجال ما بيهمهم تطلع صورهم فى الشريط لأنهم بيختفوا أول ما يظهر الشريط للنور..

كان يعلم تلك النقطة جيداً.. رجال مأجورين تدفع لهـم مبالغ كبيرة جداً، مقابل تعريض أنفسهم لبحث الشرطة عنهم، ويختفون لفترات كبيرة فى أغوار الجبال.. وربما كـان علـى بعضهم أحكاماً من قبل، أو مدون فى سـجلات البـوليس .. أخرج حقيبته وأخذ يعبث فيها كعادتـه مخرجـاً أحـشائها الإلكترونية، والعدسة طويلة البعد البؤرى الكبيرة التى يتفـاءل بها، وتتيح له تصوير الموضوعات عن بعد .. رفـع الكـاميرا التليفزيونية مشهراً إياها فى الفضاء وهو يترع غطاء العدسة من مقدمتها، وسار داخل المكان محاولاً تمييز نقطة يستطيع التصوير من خلالها.. ذهبت منة نحو إسماعيل وتبادلا حديثاً قصيراً فأشار

للرجال بالتقدم، ومن خلال فتحة الرؤية من داخل الكـــاميرا رأى الأصلع الرجال الأربعة يدنون من مفترق الطريق بعيداً عن الأسفلت، بينما توارى إسماعيل و منة خلف نطاق التصوير .. فبدأ بالتصوير فجأة .. وسرعان ما مر كـــل شـــيء، وســـلم الرجال سلاحاً وأخذوا النقود من رجال آخرين ظهـــروا مـــن طريق مختلف.. ولقرابة الربع ساعة لم يتحـــرك أحـــد ســـوى الأصلع الذى كان يمثل التسلل حتى يقترب بالـــصورة ، تمامـــاً كما إتفق معها، وأخذ المستلمين يراجعون الـــسلاح فـــاتحين حقائبهم، وإستغل هو الفرصة ليستعرض السلاح المهرب مقرباً الصورة بإستخدام الزووم، ثم أغلقت الحقائب على ما تحتويـــه وإنتهى التسليم فتظاهر بالركض بينما الرجال الأربعة يلتفتـــون خلفهم، وأنزل الكاميرا من على عينيه وهو يركض، ثم أغلـــق غطائها، وزفر فى راحة يعرفها من يحبس أنفاسه أثناء التصوير.. وسمع إسماعيل يصيح فجأة بصوته المتوحش:

- هايل .. عظيم ، هيك كل شي تمام وفينا نعود..

إلتفت الأصلع نحوه فرآه فارداً ذراعيه، ورأى بجواره منـــة تنظر ببسمة خلاص كأنما كانوا يصورون فيلمـــا ســـينمائياً .. وقبل أن يتكلم معهما سمعا صوت موتور يقترب فى ســـرعة، فرفع إسماعيل عينيه المتغضنتين للسماء وقال:

- .. سامعين..

سكت الجميع للحظة ليتمكنوا من السماع متوقعين وجود طائرة ، قبل أن يقول الأصلع فى حدة:

- هايدى سيارات.. لاند روفر..

كان هذا مريباً، فهم قد إبتعدوا عن الأسفلت لمسافة معقولة لتسليم السلاح، وقال إسماعيل:

- جايين من شاننا، يلا بسرعة ع السيارات..

إنتفض الواقفون فجأة مع صياحه المفزع، وإندلعت فيهم قوة محمومة فإنطلقوا نحو السيارات، وإندفعت منة داخل السيارة الأخيرة تبعها الأصلع ثم رجل آخر في مقعد السائق، وأخذ الأصلع يلملم الكاميرا والعدسات داخل الحقيبة بينما السائق ينطلق في حدة خلف السيارتين الأخريين، ونظرت منة نحو الطريق خلفهم لترقب بروز خمس سيارات لاند روفر فعلاً كما قال الأصلع.. ولم تتمكن مع إهتزاز السيارة وإبتعادها المضطرد من تمييز هوية ركاب السيارات أو نواياهم .. لكنهم ساروا خلف قطيع السيارات الثلاث، فشهقت وهي تقول:

- عم يتبعونا.. بيسيروا خلفنا..

أغلق الأصلع حقيبته السوداء وإستدار للخلف فجأة ثم قال:

- عندك حق.. فينا نفل بسرعة..

إلتفت من جديد نحو السائق ليحثه على الإسراع، فأسرع السائق من سرعة السيارة فعلاً ولكن السيارات المطاردة كانت أقوى، فظلت المسافة تقل بلا إنقطاع، وسرعان ما ترامى لمسامعهم دوى أعيرة نارية، وقبل أن يرنو الاصلع خلفه من

جديد سمع صوت شرخ حاد، وتحطم الزجاج الخلفى للسيارة فى مكانه مكوناً شبكة عنكبوتية مرعبة، فقالت منة للسائق فى هستيريا وهى تنحنى لأسفل لتتفادى الطلقات:

- سرع من شان الله.. سرع...

بينما أسقط فى يد الأصلع، فإضطر لسحب مسدس كبير من جرابه ليرد إطلاق النار.. وحاول إخراج رأسه من الزجاج فى بطء وهو يراقب السيارة التى تطاردهم، ورأى رجلين يطلقان النار عليهم فى غزارة، ولكن تعرجات الطريق الرملى كانت تحول دون إصابات محكمة، فأصابوا جسم السيارة فى مواقع غير قاتلة.. ولكن الزجاج شبه المهشم نال طلقة أخرى فتكسر آلاف القطع، وسقط على رأسيهما، فصرخت منة فى خوف، بينما خرج برأسه من النافذة وهو يحاول التصويب.. شعر بالألم الحارق يخترق ساعده، والدماء تتفجر أمام عينيه، فكتم على أسنانه بقوة.. لم يكن معتاداً على إطلاق النار ولا الإصابة بها، لذا لم يكن غريباً أن أصيب بعد إطلاق أولى طلقاته.. أمسك ساعده مفلتاً المسدس الذى طار من النافذة، وترنحت رأسه تحت ثقل الألم المفاجىء الحاد، وزاغ بصره للحظة كانت كفيلة بأن يصير رأسه هدفاً واضحاً لراكبى السيارات الخلفية.. ورأى بطرف عينه أحد الرجال يصوب بندقيته نحوه، ولكن قبل أن يتحرك، جذبه ذراع قوى لأسفل فسقط تحت المقعد، وإستقرت الرصاصات فى ظهر مقعد السائق غزيرة.. وشم رائحة الدماء وعطر منة تفوحان أسفل

المقعد، وصار وجهه ملاصقاً لوجهها الذى رفعته نحـــو مقعـــد السائق متسائلة فى صراخ :

- .. هو أنصاب وللا شو؟

تمالك نفسه من الألم أخيراً، ورفع عينين غير زائغتين لينظـــر من أسفل نحو ظهر مقعد السائق المرصع بالرصاصات - حيث كان رأسه منذ لحظات - وعجز على أن يرد عليها، و قبل أن يفتح شفتيه ليخبرها بأنه لا يدرى، مالت الـــسيارة فى عنـــف فإرتجا فى مكانيهما، وزادت أصوات الرصاصات المنطلقة عليهم حدة وإرتفاعاً فظنا للحظة أن سيارتهما قد تعطلت.. ولكنـــها إندفعت مائلة من جديد، وإبتعد صوت الطلقات فجأة حـــتى إختفى فى خضم أصوات إنزلاق عجلات الـــسيارة الحـــاد .. وسقط الأصلع فجأة من جديد بظهره على جانب الـــسيارة ، فمد يده المصابة ليستند عليها - بحركة لا إراديـــة - ووقـــع بجسمه كله على مكان الإصابة فصرخ فى حـــدة .. وقبـــل أن يعتدل، سقطت عليه منة بثقلها وهى تصرخ فى رعب، وإنغرس جسمها فوق جسمه فشعر بألم رهيب من الإصطدام القـــوى ومن ساعده الممزق الذى صار تحتيهما .. وفى ثـــوان غامـــت الدنيا عن عينيه.. والسيارة تهوى بسرعة كـــبيرة متدحرجـــة وكأنما تغوص فى قلب حفرة سوداء واسعة، إلتهمته حتى صار لا يرى شيئاً... ولا يسمع شيئاً..

***

أنهى نجيب مروره الصباحى الروتينى على عنابر المستـــشفى المكسوة بحرارة الشمس المتقدة وغبار الصيف، وإنتـــهى مـــن تدوين الملاحظات التى أملاها عليه الطبيب فى ملل، ثم مـــضى نحو الرواق الذى تنتهى به العنابر فى هذا الطابق، وترك البالطو الأبيض المبقع يكسوه بالمزيد من العرق حـــتى نهايـــة الـــرواق الكبير، فلم يخلعه إلا حينما بلغ غرفة الممرضـــين العموميـــة .. وأنس إلى المكتب الواسع الذى يجلس عليه مع ثلاثة ممرضـــين أخرين — لم يكن أحدهم موجوداً فى هذا الوقت .. و أخـــرج من أحد الأدراج رواية مجعدة الأطراف، فإسترخى على المقعد الجلدى محدقاً فى النافذة الواسعة التى ترمى إليه الشمس دفعـــة واحدة، وإلى قطع الخيش الممزقة التى أستخدمت لمحاولة تغطيـــة هذه النافذة بعدما إنكسر مصراعيها منذ زمن غير معلـــوم... وبدأ يقرأ...

كان أمامه ساعتين على هذا الوضع يقضيهما بين القـــراءة والتجول بين الأروقة حتى مقصف المستشفى الفقير، والصيدلية العامرة بممرضين من زملائه حتى يأزف موعـــد أول دواء لأول المرضى، بحسب ما كتبه خلف الطبيب الـــشاب .. فمعظـــم المرضى هنا كانوا من جرحى الحرب الإسرائيلية التى تطحـــن لبنان منذ شهر تقريباً، وهؤلاء لا يحتاجون أدوية دورية مثلمـــا يحتاجون لجراحات عاجلة وعناية مركـــزة، قبـــل أن تـــستقر أحوالهم الصحية وينتقلون إلى العنابر الإعتيادية ليداومون علـــى تناول الأدوية.. كانت المستشفى توفر الجراحـــات بـــصعوبة،

والأدوية بصعوبة، وذكره مستوى العلاج فى تلك المستشفى العريقة بالقرن السابع عشر.. حيث فقر الإمكانيات والتكنولوجيا الشديدين، و لم يكن هذا تقصيراً من المستشفى .. فبسبب كون هذا المكان يقع ضمن المناطق التى لم ينقطع عنها التيار الكهربى حتى الأن — وبسبب قربها أيضاً من الجنوب — صارت تلك المستشفى من أهم منافذ إستقبال الجرحى، وصارت المستشفيات الكبرى الأخرى حتى بيروت نفسها، تحاول توفير الأدوية و الاطباء الجراحين وأجهزة الإنعاش لتلك المستشفى الصغير...

وبدلاً من غرفة العناية المركزة الأصلية الموجودة فى الطابق الأرضى، إمتد طوفان العناية المركزة حتى إضطروا لإستعمال ثلاث عنابر كبيرة — بعضها غير معد لذلك طبياً — لتصير كلها عناية مركزة ! .. مستشفى صغير جداً، ومدينة ملقاة ناعسة على شاطئ البحر المتوسط .. هما ما إستطاع نجيب أن ينالهما خلال أيام أربع بتلك السرعة ... بعدما قرر أنه لن يرى سمرائه الساحرة مريم من جديد، وظل يبكى طيلة الفجر على الجبل الأخضر حتى هدأت نفسه وسلم إلى رجال المقاومة الذى يتعامل معهم بين الحين والآخر الحقيبة و الأوراق الذين إستلمهما من الشيخ حسين فى الليلة ذاتها.. إستقر عقله على أن يرحل من هذا المكان، وأن يعمل فى فرع آخر من فروع الأونروا المتشعبة فى كل مكان.. و سبحان الله!.. ما إن بلغ قريتهما التى إنهدمت بعد بداية الحرب بأيام قلائل، والبيوت

القليلة الباقية فى شرقى القرية التى صارت تضم كل القرية رجالاً وأطفالاً ونساءاً .. حتى صارحته أمه بما كانت تعتزم على قوله له.. سيرحلون جميعهم عن القرية.. !!

قالت له هذا وهو يغير ملابسه.. دخل إلى مترل الشيخ على حامد - الذى صار مترل ربع سكان القرية تقريباً - فى الصباح ، ومعظم قاطنيه نيام، كانت الصالة تعج بالرجال النائمين على الكنبات و المصاطب، والنساء تنام مع الأطفال بداخل الغرف .. ذهب ليغير ملابسه فى الحمام وأتت أمه عاليا ببدانتها البسيطة لتكلمه فيما يشبه الإرتباك.. قالت له أولاً:

- .. أهلين نجيب.. ليش رجعت وش الصبح ؟، كنت قلقانه عليك ..

إبتسم إبتسامة باهته، وقال وهو يطوى ملابسه :

- معلش.. بتعرفى بعد الشغل رحت أجيب سلاح من الشيخ حسين.

- ربنا يوفقك يا بنى .... كنت بريد أكلمك فى شغله هيك !

- .. خير إنشالله.

قالت وهى تعقد ذراعيها أمامها فى حركة متوترة:

- إتفقنا أنا وخالتك سماح وكل العالم بالقرية انه فينا نفل..

نظر لها فجأة وتوقف عن طى بنطاله بين يديه ... فأكملت:

– إحنا هيك تقلنا كتير على شيخ علـــى .. وصـــار فينـــا نشوف حالنا.

نظر لها ملياً فقدرت أنه غاضب من فرارهما من القرية، كان الإتفاق الذى إتفقوا عليه حين هدمت القرية ولجأوا إلى المنازل السليمة ألا يخرجوا من قريتهم مهما كان الثمن .. وأن ينتظروا حتى تنقضى محنة الحرب فيعيدون ترميم وبناء القرية بـــالجهود الأهلية أو بمساعدة الوكالات والمنظمات المختصة بتقديم العون للأهالى.. ولكن الظروف فى تلك المرة كانت قاســـية جـــداً، والحياة على شفا الخطر ليست شيئاً ممتعاً.. حتى سماح المعروفة بين نساء القرية ببسالتها الموروثة عن أهل مـــاتوا علـــى أرض الجنوب ما كانت لتتحمل هذا، لهذا صارحت عاليا إبنها ويدها على قلبها من ثورته أو غضبه، و لم تتوقع أن يقول لها بـــساطة وهو يكمل طى ملابسه:

– .. وعرفتو على وين بدكو تروحوا.

– لا لسه ما عرفنا...

قالت بشفاه مترددة وهى تحاول أن تخمن مشاعر ولـــدها، الذى قال بلا اى إنفعال:

– بدبر شي لينا، وبعدين بخبرك ع طول.. وبدبر شي لخالتي سماح وبنتها معنا.

.. وذهب فى اليوم التالى – بعدما نام يوماً كـــاملاً – إلى أحد أصدقاءه فى المقاومة اللبنانية، لم يكن نجيـــب فـــدائياً ولا

محارباً.. ولكنه كان على صلات وثيقة بالكثير من جنود حزب الله، وجنود المنظمات والأحزاب والجمعيات الأخرى .. فكان يعوض عدم دخوله فى حروب مباشرة أو معسكرات تدريب، بسعيه للعمل فى الأونروا، وأيضاً بتقديمه لخدمات متفرقة لأصدقائه من المقاومة مثلما ذهب ليستلم تلك الحقائب من الشيخ حسين .. العضو المعروف فى حركة حماس، وأحد أقطاب المقاومة الفلسطينية .. وأبو مريم .....!

– أهلاً فيك نجيب، شو حالك ؟ وشو حال مينا والوالدة تبعتك؟

استقبله ذلك الصديق بإبتسامة وترحيب معهودين، لم ينجحا فى إزالة توتره وهو يفكر طيلة الطريق فيما إذا كان يجب عليه أن يرحل أم لا، وعما إذا كان سيذهب لفرع أخر فى نفس مؤسسته أم لا.. تجاوز تلك الأفكار وهو يقول:

– بخير نحمد الله .. شو حالكم انتو يللى عم بتقاتلولنا ؟!

– تمام.. تمام، هانت، وكلها كام يوم ويصدر قرار الأمم المتحدة.

مال نجيب على مقعده وهو يقول:

– أنا سمعت أنه كان فى مشروع مقدم من أمريكا لوقف النار ..

رد الصديق:

- إيه.. إيه ، وإنرفض .. لأن كان بدو القــوات الدوليــة تحارب فى لبنان، أمريكا بدا تدخل لبنـــان مثـــل العـــراق .. والمشروع إنرفض بس صار فى مشروع جديد..

- يا رب يتم على خير ، كل يوم فى ناس عم تنقتل واحنا ما بنتحمل كتير ..

لم يرد الصديق، بل رماه بنظره طويلة بلا معـــنى .. وقـــال بعدها:

- خير.. سمعت أنه بدك يانى ساعدك فى شغله ؟

- إيه..

أومأ نجيب برأسه وقال وهو يحاول أن يستشف إذا ما كان صديقه قد غضب أم لا، ولماذا؟:

- .. بدى ياك تشوفلى شغلانه بعيد عن هون .

قال الصديق مهتماً:

- بعيد عن وين؟

- .. عن القرية، وعن مؤسسة اللاجئين الفلسطينيين .. فى أى مكان.

- ليش؟

- القرية إتشلعت، وناويين نفل بأسرع وقت..

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. وأهل القرية كلياتهم بخير..

غاب نظر نجيب فى فراغ الحجرة، و لم يحر جواباً .. فقـــال الصديق:

- أنا بعرف أنه معك شهادة بالتمريض .. بـــدك تـــشتغل ممرض؟

كان قد حصل بالفعل على شهادة فى التمريض منذ أربـــع سنوات، من خلال بعثة أرسلتها المؤسسة إلى الأردن فى إطـــار برنامجها لتدريب العاملين فيها، فقد كانت المؤسسة تتحسب أن يحتاجوا للممرضين فى حال نشوب أية أحـــداث مفاجئـــة فى فلسطين .. ولكنه لم يفكر قط أن يعمل بتلك الشهادة بشكل مستقل، وقد قارب على نسيان كل ما تعلمه فى تلك الـــدورة .. لكنه قدر أنه سيتعلم بسهولة من جديد ..

- تمام .. ممكن إشتغل بالتمريض، أو بأى شي آخر..

إبتسم صاحبه وقال:

- المستشفى العام بصور بده ممرضـــين ، بتعـــرف إنـــه مستشفى صغير.. وفى ظروف الحرب هـــلأ صـــار بيـــستقبل حالات كتيرة، باقى المستشفيات بتبعت دكاترة لأله تا يقوموا بالعمليات .. لكن ما بيبعتوا ممرضين لأنهم يللى بيراعو العيانين من دون الدكاتره .. شو رأيك ؟

.. وهكذا رحلوا إلى صور ، المدينة الساحلية الجميلـــة .. حياة جديدة، وعمل جديد ومسكن جديـــد .. فى أقـــل ممـــا يتصور كان فى هذا المكان .. تاركاً خلفه فلـــسطين وكأنـــه أسقطها عن كاهله.

.. مريم ؟!!.

يكون كاذباً إن قال أنها لم تشغل تفكيره أو مضت حكايتهما هكذا بلا أثر .. ولكن ما حدث كان بمثابة نهاية قاضية لقصة كانت فى أوجها ، فهو لم ينسى ما جرى فى ذلك المترل المهدم بأسفل التل، ولا وعده الصادق بالزواج منها ورأسه بين طيات أثدائها ، أما ما جرى بعد هذا ما كان يعده من قبيل النذالة من جانبه .. فهى مسلمة، بل وإبنة شيخ جليل سمعته تفوق سنه بكثير بين الفلسطينيين واللبنانين على حد سواء، وهو يعلم جيداً إستحالة زواج المرأة المسلمة من غير مسلم ، إذن ماذا سيكون الحال لو بقى فى عمله ؟! .. ربما يتسبب لها ولأبيها فى فضيحة علنية إذا إستقر عقلها على أن تخبر والدها بكل شيء !.. فضيحة بلا طائل ولا يمكن أن تنتهى بأن يلم الموضوع بأى ثمن .. وربما إذا أخفت عن أبيها السر ظلت تقابله، وهذا هو العذاب المقيم لكليهما .. حتى ولو حبلت منه وهو الأسوأ بين الإحتمالات على الإطلاق ، ماذا بيده ليفعله لها ؟ صحيح سيتركها هكذا لتواجه الناس وحدها بفضيحة إبن أو أبنة بلا أب ! ولكن عودته لن تكون سوى تتويجاً لعلاقة آثمة بلا زواج بعلاقة غير شرعية على غير وفاق مع الدين .. راودته نفسه مرات عدة وهو يفكر على فراشه بعدما يعجز عن النوم بأن يعود لملاقاتها من جديد .. وأن يغير دينه، يشهر إسلامه لكى يتمكن من ملاقاة أبيها لطلبها والزواج منها !! .. ولكن يعود من جديد لحساب العواقب فيجد أن أهله وأمه لن يرضون بما يريد إطلاقاً، ولن يتفهموا ما

يفعله حتى ولو أخبرهم بعلاقته السابقة معها ، وعلى الجانب الآخر ربما لا يوافق أبيها من زواجها برجل حديث العهد بالإسلام ، بل وسيشكك فى إيمانه بأنه فعل هذا ليتمكن من الزواج من إبنته المسلمة.. وسيكون محقاً بكل تأكيد !

فنجيب على الرغم من أنه لم يكن متديناً بشكل خاص ، إلا أنه كان يفعل المعتاد من صلاة وصوم وحضور لدروس الكنيسة فى أوقات متفرقة، بمزيج دافعين من الإيمان المستقر والعادة القديمة .. ولم يكن قد فكر فى دينه ولا الأديان الأخرى إلا إبان مراهقته كأفكار سريعة متطايرة تراود كل الناس ويستعيذ من شرها سريعاً ، لذا فحتى فكرة تغيير الدين لم تلق أرضية صلبه فى عقله لتستند عليها ..

مدد قدميه على كرسى مقابل فى الحجرة المشمسة وهو يغلق صفحات الرواية ويلقيها جانباً على المكتب، اصبح لا يفهم ما يقرأ ويقلب بين صفحات الرواية دون إتمامها ولا يستطيع التركيز حتى فى الأشياء التافهة، مثل الأوامر التى يلقيها عليه الطبيب خلال المرور الصباحى والمسائى .. بدلاً من هذا كانت تجذبه عيون المرضى من أطفال ونساء وشباب، نظراتها مختلفة عما عهد وتشده بعمق نظرة ملتاعة غير فاهمة لما يحدث أمامها، وكأن الطبيب كائناً فضائياً من كوكب بعيد أو ملاك خرج من رحم القدر للعناية بهم .. لا يفهمون لغته الأجنبية المعقدة ولا المصطلحات التى يلقيها لتستقر بآذانهم وتتطاير بسرعة فلا يستطيعون حتى إعادة ترديدها وراءه .. ولا

يفهمون كذلك الأدوية المستمرة التي يتلقونها، لا إسمها ولا مفعولها .. ومع هذا كله تمتزج تلك النظرة بنظرة أمل غريبة تفوح بالشك، أمل كلما ظهر في بداية الحجرة، وشك بعد رحيله .. وعجب أمر المرضى جميعاً بين كل ما رأى في حياته!

دائماً صاحب المهنة الذي نلجأ إليه يكون هو العالم ببواطن الأمور، سواء المحامي أو المهندس أو المحاسب أو أي شيء .. وبالرغم من قدرات المحترف فإننا دائماً نظل على هامش علم ولو طفيف بما سيفعل، والإجراءات التي سيتخذها ولم سيفعل هذا ؟.. إلا الطبيب، معظمنا يجهل ماهية ما يتناوله من الدواء.. تأثيره أو غيره، ومعظمنا يجهل كذلك نواتج الفحوص ومعناها.. كيف يضع الإنسان ثقته في شخص لا يعرفه ؟! ودون أن يعلم أي شيء عن طبيعة ما يفعله ؟.. وبالذات أن الطبيب لا يعمل على مصالح الإنسان أو قضاياه أو أشغاله، بل يعمل على جسمه وحياته..

وجد في عيون المرضى الممتلئة بتلك المشاعر المتباينة أثراً لعينيه وعينيها ، وأسف حقاً لأنهما لا يملكان من يثقسان بـه ويتركا له تولي الأمور، حتى ولو لم يفهما ما الذي سيفعله بهم!!.. يركل الحصى يوماً بعد يوم متجولاً بعد نهاية العمل على شواطئ صور التي كادت تخلو من السياح — أو خلت بالفعل — بعد بدء الحرب ، ويفكر في وجه مريم المتقد بسمرة كالنار وهو يتأمل البحر متخبط الأمواج، حتى يعود لأمه في نهاية اليوم منهكاً ليتمكن من النوم بسهولة.. وياليته..

فعلى الرغم من أنه يعتبر نفسه ليس نذلاً ، بـل مـصيراً فى ظروف قدرية مفجعة .. إلا أنه ما كـان يـستطيع أن ينـام، وتتلاطمه الأفكار فى زحمها حتى يستقبل شمساً جديدة مليئـة بآلاف الأفكار كل يوم .. سلسلة من الأرق لا تنقطع لا بإيجاد حل لمشكلته ، ولا حتى بالتخلى عن الموضوع كله والإنغماس فى عمله بين الأسرة العامرة بالمرضى الذين يتوافدون كل يـوم من أجل أن تكتب لهم بداية جديدة وحياة جديـدة خـارج أبواب المستشفى .

***

كان أول ما رأى من جديد هو الماضى كله، ليس كـصور متعاقبة، ولا كشريط سينمائى كما إعتاد أن يعتقـد .. بـل كصورة واحدة إجتمعت فيها حياتيه ، الأولى التى قـضاها فى الجامعة والحب والمظاهرات والعمل الأمنى السرى الإجبارى ، والثانية التى عاش فيها فى دول مختلفة بأسماء عـدة .. حليـق الرأس تماماً حتى كنى بالأصلع .. صورة واحـدة كأنها مـن زجاج إنغرست فى شرايينه فآلمه جسمه كله وهو يتخيل كيف ما حسب حساب لموت جاءه فى لحظة واحدة لحظة إنقـلاب السيارة وزواغ الوعى والإدراك فوق ذراع مصابة .. ثم ما لبث أن تجمع هذا الألم مركزاً مع صفو تفكيره حتى سقطت الصورة الزجاجية كلها على ساعده فتمكن من تحديد مكان ألمه مـن جديد .. وصفى عقله قليلاً على الرغم من الصداع الجـارف الذى إجتاحه، فتمكن للمرة الأولى من فتح عينيه ببطء فى نور العصر الهادئ .. وقال دون أن يرى أى شيء:

– فيه إيه ؟ .. إيه اللى حصل ؟!

ثم إستند على ساعديه وهو يتأوه من الألم، وتمكنت عيناه من إلتقاط صورة متزنة لحجر كبير جداً تختفى خلفه الشمس مضفية على الغابة لوناً محايداً .. وأغمض عينيه من جديد ليسبح فى عالم اللاوعى قبل أن ينتفض وعيه تحت وخز الحجر العشبى الذى يرقد عليه .. صاح وهو يفتح عينيه من جديد:

– فى حد هنا ؟ .. فى حد لسه عايش ؟

لم يجد أى إجابة فقام على قدميه بصعوبة بالغة، وكاد أن يتحرك لولا أن سمع تأوهاً صادراً من حوله، فرك عينيه وحاول النظر إلى الأفق الممتد فتكونت الموجودات بصعوبة، وأبصر السيارة مقلوبة على جانبها على بعد أمتار .. كانت منة لا تزال حية، ومحشور نصفها فى السيارة ، ما إن لمحته حتى قالت فى وهن:

– .. إنت حى، عم بناديك صار لى نصف ساعة .. إفتكرتك مت !

دون أن يتكلم مد يده وجذبها برفق من مقعدها الخلفى عبر موقع الزجاج الخلفى المحطم للسيارة، وما إن إعتدلت بجواره حتى لاحظ أنها تعرج طفيفاً بقدمها اليسرى .. تركها مستندة على السيارة المقلوبة ، وجلس على ركبتيه محاولاً رؤية السائق .. كان مربوطاً إلى مقعده بحزام الأمان، وخيط من الدماء يسيل من شفتيه متجلطاً .. ربما بسبب عجلة القيادة

الغائرة فى صدره، أو بسبب الرصاصات التى إخترقت مقعده .. كان ميتاً ..

قالت له وهى تغالب دوار كبير:

- شو ؟.. مات ؟

- إيه ..

قام من جلسته، وأدار عينيه فى نور العصر الغائم .. ثم نظر لساعته وقال مندهشا:

- إحنا ما صار لإلنا كتير مغفلين .. حوالى ساعة إلا ربع !

- إيه بعرف .. أنا ما غفلت أصلاً ، إنت من شـــان مـــا وقعت من السيارة ع الأرض أنا حسبتك مت ...

نظر لأعلى المنحدر الذى سقطا من عليه ، وخيل إليه أنـــه سمع أصواتاً من أعلى، فقال :

- هى شنطة المصارى مع مين ؟

- مع إستاذ إسماعيل طبعاً.

زفر فى هدوء، وهو يقول:

- ليش سامع صوت ناس فوقينا ؟ بيدوروا علينا ؟!

نظرت لأعلى بحدة، وقالت:

- عندك حق .. هما ما بيعرفوا إن المصارى منا معنا .. لازم نختبىء .

حدق فى الأعشاب حوله ليتمكن من تحديد مكان للإختباء، إلا أن لمح بين الحجر الضخم الذى أمـــامهم وحجـــر أخـــر

خلفهم، فتحة كهف صغيرة تقبع فى ظلام ظلال الحجرين .. كانت المنطقة التى يجلسون فيها عشبية قليلة الأعشاب، لذا إستبعد وجود حيوانات أو زواحف داخل هذا الكهف .. فمهما كان هم بجوار الطريق الأسفلتى وليسوا فى أحضان الغابة، اشار لها قائلاً:

– فى كهف هونيك ..

سارا فى خطوات واسعة، حينما سطع ضوء كشافات من أعلى المنحدر، ودخلا إلى الكهف المظلم وهم يصغون السمع لخطوات الرجال الذين يهبطون المنحدر على أقدامهم بعدما أبصروا السيارة المقلوبة ، وجلسا فى مواجهة فرجة مدخل الكهف .. جلست إلى جواره، ونظرا نحو المدخل فى توتر .. كان الضوء المرتسم على وجهيهما شاحباً جداً، وإمتلئا بالظلال داخلياً وخارجياً ، وطفقا ينتظران .. سمع الأصلع الخطوات التى تبحث فى الخارج، وسباب الرجال المقذع عندما إكتشفا جثة السائق، فمن الواضح أنهما قد تعرفا عليه .. وأدرك غبائهما من الإختباء فى هذا الكهف الذى سيكون بالتأكيد أول مكان للبحث فيه، ولكن الضوء الذى يخفت بإستمرار إيذاناً ببدء غروب الشمس ساهم مع ظل الحجر الكبير فى إخفاء مدخل الكهف .. وما إن إبتعدت الخطوات حتى قامت منة من مكانها وهمت بالتحرك ناحية الضوء القادم من مدخل الكهف، ولكنه أمسكها من يدها بحدة، وهمس بفحيح:

- إنطرى هون .. ممكن يشوفوكى من فوق .

فأفلتت يدها وهى تقول بعصبية:

- مش خارجة .. بس هاقعد قرب المدخل.

وتحركت حتى جلست بجوار المدخل، فهم ليجلس بجوارها وهو يحاول فحص ساعده المجروح بالرصاصة .. رفع عينيه فوجدها تنظر محدقة إليه، يرتسم الضوء الأزرق على جوانب وجهها .. مسربلة بغموض عنيف هزه من داخله، ودفعه لأن يتحدث إليها مباشرة :

- مين هاودى الزلام ؟

ضحك جانب فمها الأيسر دون أن تتحرك ملامح وجهها، وقالت فى تهكم:

- كأنى أنا بعرف ..

وغامت عينيها فى أجواز المكان حتى حدقت بالسقف قليلاً، منظر الصخور الناتئة المتدلية من ظلمة الكهف حفر فيها نوعاً من الرعب، فلفت وجهها من جديد .. ولكنها فوجئت بعينيه تحدقان فى وجهها بثبات !! .. لا يصدق ردها ، وقال على الفور:

- ما بصدقك .. إنتِ بتعرفى مين هاودى الرجال بيكونو .. وشو بدهن فينا .

لحظة قصيرة من الصمت، ثم قالت بحدة وهى تبلع ريقها:

– أنا كمان مابصدقك .. وساكتة لإلك إنت وعم تكدب علي، أنت منك شامي .. لا سوري ولا لبناني ، ليش بتتصنع ها اللهجة ؟ ... انا سمعتك بتتكلم قبل ما ارد عليك ، أول ما وعيت ..

– ما إلك دخل ؟ إنشاله كون هندي ، هايدا منه بالإتفاق.

– وهايدا كمان منه بالإتفاق ، وما إلك دخل شو بدن ها الزلام .

أدار وجهه للناحية الأخرى في قرف ، هكذا كان يتوقع منها .. عدم تجاوب منذ البداية ، مد يده في جيبه وقد تذكر هاتفه الخلوي الذي يعمل بنظام القمر الصناعي ، ربما يستطيع أن ينقذهما .. عبث بجيبه حتى خرج الجهاز في يده مهشماً بالطبع .. يتوسط شاشته شرخ كبير يمتد حتى لوحة الأزرار .. نظرت له بلهفة حينما أخرج الجهاز .. ولكنه سرعان ما طوحه بعيداً عنهما .. هما الإثنين واقعان في خطر الضياع ومطاردين من قبل جهة لا يعلمها ، ولا تخبره حتى بما تعرف عن ماهية تلك الجهة .. أي صلف وغرور هذ ؟ شعر بوخز حاد من جرح ساعده ، إشتد عليه خلال النصف ساعة المقبلة شيئاً فشيئاً .. بدأ العرق يتفصد من جوانب وجهه، وضاق صدره بالأنات فأخذ يأن من بين أسنانه .. ألم ممض وقاتل على الرغم من أن الجرح يبدو صغيراً في ظاهره ! يمتلك بحكم عمله خبرة طبية قد يتمكن بها من مساعدة نفسه ، ولكن هذا الألم

لا يسمح له بالتحرك والمداواة .. فقط يسترخى بظهره على حائط الكهف ويحاول إمتصاص أكبر قدر من مجهوده بالتدريج.. سحقاً !! ..

وجد يدها فجأة تحيطان بساعده المصاب، وسمع صوت تمزق كتف قميصه فرفع عينين مغرورقتين بالدموع والعرق نحوها .. كانت تعمل دون أن تنظر له، أخذت تستخدم قطعة القماش الممزقة فى تنظيف الجرح قبل أن يلتئم هكذا .. وحاولت بعينيها وأصابعها أن تدرك إن كانت الرصاصة ما تزال بالداخل أم لا .. ثوان قليلة ورفعت وجهها إليه ، كانت مكتسية بصرامة وجدية حادين .. وقد إنخلع قناع البسمات الآلية التى كانت ترتديه دوماً .. لم يدر لماذا لم يشعر نحوها بالنفور فى تلك اللحظة ، أهو رد فعل طبيعى لأنها تعالج ساعده ؟ أم أن تلك الصرامة فعلاً جعلتها أكثر آدمية وقابلية للتعايش ؟!..

قالت له دون أى إنفعال:

- بدى جيب الإسبراى تبعى، هو موجود بشنطتى فى السيارة ، وبالمرة شوف إن كان الموبايل فيه شبكة هون ..

- حالاً ح اجيبه لإلك .

قام على قدميه فى صعوبه وخرج ليحضر حقيبتها ، كان المغرب قد اشتد ظلامه بالخارج ، واصبحت الرؤية عسيرة خاصة مع غياب القمر وإرتفاع الصخور حولهم .. بحث بحثاً مضنياً حتى وجد الحقيبة ملقاة بين الصخور إلى جوار السيارة،

وكل ما فيها مبعثر على الأرض ، بعثره الرجال الذين يبحثون عنهم بالتأكيد اثناء تفتيش السيارة بحثاً عن شيء ما ! .. أخــذ يلملم كل شيء بداخل الحقيبة من جديد وهو يحاول أن يتوقع ما قد يكونه هذا الشيء الذى قــد يوجــد فى حقيبــة يــد نسائية؟!.. بالتأكيد أوراق ما ، ربما تتعلق بالصفقة التى كــانوا يجرونها .. وبالتأكيد وجدوا ما كانوا يبحثون عنه لو كان فعلاً معها .. وإلا فلماذا لم يجد أى أوراق بجوار الحقيبــة بخــلاف بطاقتها الشخصية وبعض الكارنيهات ورخصة القيــادة ؟! .. رفع بطاقتها فى النور الضعيف القادم مــن الــسماء وحــاول قراءتها...

منة عبد القادر الشافعى .. لبنانية !!! ..

ليست سورية إذن ! .. ياللغرابة .. إنها سكرتيرة المحــامى الفلسطينى إسماعيل المروان ، ومع ذلك ليست فلــسطينية ولا سورية ؟! .. وجد الإسبراى ملقى علــى الأرض فأعــاده إلى الحقيبة .. لكنه لم يجد التليفون .. ربما أخذه الذين فتشوا المكان ظناً منهم بأن عليه رسائل أو معلومات قد تفيدهم ، وذهــب إلى الكهف ذى المدخل المظلم .. راودته فجأة فكرة ما .. إذا كان ما يبحث عنه الرجال الذين أتوا خلفهم يقبــع بــداخل الحقيبة أو التليفون المحمول، ما كانت تركته ليذهب ويحضرها بنفسه .. حتى لا تعطيه فرصة التفتيش .. إذن الــشيء الــذين يبحثون عنه لا يزال معها، أو هو مع إسماعيل منذ البداية !!..

دلف إلى الظلام فوجدها جالسة فى ركن بعيد، منطوية على نفسها وكأنها تبكى .. رفعت إليه وجه شاحب تماماً .. فقال فجأة :

- شو صار.. ؟

مسحت دمعتيها بجانب يدها وقالت فى صوت مرتجف:

- الدنيا مضلمة ..

- إيه .. الساعة صارت ثمانية ، شو معنى هايدا ؟

- .. أنا..

تمتمت بخوف وإرتجفت شفتيها، ثم قالت:

- ... أنا عم خاف م العتمة..

فجرت كلماتها مفتاح أعصابها، فإنهمرت دموعها الخائفة متواترة ، ذهل من التغيير الذى طرأ عليها، وجلس إلى جانبها، فإلتصقت به بشده ، وإمتدت يده حولها ليشعرها بالأمان وهو يربت على كتفها المرتجف من الخوف، اراحت رأسها قليلاً على صدره وبدأ بكائها يهدأ وكفت عن الإهتزاز .. تناولت منه الحقيبة وأخذت تبحث عن الزجاجة بين الأوراق، ثم رشت منها قليلاً على الجرح وأخذت تنظفه بقطعة القماش ، ثم ربطتها حول الجرح بشكل بسيط .. وإسترخت تماماً فى جواره.. بينما إرتخت عليهما عباءة الليل وهما متلاصقان هذا الشكل .. مضى وقت طويل بدون تبادل أى من عبارات الحديث .. فقط إمتدت يدها للحظة على وسطه ثم تراجعت

ثانية .. وبقيا هكذا مستندين على حائط الكهف فى سكون تام لبرهة من الوقت، متداخلين تماماً حتى ظن كلاهما أن الآخر قد نام من التعب والإعياء ..

أصبح الظلام دامساً، غلالة سوداء سميكة وكأنها أستار المسرح قد إنسدلت فوقهما تماماً .. لا شيء يشعران به سوى ثقل إستناد أحدهما على الثانى، والصمت .. الذى صار له طنيناً يصفر فى الآذان من مدى طوله ، كان يمكنهما الخروج إلى العراء خارج الكهف .. ولكن المطاردين قد يعودوا فى أى لحظة حال إكتشافهم أن ما يبحثون عنه ليس معهم ، وأيضاً سيتعرضان للبرد القارس لليل الصحراء على الرغم من أن فصل الصيف لم يبتعد ، أو قد يتعرضان للحيوانات التى تخرج فى الليل .. لا يهم حقاً ! .. المهم أنهما لبثا ساكنين دون أن يفكر أحدهما فى الخروج.

إخترق صوتها السكون فجأة بنبرة هامسة، وقالت بصوت خافت .. وكأنها تخشى من أن يجرح صوتها ستار الصمت والظلام المحيطان بهما:

– أنا خاينة .

لم يتكلم، فأتبعت بصوت أعلى قليلاً:

– أنا عم خون بلدى .. أنا وإسماعيل المروان.

تحرك رأسها المستند على صدره ، وشعرت بإهتزاز الصوت فيه وهو يقول:

– كيف ؟! إنت لبنانية ؟

– إيه .. وعم خون لبنان .. بس ماعرفت هيك إلا من شى كام يوم، من بعد ما طلبت الشركة اللى بشتغل فيها إنى كون سكرتيرة إسماعيل المـــروان فى هايـــدى الـــصفقة... عرفـــت وماقدرتش أقول لا ..

تنهدت وهى تتذكر موقفاً وجب أن تقول فيه لا، ولكنـــها قالت نعم .. وتسترجع الأسباب :

– كنت محتاجة للمصارى بدل السفر .. كنت عم خـــاف أترفد م الشغل .. ما بعرف !

صمتت للحظة ، ثم قالت بدون أى تعبير:

– إنت منك لبنانى .. صح هيك ؟

– أنا ، أنا منى لبنانى متل ما قلتى ..

سرحت عيناه بعيداً جداً برغم الظلام .. رأى سنوات مـــن عمره إنقضت بعيداً، وماتت على شفا قبة بيبى خاتون فى لقاؤه الأخير مع الضابط .. حتى عندما كان يرجع إلى بلـــده بـــين العمليات وبعضها ، ما كان يراها بعين الماضى .. كان يراهـــا بعيناً جديدة .. بحث عن صورها مراراً فى عقلـــه ، ولكنـــها كانت غير موجودة .. خيالية فى الأصـــل أم تغـــيرت ؟!! الله أعلم.. بالتأكيد هو الذى تغير ، وما عاد مثلما كان قبلاً ..

– عندك حق ..

قال لها :

– تعرف، أنا بلدى دى جميلة جدا.. شوارعها كلها خضرا و عماراتها دايماً نضيفة والناس على وشها إبتسامة جميلة بترحب بأى حد ف أى وقت، والكل معاه فلوس وتحسى إن ماحدش عنده مشكلة .. أو أنا شايفها كده ، من زمان، من ساعة ما سبتها ..

إبتسم إبتسامة قصيرة المفعول، تركت جرحاً بداخله .. ما هذه الصورة التي يرسمها، أحقاً يرى بلاده هكذا ؟ .. صورة بلهاء ولا علاقة لها بالجمال الحقيقى ، صورة ما كانت يتوقع أن تخرج من عقله، وهو شاعر كبير كتب مراراً فى وصف كل شيء جميل .. أحقاً يري الجمال فى زينة الشوارع وبسمة الناس.. زاد الجرح عمقاً وغوراً مع إزدياد تفكيره ، شعر بغربة رهيبة ما شعر بمثلها من قبل .. يكذب ليجمل صورة ليست بحاجة للتجميل ..

– أنا كدبت عليكى .. شوارعها مش خضرا ولا حاجة دى مغبرة صيف وشتا ، والناس مش مبسوطين .. ده شكلهم فى الشارع زى اللى ماضحكش طول عمره .. وعندنا حكومة ظالمة وناس مظلومة طول الوقت.. وكل يوم بتفتقر أكتر م اليوم اللى قبله... سبت البلد علشان مش عايز أرجعلها تانى ، كرهتها مع إن أنا من عيلة غنية ، لأن كل اللى كنت بشوفه مع الناس كلها كان بيكرهنى فيها ... بس اللى انا ماكدبتش عليكى فيه.. إنها جميلة قوى وإن انا لسه بحبها..

إنتقلت مرارة الحديث من روحه إلى عينيه، وقال والدموع تتحسس طريقها :

– أحلى حاجة فى بلدى ، إنها مافيهاش حرب .. بجد ، إنتى ماتعرفيش الحرب دى قد إيه بتبوظ حاجات كتير قوى جـوه الناس .. من غير حرب بتلاقى الناس عايـشة فى بـساطة ، لا إنت عايزة تبقى مع حد ولاخايفة من حد .. بيتهيألى إنى بعـد ما شفت الحرب فى كل مكان مابقيتش من البلـد دى .. لـو رجعت تانى مش هاعيش عيشة الناس اللى هناك .. هـاعيش عيشة الحرب...

تنهد تنهيدة عميقة طويلة، وفتحت هى ملف روحها مـن جديد قائلة:

– ياريت كنت قدرت أحدد أنا مع مين وخايفة من مين ! أنا كنت مع الجماعة الغلط وكنت عارفة وساكته !!

– إنت عارفة مين اللى كانوا ماشيين ورانا ؟!

– هاودى الزلام .. كان بدن العقود تبع الصفقة وشـريط الفيديو، باعتينهم ناس من لبنان ..

– لبنان .. مش هما اللى كانوا بيستلموا الصفقة من لبنان ؟

– لا .. هاودى عالم غيرهم ..

– وعايزين ليه شريط الفيديو والعقود ؟ هايقدموها لمين ؟

– انت ما بتعرف شو هى هايدى الصفقة .. معقـول ؟! إنت ما بتعرف فى شو بيشتغل إسماعيل المروان ؟ هايدا الرجـل سمعته وسخة .. والشغل تبعه معروف ..

صمت من جديد ، لقد قرأ بالفعل فضيحة إسماعيل المروان فى الصحف الفلسطينية منذ أعوام قلائل ، ولكنـه لا يتـذكر التفاصيل .. مجرد صفقات مشبوهة لتـهريب الأسـلحة مـع جهات أجنبية ، والموضوع كله إنتهى فى وهلة واحدة .. التأم بسهولة تامة وكأنه لم يكن ، داوته أموال الشخص أو الجهـة التى أخرجت إسماعيل من خلف القضبان ليواصل نشاطه .. لذا لم تعلق أى تفاصيل بذهنه لأن القضية أصلاً إنتهت أحداثها فى إسبوع واحد ..!!

- مش عارف .. متهيألى سلاح للمقاومة فى لبنان ؟!

- لا .. مش أى سلاح ..

قالت فى لهجة إعتراف ملوثة حتى أخمصها بالخطيئة ، وتوقع التالى بسهولة تامة..

- .. هايدا سلاح محرم دولياً ، رؤوس كيميائية وبيولوجية وإشيا متل هايدا، تفتكر يعنى ليش طلبنا منك تصور كل شـى بداخل الشنط إن كان سلاح عادى ؟!

تباً .. من جديد أدخل رأسه فى الحلقة الجهنمية المفرغة لمـا هو يجب عليه دينياً أو سياسياً .. قرر أن يكون لا علاقـة لـه بالسياسة ولكنها تجذبه إليها فى كل عمل بـشكل أسـوأ .. أسلحة محرمة !! يطلق عليها مجازاً إسم دمدم .. إلتقى بها مـرة واحدة فى إيران فى إحدى عمليات الإغتيال ، كان النوع الذى رآه فى تلك العملية كيميائياً .. كان يجلس بجوار القاتل الـذى

يحشو بندقيته ودخان الطلقات المتبادلة بينـــه وبـــين رجـــال الشخص المراد إغتياله يغلف كل شـــيء .. خرجـــت تلـــك الرصاصات من عبوة بلاستيكية لامعة، وكأنها ماسات نادرة ، وحشا بها البندقية ونظر من خلال الفتحة .. إنطلقت الرصاصة مخلفة المزيد من الدخان فى الهواء وأصابت الهدف المـــذعور فى قدمه... لقد أخطأه إذن ! .. ولكن .. إنتفض الرجل فجـــأة وهو يتحسس قدمه، ثم تحركت عيناه المفزوعتين على جـــسده أمام عدسة كاميرا الأصلع، لم يصدق نفسه فى البدء وهو يتطلع من خلال الكاميرا لما يحدث .. كان الرجل ينتفض مفزوعـــاً، وسقط مسدسه من يده، وفى خلال ثوان كان قد رقد علـــى الأرض منتفضاً .. ثم بدون حراك .. ترك الأصـــلع الكـــاميرا لتسجل كل هذا وإلتفت مترعجاً إلى القاتل، فوجـــد عينيـــه تلمعان بشده وعلى فمه تكونت ببطء إبتسامة ثقة قوية ..

- اللبنانيين بيستعملوا أسلحة متحرمة دولياً ؟!

إقشعر بدنه فى عنف على منظر الرجل الساقط فى إنتفاضات متفرقة وقد أصابته رصاصة فى قدمه ، ونقله ذهنه إلى مـــشهد أشد ضراوه .. الصبى الصغير الذى رآه فى الطريـــق صـــباحاً وإبتسم له ، يقدم له الموت بيده ويبتسم له باليد الأخرى .. هز رأسه فى عنف ليطرد المشاهد المخيفة من قلبه ، وترقرقت عيناه بدموع صامتة إخترقت السواد الذى يحيط بهم .. لعن الظـــلام الذى يغلفهما .. مسرحاً عالى الكفاءة لكل الأفكار الـــسوداء والمشاهد المستقطبة من أطراف الذاكرة ، ظلام يحـــيط بكـــل

شيء ، فلا يستطيع تحريك عينيه ليفلتان من تلك المـــشاهد فى أى إتجاه .. ظلام لا تمنعه حتى الدموع التى لاحت على أطراف مقلتيه ..

- هناك فى لبنان .. ؟!!

صاحت منة فى عنف وهى تشهق:

- إفهم على بقى .. عم قلـك مـــش همـا يللـى عـم يستخدموها، هايدى الأســـلحة غاليـــة وخطـــيرة جـــداً .. والإسرائيليين وحدن هما اللى بيضربوا بيها ..

- يعنى إيه ؟

سمع صوت نهنهتها يعلو فى المكان ، تبكى !! وقالت من بين دموعها :

- هايدى الصفقة بين مؤسسة سلاح دولية ونـــاس مـــش لبنانيين ، بس كل ها العقود والتسليم بيظهر أنهم لبنـــانيين .. ومن شان هيك بنصور الشريط اللى عم يستلم فيه اللبنانيين من سوريا أسلحة محرمة دولياً ..

بلعت ريقها ثم تابعت:

- بتعرف الحرب بدها تنتهى عن قريب ، وقـــرار مجلـــس الأمن هيصدر ... وإسرائيل عم تستعمل أسلحة مثل هيـــك ، بتعرف بعد الحرب بتيجى الأمم المتحـــدة ومجـــالس حقـــوق الإنسان وبيحاولوا مهاجمة إسرائيل .. هايدى الصفقة الصورية والشريط إسرائيل بتقدمه تا تثبت إن اللبنانيين بيستعملوا هيك أسلحة إجت من سوريا وإيران ..

إرتجف جسده وهو يفكر فى تلك الحقيقة المفزعة، وغزا الفهم عقله فى لحظات قليلة .. شامل مروع جرف كل شىء أمامه بحيث أصبحت لا ذكريات ولا صور ولا أى شىء ، إسرائيل تحاول تشويه صورة لبنان ومقاتليه بتلك الصفقات .. لعبة قذرة للجماية من يد العالم كله، وللتفاوض حولها على الموائد السرية أثناء الحرب ، بدأ يعرف حقيقة تورطه، وإنه على الرغم من نيته فى الإبتعاد عن السياسة صار طرفاً فى خيانة وطنه قال لها وهو يحاول إتمام فهمه :

- .. واللبنانيين اللى كانوا بيطاردونا ..

قاطعته:

- .. هما رجال المقاومة اللبنانية ، وبيريدوا الشريط والورق تبع الصفقة .. بمعنى تانى ، هم الرجال اللى عم بيخدموا وطنهم، ونحنا هيك عم نخدم إسرائيل .. معقول ما بتعرف إسماعيل المروان ؟!! هايدا الرجل ولائه كله لمصارى إسرائيل .. هم اللى خرجوه من قضية كان هينحبس فيها طول عمره .. وهم اللى رجعوله شغله ومصاريه من جديد .. ومن ساعتها وهو راجلهم، وبيعمل صفقات كبيرة لإلن فى فلسطين وغيرها..

ثم أردفت فى كلمات حادة دوت فى أرجاء الظلام الذى بلغ منهم مبلغ الروح قائلة:

.. مجندينه لإلهم ، لكن إسمه عربى وفلسطينى ، هيك هى لعبتهن ....

***

الفصل الثاني عشر

بين الأسرّة المقتولة .. سرير حي

لو أن الحياة صارت أكيدة لا تقبل الشك لتبددت كل المتع البشرية ، أو على الأقل القائم منها على الأمل ، فالشك هو اللعبة الوحيدة التي تتيح لجميع الأطراف أن يظل سعيداً بغض النظر عن النتائج التي يصل إليها هذا الطرف .. ماذا لو تأكد كل شيء فجأة ؟ .. صارت الحياة حقيقة واقعة ، وصارت الأهداف والرغبات مفضوحة وقاطعة ، تقابل فلاناً فتعلم أنه يكرهك أو يحبك أو لايأبه بك أصلاً .. هكذا بلا مواربة ، تذهب لمكان اللقاء وأنت متأكد من وجود حبيبتك هناك .. لاشك ، لا طعم .. حتى بالنسبة للإنسان ذاته .. فى داخله ، الشك يضع ظلالاً أنيقة وكثيفة فوق كل ركن من أركان النفس حتى لا تصير المشاعر فجة جلية أمام صاحبها ، تمنعه تلك الظلال من أن يصير مؤذياً لنفسه أو للآخرين فيندفع خلف أى رغبة تطل برأسها .. هذه هى فائدة الشك ، ولكن فى الجانب الأخر ومن دون تلك الظلال سوف يتمكن الإنسان من معرفة ماذا يريد تحديداً . وتنتهى حيرته الأبدية التى تقوده إلى كل أفعاله المندفعة ، وحيرة الإنسان هى المعضلة الأكبر فى تاريخ البشرية ، واللغز الذى لم ولن يحل إطلاقاً ..

لهذا لم يعرف أبداً ماذا كان واجباً عليه !! أن يشكر ظلال الشك التى غمرته حتى فى تلك المدينة النائية عن موقعه الأول ،

وأن ينتهل لتلك اللحظات التى تتجلى فيها حلول وهمية لمشكلته ليفكر فيها ويفندها ويضع إحتمالات لتنفيذها .. أم يلعن هذا الشك الذى يحوم حول رأسه بإستمرار كشبح كبير فلا يستطيع أن يرى الطريق تحت قدميه ولا أن يحدد إتجاهه الذى سوف يسلك ، ويزدرى تلك الأفكار التى ما تلبث أن تعاوده على الرغم من مرور إسبوعين على وصوله إلى صور .. ولا تأبى أن تغادر عقله فى أى وقت من أوقات اليوم .. إبتلعه الروتين اليومى داخل المستشفى يوماً بعد يوم ، وصارت ساعاته تدق على برنامجه اليومى الكئيب .. أصبحت مريم بعيدة فى ظلال الشك الذى يؤرقه ، وأمست عودته شبه مستحيلة وقد قرر أن يسلم أمره تماماً للقدر فينساب مع التيار الجارف .. لا يعرف حقاً ماذا سيفعل ، لا يعرف !! ... لذا قطع الممر الذى يفصل بين العيادات الأرضية والصيدلية وهو لا يفكر فى أى شيء ، فقد كانت الساعات التى يقضيها فى الصيدلية بين زملائه من الممرضين — المشرفين على صرف الأدوية — قبل موعد المرور المسائى هى الفترة الوحيدة التى ينقطع فيها ذهنه عن أى تفكير .. وينصرف إلى سلوى بشرية ما كان يجدها حتى فى بيته .. وجد مراد يجلس على الكومبيوتر الوحيد فى نهاية الحجرة ، وما كان هذا غريباً .. فهذا الجهاز يحتوى على تنسيق الأدوية ما بين المستشفى والمستشفيات الأخرى ، وعليه قاعدة بيانات كاملة عن المكان ، ولكن الغريب كان التفاف الجميع حوله .. كانت الحجرة بها ثلاث

ممرضين آخرين أحدهم مجهول بالنسبة له ، والأربعة يجلسون حول الجهاز وكأنهم يتابعون شيئاً ما .. إقترب منهم وقال باسماً:

- يعنى كيف الحال لو مرق الدكتور من هون هلأ ؟ .. وسألكم شو عم بتعملو ؟ ..

التفت الجميع إليه فجأة فزعين وقد ظنوه الطبيب ، كان مراد شاباً بديناً كث اللحية يشبه فى ملامحه الأطفال ، أو الدببة فى الرسوم المتحركة .. حين رأى نجيب هدأت ملامحه الطفولية ثم تهلل صائحاً فى مرح :

- أهلين نجيب .. لك ما فى إحم ولا دستور ، إدخل وهات كرسى لإلك .

قال ممرض آخر فى خبث مرح:

- عم بنخطط لخروجه هيك اليوم بعد المستشفى ، تيجى معانا ولا شو؟

يخططون للخروج ، أى رؤوس خالية من المشاكل هذه ؟!! رد نجيب بملل :

- لا ما بعتقد .. فيى روح بكير .

ضرب الممرض كفه بكف ممرض ثالث، ثم قال:

- خلاص .. على كيفك، إنت الخسران ..

ضحك الأربعة فجأة ثم قال مراد مبتسماً:

– طب ما تيجى لهون وتشوف ، يمكن يعجبك الحال ..

أحس بنبرة سخرية فى حديثهم، فمد عنقه لينظر نحو شاشة الكومبيوتر التى إلتف الجميع حولها .. وأفسح مراد مجالاً للرؤية متراجعاً بكرسيه .. كانت الصيدلية مكاناً كئيباً أصلاً ، يفوح برائحة الأدوية والتعقيم والقفازات المطاطية أكثر من أى مكان بالمستشفى ، وكان نجيب يشعر بغثيان طفيف كلما تبادر لعقله جو تلك الصيدلية القاتم .. ولكن ما رآه كان أكثـــر مـــدعاة للغثيان بكثير ..

كانت الشاشة تعرض نافذة محادثة داخل موقع جنسى مليء بالألوان الحمراء والبنفسجية ، وكان على تلك النافذة أقـــبح كلمات محادثة يمكن أن تتبادل وإلى جوارها فيـــديو صـــورته متقطعة قليلاً بسبب تصوير كاميرا الويـــب الـــسيء وســـرعة الإتصال المحدودة .. مباشر ، لإمرأة عارية تمامـــاً ، يـــنعس نهديها المكتنزين فوق بطنها الشبه ممتلئة وتفوح مـــن وجههـــا معالم سعادة شهوانية وهى تنظر عبر شاشتها نحـــو الـــشباب الخمس الذين يتفحصون جسدها العارى بعيونهم المحملقـــة .. إرتسم تعبير إمتعاض واضح على وجه نجيب وهو يبتعد خطوة عن الشاشة ، مما جعل المرأة تقطب قليلاً ، وتراصت الكلمات أمامهم على الشاشة تعبيراً عن غضبها ..

كانت الكلمات من البذاءة بحيث جعلت الشباب يقهقهون ضحكاً ، وقال أحد الممرضين ساخراً:

– يا عيب الشوم يا نجيب .. خليت المره المومس تحكى عليك إنك مش بتاع نسوان ، لشو إنت بتاع رجال ؟

إنفجر مراد ضاحكاً وسط شعور قاس من الخيبة تجسد أمام نواظر نجيب ، كانت الشاشة تدفعه للمشاهدة دفعاً والكلمات القبيحة – مثل باقى الشباب – تثير الضحكات لديه ولكنه كان رافضاً لأن يفعل أى شيء .. لم يتحرك ، شعر مراد بالإستياء وظن أن كلمات المزاح القاسى ضايقته ، فقال محاولاً اغرائه :

– إسمها ع النت هايفا .. تعرفت عليها من إسبوع ، و هانقابلها الليلة فى سوق المحافظة وهيكون معها بنات صاحباتها، وهنطلع عندها بالبيت .

ثم إستدار مسرعاً نحو الكومبيوتر وكتب لها على الشاشة أن تنتظر فقد وصل صديق جديد .. فرفع نجيب عينيه تلقائياً لينظر نحو المرأة التى كانت تكتب دون أن تنظر نحو الكاميرا ، كانت فى الثلاثينيات من عمرها كما يبدو من تدلى نهديها وهى تميل على لوحة المفاتيح ، أكبر من أكبرهم سناً على الرغم من إهتمامها الواضح بجسمها .. أثارته جنسياً وهى تتحرك أمام الكاميرا من دون أى تحفظ أو وجل وكأن لا شخص يراقبها ، فوافق الرجال على الخوض فى هذه المسألة بهزة مسالمة من رأسه ، وهو كعادته منذ يأنس للصيدلية .. لا يفكر فى شيء ..

وسرعان ما إنتهت مناوبتهم فى الحديث عن هذا العبث المنتظر ، وخرجوا جميعاً فى الثامنة مساءاً من باب المستشفى ، يرتدون ملابسهم العادية وقد تخلصوا من المعاطف البيضاء

ورائحة المرض .. اقترح أحدهم أن يذهبوا لمنازلهم أولاً لتبديل ثيابهم بثياب أرقى ، ولكن الإقتراح قوبل بالرفض .. وبالتذكير أن أيهم لن يحتاج لملابسه فى النصف الثانى من السهرة ، وهو النصف الأهم .. كانت السوق مزدحمة فى هذا الوقت من بدايات الليل ، ما بين متسوق فى المحلات وعابث و زائر وسائح .. والتقوا بالفتيات فى سهولة ، كانوا خمسة شباب على أعتاب الرجولة وكانت هايفا قد أحضرت معها ثلاث فتيات مائعات وسيدة فى مثل عمرها ، سرح نجيب ببصره وعقله طويلاً فى تلك الليلة.. طوال الليلة إمتدت نظراته كشريط سينمائى يسجل تفاصيل من يشاهد الحياة من بعيد دون أن يتدخل فى تفاصيلها، أعجبته هايفا فى حديثها الطلق العذب ، تتعامل مع الشباب فى بساطة تجمع ما بين الوقاحة والمزاح والسخرية .. عينيها نجلاوين واسعين وأنفها أقنى وفمها مشوب بغلظة محببة ، كأنه ثمرة فاكهة إمتلئت بالماء وتشبعت بطزاجتها .. ملامحها جميلة حقاً ، وإن كان قد أدرك أنه الوحيد الذى رآها فى تلك الليلة .. الجميع قد رأى منها الملابس الكاشفة والكلمات المفضوحة ، و بدا له أن مراد صديقه يتودد لهايفا هذه بالذات دون باقى الفتيات — ربما لأنه يعرفها عن طريق الإنترنت — وأن كل من الرجال الآخرين قد إختار إحدى الباقيات .. بيد أن صارت له فتاة فجة الملامح ، جمالها رخيص سطحى ، حاولت أن تفتح معه حواراً عدة مرات، ولكنه كان فى هذه الليلة مراقباً شارد النظرات ..

و لاحظ كذلك أن هايفا قد ضاقت بمحاولات مـراد مـن التقرب الفج لها .. صارت تبتسم إبتسامات عصبية وأصبحت على غير طبيعتها التي تكشفت له في ذلك الوقت القصير..

جلس الجميع في خضم مرحهم داخـل كافيتريـا تعـج بالشباب ، جلس إلى جواره مراد .. في أريحية مفتوح الساقين، يتحرك كثيراً ببدانته حتى بدا أشبه بدب أو ثور هائج .. يحاول أن يخبيء إستثارته الجنسية في المـزاح الـصاخب والحركـات المتعددة ، وجلست إلى جوار مراد هايفا فمد يده حول كتفها لتستقر عليه، و طلب الجميع نبيذاً في ذكرى هذه الليلة البهيجة من ليالي صور الرائقة .. رفع نجيب كأسه ببطء ، بطء شـديد جعله يتسرب داخل روحه في هدوء .. شرب لأول مـرة في حياته ..

غامت عيناه بعد قليل في محاولات لتركيز بلا أي معـنى .. فأدرك أن الكأسين اللذين شربهما قد أضاعا توازنـه ، صـار أكثر ميلاً للضحك وتحدث قليلاً مع الفتاة التي جلست بجواره وأخذت تداعب شعره بيديها ، وفي لحظة واحدة بـين غيـوم الخمر والسهرة اللامعة رأى يد مراد تمتد أسفل المنضدة ، فرفع عينيه بسرعه .. كانت ذقن مراد الكثيفة تهتز في ضحكة عالية وهو يتظاهر بالحديث بينما إستقرت يده على وسط هايفـا .. أمسك بكأس جديدة ليدفعها بداخله حين تبادلت هايفا معـه نظرة طويلة غريبة ، وقد أدركت أنه رأى يد مراد التي تعبـث بجسمها في تلك اللحظة .

إمتدت تلك النظرة بينهما دون أثر للحظات ، وتسللت يد مراد حتى وصلت لمؤخرتها .. أنزل نجيب بصره من جديد فإنتفضت هايفا فجأة ودفعت مراد دفعة قوية جعلت المقعد يترنح به .. وفقد إبتسامته فى لحظة واحدة وهو يقول مستنكراً:

- شو فيكى ؟ ..

إحمر وجهها للحظة وهى تقول فى صرامة :

- ما فى شي ، على كيفك ..

رفعت عينيها فى حدة إلى نجيب من جديد ، وصدمها أنه مازال ينظر لها نظرته الطويلة المحملقة .. وإبتسمت فجأة حين عاد مراد إلى توازنه السابق ومد يد من جديد فى وقاحة نحوها.

نظر نجيب من جديد نحو الشباب الآخرين ، ما كان أحدهم متزوجاً بالطبع .. وفيهم من كانت هذه هى مرته الأولى فى الخروج مع إمرأه .. حتى مراد الذى يبدو مقتحماً متحرراً ما كان بهذه الخبرة التى يتظاهر بها ، فتوتره كان طاغياً على كل شيء ، حتى سؤاله لهايفا حين دفعته ما كان إستنكاراً إلى هذا الحد بل كان حيرةً وكأنه أخطأ فى شيء ما لا يعرفه!.. إنتهت السهرة سريعاً بمجرد إنتهاء زجاجتى النبيذ ، وبدا أن الجميع يتعجل الرحيل حتى هايفا نفسها التى فقدت الكثير من مرحها وبساطتها الطبيعيين وصارت تتصنع إلى حد ما . تخيل نجيب نفسه نائماً مع هايفا على فراشها فى المترل، وبقدر ما إستثاره التفكير فى هذا بقدر ما جعل قلبه يدق فى

صدره بشدة .. سيكون عليه أن يقارن بينها وبين مريم .. عادت فى تلك اللحظة إلى ذهنه بكل تفاصيلها علاقتهما الفائتة معاً ، وتصور ضماته المتعاقبة لها وهو يندفع بداخلها مملوءة بالحب العارم ، كان وجهها يندفع بين عروقه قبل أن يندفعا إلى ذلك البيت المهدم على مشارف القرية .. وكانت ملامحها تنحفر فى قلبه قبل أن يمد يديه ليعتصرها من تحت الفستان الأزرق فى مزيج من الحب والتملك الدائم والرغبة المستعرة ، جحيم حبها ما إنطفأ إلا وهو يلهث على ضفاف نهرها بعدما غاص بداخله حتى أحمصه .. وخرج مبللاً بالحب والعرق والإنهاك .. ما أبعد تلك اللحظات عما ينتظره فى ذهابه مع هاته السيدات المحترفات ، وما أحقر سعادة لحظية يغترفها من صندوق مليء بالأكاذيب والأهواء المضللة .. تضغط قبة صخرية فوق صدر البلاد كلها فتنوح فى ضيق متهالك وهى تغرق شبراً شبراً فى الحرب ، القذائف متوالية والأخبار يتناقلها العالم كله فى شفقة وذعر .. لبنان كلها تعتصر بأيد دموية حطمت قريته ودفعته مع أمه وجيرانهم للرحيل منكسى الرأس ، آلاف اللاجئين الذين كانوا يتوافدون عليه فى مكتبه السابق .. الدنيا بأكملها تشتعل تحت جلده ، بينما تهتز صورهم فى السوق أمام عينيه .. ومراد يفتح باب سيارته التى تتسع لسبعة ركاب ويجلس فى مقعد السائق إلى جوار عاهرته المحترفة ، ومد وجهه نحوها ببطء فظن نجيب أنه سيقبلها، ولكنه سقط فوق صدرها بفمه .. أغمض نجيب عينيه وهى لا يدرى ماذا يفعل..

لا يستطيع التفكير ربما بتأثير الخمر أو الحيرة أو لأنه ما إعتاد أن يفكر بصحبة هؤلاء البشر ..

فقط لم يدر ماذا يفعل ؟! ...

- وينك ؟ .. يللا ، هما كاسين بيدوخوك ولا شو ؟

قالت إحدى الفتيات من المقعدين الخلفيين ، حيث تلاصقت الأجساد الباقية .. وأكملت هايفا :

- ميعاد نومه إجه .. وبده يروح للماما .

تسخر منه بعبثية لا حد لها ، وكأنها تعيد له صفعته وهو يتأمل يد مراد الملتفة حول لحم ردفيها بحقارة .. قررت أن تتبع سبيلاً لا مرد فيه من إهانته حتى نهاية المطاف .. ولكنه لم يتبادل مع أياً منهم كلمة واحدة ، فقط إستدار شطر سيارات الأجرة البعيدة متجاهلاً ومضى بهدوء .. تاركاً من خلفه الصياح المستهجن من مراد والفتيات .. ثم نفير السيارة المزعج الذى يدق بلا إنقطاع ، ثم سمع صوت موتور السيارة يدور ، فإندس فى إحدى سيارات الأجرة مسرعاً ومضى فى الطريق دون أن يفكر فى أى شيء .. برحيله عن المكان تقوضت السهرة وانتهت بالنسبة له ، إضرمت النار فى عقله ، وإشتعل فكره بمزيج جديد ملتهب من مريم وهايفا .. جرح سطحى خدش جدار حياته الخارجى، فإنساب بعضاً من النبيذ الأحمر ثم إنتهى كل شيء قبل الوصول إلى مرحلة حقيقية .. إلى الذروة

إلى نهاية السهل الأخضر الذى يحترق تحت الشمس ، حيث الظل الرطب المهجور .. !

و إستغرق التئام جراح الموضوع كله يومين فقط ، إعتذر لمراد وزملائه فى الصباح .. وأخبره مراد فى غضب بان تمثيلياً أنهم إضطروا إلى جعل إحدى الفتيات ترحل بعدما نقص هو من المجلس ، ولكن سرعان ما نسى الموضوع فى وسط مشكلات المستشفى والمزاح المعتاد .. فلم تكن هاته النسوة العاريات يهممن مراد بالقدر الذى يجعله يغضب فعلاً من نجيب ، و لم تكن الحادثة تستأهل أكثر من ذلك فعلاً .. ولكن ما تركته من أثر فى نفس نجيب بعد مرور أسابيع من مشكلته مع مريم .. هو هايفا .. !! تلك المرأة الغريبة فى كل شيء من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها ، لم يحبها !! .. ولكن إغرائها الذى دفعه للمقارنة ما بين الحب والجنس كان شيئاً جديداً تماماً عليه ، ما كانت إمرأة قد عرضت نفسها عليه من قبل ، ولا حتى عبر طريق موارب غير مكشوف ، وما ظن أن الأشياء الخصوصية فى حياة الإنسان من الممكن أن تفتضح لتصل عبر الإنترنت .. ولولا المصادفة التى جمعت بينه وبين مريم فى ذلك اليوم ، لربما إستغرق الأمر منه سنوات حتى يصل إلى تلك المنطقة مدفوعاً بالزواج منها .. راعه الشعور الممض بالذنب الذى إمتصه حتى آخره وهو لا يزال مضطرب من الذهول وقد عبر مع مريم فجوة رهيبة فى عقله ، تذكر إحساسه المضطرب بين الحب والذنب والسعادة الذى دفعه على الفور لطلب

الزواج منها فى عبارته المقتضبة الوحيدة التى قالها بعد ما حدث حين قارن هذا الإحساس الذى عاش فيه وهو مدور الرأس بالخمر الحمراء .. يجلس فى كافيتيريا عامة مكشوفة وجميع الجالسين من حولهم بالتأكيد موقنون بالعلاقة التى تربطهم بهاته النساء ، مكشوف على العالم كله مثلما كان مراد مكشوفاً وهو يفتح ساقيه فى مجلسه بشراهة ، ويمد يده ليتحسس المرأة أمام نواظره ، ومثلما كانت المرأة نفسها مكشوفة وفستانها الملتصق بها يتحرك مع لمسات غريبة مقتحمة .. ومثلما رأى هو ذلك بعينيه ربما يكون شخصاً آخر على منضدة أخرى قد فعل!.. شعر فى تلك الليلة أن هايفا قد إلتفتت لكل هذا فيه ، وهو ماجعلها تضيق بمحاولات مراد السخيفة ، وهذا أيضاً ما جعلها تواجه إحساسها الداخلى بأن تتحدث معه بإسلوب مهين ، وكأن فى عفته الطبيعية التى تميز الإنسان عن الحيوان .. هو فى مرتبة أدنى منها ، أو لم يصل بعد إلى مرحلة القوة المتطورة - والتحدى الكامل لعيون البشر - التى وصلت إليها.

انتهى بنجيب المطاف من جديد فى غرفة الممرضين العمومية الخالية كدأبها بعد المرور الصباحى ، وبين يديه صفحات الرواية التى مازال يقرأ منها على فترات متباعدة .. لا يزال جالساً على مقعده الجلدى فى مواجهة النافذة التى تلقى بضوء الشمس الساطع عبر قطع الخيش الممزق التى تغطيها ، جلسة أخرى يجلس مثلها كل يوم .. حين دخل إليه أحد السعاة حاملاً خبراً غير معتاد ..

- أستاذ نجيب ..

- هممم ؟

أخفض الرواية عن عينيه ببطء ، ونظر لذلك الساعى ..

- فى واحدة عم تسأل عليـــك بـــره .. ســـألت الأول ع الإستاذ مراد بالصيدلية وما لقيته .

هايفا ؟!!! ..

إعتدل فى مجلسه المتراخى بحدة ، وقال:

- هى قالت بدا تقابلنى ؟

- إيه .. سألت عنك أول ما قالولها إن مراد مش موجود.

... ما الذى تفعله هنا فى المستشفى ؟ هل طلب مراد منها الحضور إلى هنا ؟! .. شعر بالحيرة المفاجئة ، لماذا تريد هـــذه المرأة مقابلته هو ؟ ألمجرد أنها لم تجد مراد عـــشيقها ! أم هـــى جائت فى الصباح وهى تعلم أن نوبة مراد تبدأ فى العصر لتقابله هو بالذات ؟ .. ثم السؤال الأكبر الذى ملأ عقله .. حتى لو لم تجد مراد فماذا تريد منه ، وهو لم يتبادل معها جملاً معدودة فى ذاك اليوم ؟!

شرد قليلاً ثم قال للساعى :

- شكراً يا عم محمد ..

غادر الرجل مسرعاً على حين قام نجيب من مكانه حائراً ، يحاول إيجاد مفتتح للكلام يمكن أن يخاطب هايفا بـــه ، سمـــع

طرقات أنثوية على باب الغرفة ، ثم دخلت الفتاة التى سألت عنه فى ثوب محتشم رقيق ..

ذهول تام ، وصمت .. ونظرة عيون محملقة من الطرفين ! جنوب العالم وشماله يلتقيان فى لحظة واحدة فوق رأسه فيذوب ثلجاً متجمداً من إبتعاد طال حتى صار ذكرى ، وشمساً محرقة من شوق تجدد فى لحظة اللقاء ، خفق قلبه فى قوة بالغة ، وخيل له أنه يحدق فى حلم قادم من عالم خيالى ... !!

- مريم ؟!

إرتج جسده كله من نشوة خائفة لم يدر مبعثها ، وغاصت سمرة وجهها فى إندهاشه المحملق .. حدقت به كأنها تستكشف ما إذا كان سعيداً بوجودها أم لا .. دخلت الغرفة حتى صار الضوء يسقط مباشرة على وجهها ، ورسمت الشمس فى عينيه ملامح جسدها الدقيق وفتنتها التى ملأت قلبه لما زاد عن عام.. حاولت أن تفتح فمها لتجد كلاماً ، ولكنه قال:

- مريم .. إنت جيتى هون تبحثى عنى ؟!

قالت وهى تتقدم نحوه ببطء شديد ، وكأنه شخصاً غريباً عنها:

- سألت فى القرية ، وقالولى فى صاحبك إسمه مراد بيشتغل فى المستشفى وبيعرف مكانك .

نظرت حولها فى الغرفة .. حيث الشمس الطاحنة القادمة من النافذة تروى كل أركان المكان بضوء عذب .. نظرت

للرواية ، وللمقعد الجلدى الخاوى .. الذى ما زال يحمل أثار التجاعيد من جلسة نجيب عليه .. وأردفت:

- ما كانت بظن إنه إنت عم تشتغل هون ..

كانت تحاول أن تتحاشى الحوار المنفعل كعادتها ، وتنظر فى فراغ الغرفة وهى تتكلم لتتحاشى إلتقاء عينيها بعينيه ولو لثانية واحدة .. تخفى إنفعالات وجهها فى حيرة شديدة لتتحاشى أن تخونها عيناها .. تتحاشى كل شيء .. و تسير على حبل دقيق جداً ما بين النيران ، كل خطوة زائدة قد توقعها ، ما كانت مجهزة لملاقاته وقد ظنت أنها هنا ستقابل صديقه مراد فقط الذى سيخبرها بمكانه .. وما تظن أنها ستكون مجهزة أبداً للقاؤه .. حتى ولو أراحتها الصدفة من الإستعداد مثلما قابلته مصادفة فى ذلك الفجر الدامى وهى تتسلل خلف أبيها .. إلتمعت عيناها وهى تنظر نحو الخيش الذى يغطى النافذة ، وحاولت أن تكون لهجتها طبيعية ، وهى تخفى بحراً هائجاً من المشاعر بصدرها .. وقالت كلاماً كثيراً متضارباً بلا معنى :

- ما كنت بفكر إنك عم تشتغل هون ، كنت فاكرة هاقابل رفيقك مراد بس .. وإنت شو عامل هـا الـدنى ؟.. بتشتغل ممرض ولا شو ؟ .. إنت .. إ ..

تقطع صوتها لوهلة ، وخانتها عيناها المتحاشية ، فسقطت على عينيه دون تردد .. نظرة واحدة لوجهه القديم ، وملامحه التى ما فارقتها حطمت حاجز التحاشى الكبير ، وسقطت بكل قوتها من فوق الحبل الدقيق إلى النيران مباشرة ..

قالت فى صوت ملأه اللوم ..

- إنت .. ليش سبتنى وفليت يا غبى ؟ .. أنا بحبك ..

طفرت الدموع من عينيها فجأة ، وتهدج صوتها فى مقاطع الكلام .. فإقترب منها نجيب على الفور ، وإحتضنها بقوة بالغة ، احتواها بين يديه مثلما لم يفعل من قبل .. قبلت قميصه المشتعل دفئاً وهى ذائبة فوقه ، قبلته قبلة فى صدره ، وقبلة على يده المرتجفة التى أمسكت فى يديها ، وإنفجرت فى بكاء حاد لا ينقطع وهو يضمها نحوه .. ويربت على كتفها مهدئاً .. قال لها بصوت بالغ الضعف :

- أنا آسف .. انا ما بعرف فى شو فكرت ..

إنقطع صوته وهو يضمها إليه من جديد ، لتريح رأسها فوقه ، زم شفتيه وهو يتخيل الأسابيع المارة فى ذهنه بسرعة كبيرة ، والمصادفة الحرجة والحزن المتصل والأيام المنقضية فى المستشفى وعلى شاطئ البحر ، يتذرع بالتفكير والمشاعر وهو ثابت لا يتحرك فى مكانه .. غص حلقه و شعوراً بالذنب يهاجمه بشراسة ، فبينما هو يمضى وقته ما بين الروايات والترهات متعللاً بأنه يفكر فى أمرها ! .. وهو فى الحقيقة يهرب منها بكل قوته ، يهرب فى المكان بقدومه إلى هنا ، وفى الزمن بإنخراطه فى أيامه المتشابهات ، وفى الحب بموافقته على الخروج مع الفتيات الأخريات .. بينما يتجول بين أروقة بلا أبواب أصلاً متعللاً بالبحث عن المفتاح .. كانت هى تقترب

منه فى كل لحظة يفصلها عنه الزمن والمكان .. وصلت إليه بقلبها قبل عقلها، وأخيراً صارت إليه تراه رأى العين .. أحبته حقاً !!

– .. أنا آسف .. كان بدى ضل وياكى على طول ، كان بدى إتجوزك .

التقطت أنفاسها وهى تغفو على كتفه بينما يده تمر فوق شعرها بنعومة .. وشعرت وهى تتوقف عن البكاء أنها الآن تستريح ، وقد إنتهى عذابها فى البحث عنه بتلك المصادفة .. إقشعر بدنها ودفء يديه يتسلل عبر رأسها قطرة فقطرة .. فكأنه وهو يلمس شعرها بأصابعه ينقل إليها دماً جديداً يحيى كل ما فى داخلها .. رفعت رأسها مبتسمة إبتسامة عذبة تفيض شباباً وجمالاً، كانت هى الآن مثلما كانت من قبل .. عاد إلى وجهها براءة أضافت إليه الكثير ، وإنمحى من عقهما حزناً عميقاً كأنما لم يكن أصلاً ! نظر فى عينيها وهى ترفعهما نحوه.. وخيل إليه أنه عاد أياماً للوراء ، تشكوه من مضايقات أبيها ، وتعتصر قلبه كسترة للنجاة مما يضيق به صدرها فى الحياة ، تبتهج حقاً لدى رؤيته ، ولكنها لمحت فى عينيه إنكساراً غريباً فهمته على الفور .. و تذكرت الكلمة التى كانت آخر ما تبادله من حديث .. وقالت كلمة واحدة بلهجة عفوية بدت كأسعد شيء فى الدنيا لكليهما وهى تبتسم بكامل جمالها العائد: هنتجوز ..

الفصل الثالث عشر

عرضاً

... ربما تكون هذه هى بدايات السعادة ، وربما فقط هى بوادر التخلى عن قلقه، فقد غادرت الأفكار اللعينة كلها رأس محمود بلا عودة وهو فى طريقه إلى الفندق ، واحدة تلو الأخرى ، منذ اللحظة التى أطبقت فيها يديه على تذكرة العودة إلى لبنان بعد أيام قلائل .. كانت المأساة التى يحياها منذ يوم الحرب الأول تبدأ فى الزوال ، يتكشف الغبار الذى أحاط به عن سماء بدت حدودها الخارجية، رمادية مظلمة ، ولكنها سماء على أى حال ! .. فى وجودها يستشعر الأرض والعالم المحيط به .. وصار قلقه على زوجته ينحصر فى وقت محدود ، بالذات بعدما أخبرته بإنتقالها من قريتهما المنكوبة، وإبتعادها مع إبنته الوحيدة عن المحيط الدامى للحرب المندلعة ..

.. رفع تذكرة الطائرة أمام وجهه لتملأ عينيه ووجهه بتعبير صعب الإدراك ، وهو يقطع الطريق على قدميه نحو الفندق البسيط الذى يترل به، على حساب الشركة التى يعمل بها بالطبع .. كانت معظم أفكاره السوداء منبعها حياته هاهنا، أكثر من قلقه على زوجته وطفلته .. فقد كانت أيامه فى سوريا عذاباً مقيماً لا ينجح فى غسل جراحه أمطار عينيه التى يسكبها حين يخلو لنفسه، ربما يبكى ساعة كاملة فى غرفته بالفندق ، أو بضع دقائق فى أى مكان بلا بشر، حتى دورة

المياة !! فقط حين يشعر أن الحياة لا تتكئ على مرفقيها وتراقبه فى إستمتاع تام بمأساته من خلال عيون البشر- وحتى المارة فى الشوارع ! - تشتعل صنابير وجهه لتحاول تخفيف الجراح التى يعانيها، الحديث فى الشارع السورى ها هنا لا ينقطع حـــول تلك الحرب التى تتخذ من بلاده مسرحاً لأحداثها، هناك مـــن يتحدث بشفقة أو بجدية أو بثورة غاضبة ، ولكنـــهم جميعـــاً ينسون فى النهاية .. بمجرد أن ينتهى الحديث عـــن أســـطورة الحرب الدائرة و أولمرت ونصر الله والقرار الـــذى لم يعتمـــده مجلس الأمن بعد .. يخرج كل شخص من تلك الدائرة المحروقة كمن يخرج من فيلم سينمائى مؤثر ومخيف .. مملوء بمزيج مـــن الشفقة والغضب سريعى الزوال ، ولهذا كره وجوده فى غـــير بلده.. إذا كان هنالك ما قد يسهل عليـــه وجـــوده فى هـــذا الجحيم من البشر فقد كان زيد — رحمه الله — صديقه الأشقر الذى فقده فى رحلته العميقة نحو تلك النيران المتأججة ، شلعته قنابل الإسرائيلين قبل بلوغه بوابة جهنم ، فكأنما كتب عليه ألا يدخل الجحيم ويموت على ضفاف الجنة ... لبنان .. .. جلس على طرف السرير المعدنى وهو يعاود إجترار ذكرى صديقه ، دفنه أهله — بعدما سلمهم جثته — فى مدافن القرية الواقعة على مفرق التل الأخضر الذى يربط بين مجموعة حزينة من القرى ، بملابسه كاملة كما يليق بشهيد ، بآثار الدماء التى ملأت ثقوب جسمه .. آخر ما يذكره عن صديقه ، جسد جامد متصلب ، وخيط من الدماء يعبر فى منتصف وجهه تماماً حتى يصب بجوار

أذنه ، أنزلوه في الحفرة بهدوء ورفق ، ولكن بدا لمحمود وكأنـه تدلى من فوق جبل عال ، أو سقط في قاع بئر سحيق فـسمع لنزوله دوياً مكتوماً لم يسمعه سواه !

.. أهالوا التراب حوله في كل مكان ليصير ستار الفـصل الأخير من مأساة صديقة .. تنكتب به نهاية المسرحية بأن يظل صديقه مادام الزمان باقياً تحـت أرض لبنـان ، مـشاركاً في تكوينها .. كالجبال والمزروعات الخضراء ، وزهور الحنون التي يلقيها الناس فوق قبور موتاهم في صيف آيار .. لم يعد صديقه مضطر بعد نهايـة المـسرحية ، أن يرحـل مـن قريتـه لأن الإسرائيليين يقصفونها بالصواريخ ، ولا حتى إذا دنسوا أرضها بأقدامهم وإنتهكوا أعراض أهلها ، واغتصبوا حتى النساء مـن أهله.. صار صموده حتمياً... !! مكبلاً بقيد من التراب يربطه ببلده لا يملك الغضب والثورة ، ولا الخـوف والهـرب مـن موقعه.. صار صموده حتمياً ..!! وأن يطأ أي جندي إسرائيلي أرض القرية ، لا يعني سوى أن يطأ بحذائه الغليظ فوق عظامه التي أنهكها التحلل، فلا يتأوه من الألم ، حتى وإن تفتـت مـا تبقى من رفاته تحت أقدام الوافدين... لم يعد صديقه مـضطراً بعد نهاية المسرحية، أن يبكي من الخوف والقهر المذلول ، ولم يعد مضطراً للإذعان لمطالب زوجته بأن يهجرا بلادهم ، وكما يتذكر صديقه ويعرفه .. كان ليرفض الهرب حتى ولـو كـان حياً، وحراً لا يتعلق بالأرض .. ربما كان هذا بـسبب أنـه لم يتزوج ، ولم يصبح له أولاد .. ولكن هذا ليس كل شـيء !!

أليس له أب وأم ؟! وأقارب عجائز وأطفال كـانوا يعتبرونـه وسواه من الرجال عماد الأسرة ، والوتد الذى يبقيها معلقة فى مكانها ؟!! ... شعر وهو يمسك بصورة صديقه أنه يقف أمـام قبره ، وأن تذكرة السـفر والأوراق الـتى يحملـها فى يديـه المعروقتين ، هى باقة من زهور البرقوق أو الحنـون ، أحـس وكأنه يستأذن صديقه فى مغادرة البلاد ...

... إلى أى مكان .. ع الشمال أو ع جهنم ، مثلما قالت سماح.. وصديقه يرفض بكل وحشية وعنف ، كثـائر وجـد نفسه فجأة محاطاً بالخونة والمتقاعسين .. الذين يهددون مصير الثورة كلها بالفشل وبالضياع ، تفاقم شعوره بالخيانة والعـار لأيام عدة بعد مهاتفة سماح الأخيرة له .. لم يبك ، فبكائها فى التليفون فى وسط المكالمة كان المحفز الأكـبر لرجولتـه علـى الإطلاق .. طوال عمره يبكى ، حين مات سالم كان يبكى ، وحين مات أبو سالم كان يبكى ... حين إقتحم الإسـرائيليين بيروت كان يبكى ، وحين خرجوا منها ! .. حين أجهـضت سماح فى طفلهما الأول بعد خروجه كالمجذوب مـن البيـت خلف سراب سالم المصلوب على جدار إسرائيل كان يبكى ، وحين رزقهم الله بعد طول إنتظار بالطفلة الرائعة هالة ... كان يبكى !!

وعلى الدوام كانت سماح صلبة ، تمثالاً من العزة والكرامـة المتقدة .. يكفيها تاريخ عائلتها المشرف والمحفور فى أرض تلك البلاد مثل جسد زيد صديقه المقتول ، حتى كان لينسى أنه هو

الرجل وهى المرأة ، هو ما يفترض أن يمثل الحماية والحزم داخل منزلهما

– محمود... إنت راجلى، وما إلى غيرك إنت وهالة، بـــدنا نظل هون.. ببلدنا..

رفضت رحيلهما من القرية من قبل بتلك الجملة الصارمة ، التى شقته كسيف حاد ، وظن أنها تهدده وتحتقره .. أو علـــى الأقل تذكره بالأدوار التى يجب أن يلعبوها ، ولكـــن الرجـــل الذى يواجه مسئولية لا قبل له بها تسلب رجولته شيئا فـــشيئا تحت ضغط الطلب ... كان فى الماضى أكثر رجولة وصـــلابة بالتأكيد ، لكن كل شيء فى العالم كان يقف فى وجهه.. كل إنسان كان يصفعه، وكل يوم يمر كان يبصق فى وجهه شعوراً حاد المرارة بالتقصير، منذ اليوم الذى رفض فيه الذهاب للجبهة مع رفاقة بحجة حمل زوجته ..

لهذا لم ينل التليفون المزروع فى الغرفة كالقنبلة منه ســـوى النظرات طيلة الأيام الماضية ، يذهب ويغدو فى الغرفة فيحـــدق فى التليفون بنظرات طويلة وكأنه يستنطقه أن يـــرن ، وحـــين واتته الفرصة وسمع رنين التليفون بعد أســـبوع مـــن مكالمـــة زوجته، لم يصب التليفون أيضاً سوى نظرة طويلـــة وكأنـــه يرجوه أن يصمت...!! تردد وفكر فى أن يرفـــع الـــسماعة ، يحاول أن يبدو صلباً وقوياً فى مواجهة زوجته ويطمأن عليهـــا وعلى مكان إستقرارها الجديد ، أو يبدو حائراً ملهوفاً فيريـــح

قلبه على مثوى نسائه .. نفس النتيجة تقريباً !!... لهذا لم يرفع السماعة أبداً ، حين شعر أن قوته أو ضعفه ستؤديان به إلى النتيجة عينها ، إعتبر هذا نوعاً من العجز ..!! غير قادر حتى على إتخاذ موقف امام نفسه... دق التليفون بعد هذا مراراً طوال اليومين التاليين ، ولكنه كان قد عزم ألا يرد حتى يتبين ما يريد أن يفعل تحديداً .. ثم صمت التليفون الى الأبد ، بالتأكيد تظنه زوجته قد غير مسكنه وتنتظر منه مكالمة ما يخبرها بمكانه أو يستعلم عن مكانها ....

دق الباب برفق ، فرفع عينيه المعذبتين نحو فراغ الحجرة الضيقة ، كان اليوم لا يزال فى منتصفه ، والضوء الشاحب لساعة العصر يغلف الجو ، وكان السرير المعدنى ملتصقاً بالجدار البعيد عن الباب ، لهذا — برغم صغر حجم الغرفة — بدا الجدار الذى يحتوى الباب بعيداً .. تكررت الطرقات المهذبة ، فقام ليفتح الباب، كانت سيدة جميلة الملامح ، برزت له فى ضوء الممر الخافت بشكل تدريجى ، وكأنها صخرة تبرز فى البحر بعد عاصفة من الأمواج التى تنسحب عنها فى هدوء.. رأى فى البداية طلاء الشفاه الأحمر القانى ، والوجه المبتسم فى تردد .. ثم فتح الباب عن آخره ، فظهر ردائها البنفسجى الفاتح ، وجسمها المتناسق الرشيق ، وعطرها الغالى الفواح ، منحته إبتسامة لامعة، ثم قالت:

– أ .. أستاذ محمود؟

– إيه !

كان مندهشاً مرتبكاً من المظهر الراقى لهذه المرأة الفاتنة ، لم يلق فى حياته القروية التقليدية من قبل مثـــل هـــذا الجمـــال الأرستقراطى ، أو على الأقل عن هذا القرب .. و لم يكن هذا الفندق الفقير هو المكان التقليدى لرؤية شيء كهذا ، لذا بـــدا متردداً أكثر منها ، وكأنه هو من طرق بابها ...

– الحكى اللى هاخبرك ياه ما ينفع ينقال من ع الباب ...

صاح فجأة وهو يفسح المجال:

– أنا آسف .. اتفضلى ، اتفضلى .

مشت بإعتدال حتى منتصف الغرفة ، يطرقع حذائها علـــى الأرض، و يحفر فيها أثره .. فى الأربعينيات من عمرهـــا وإن كان شكلها يبدو رائعاً، إنحناءات جسدها مـــدورة حـــادة ، ووجها يتزين بشعر تام السواد .. جلست فى مقعد بمنتـــصف الغرفة واضعة ساق فوق الأخرى لتظهر صندلاً أسود لامـــع ، وقد بدأ عطرها يغزو المكان برفق .. وقالت بآليه:

– سكر الباب ..

أغلق الباب ، ووقف أمامه مسمراً فيما بدا وكأنه قلة ذوق، وكأنه يدعوها للإنتهاء من حديثها والرحيل مسرعة .. أما هى فأدارت عينيها فى الغرفة للحظات ، ثم إستقرت عليه ، وقالت:

– أنت رشحك ليا حدا ما بتعرف إسمه ، بس هو أصـــلع ومليان شوى .. بيقول إنه قابلك فى مطار بيروت وإجا معـــاك بالسيارة..

الشاب الأصلع ذو البذلة الأنيقة ، ذاك الذى كان لطيفاً معه وحاول إعطاؤه التليفون المحمول ليكلم زوجتـــه ، ثم إختـــاره وصديقه ليقودا سيارة الرجل الآخر العجوز المنفوخ الشرس .. أومأ برأسه وهو يقول فى إمتنان:

- الله يسترها معه ، لو بقدر ساعدك أكيد ما راح إتأخر .

إبتسمت بود لدى سماعها هذا الترحيب الذى لاقاه ذكـــر الأصلع ، وأدركت أن مهمتها فى طور النجاح، لـــذا لعبـــت الورقة الأكبر فى جعبتها على الفور .. دون المزيد من الغموض والتعقيدات قائلة فى ثقة:

- أنا زهرة غالب .. عضو منظمة التحرير الفلسطينية ...

***

- تشرفنا..

سحب الأصلع يده بعد التعارف، ثم جلـــس علـــى أحـــد المقاعد المتناثرة ، وأنفه يحاول أن يتجاهل رائحة التوابل القوية التى تفعم المكان .. ونظر من جديد نحو زهرة ومنة التى وقفت إلى جوارها فى هدوء مشوب بالذنب .. وقال بوضوح بلهجته الحقيقية ، وقد تخلى عن تمثيل اللهجة الشامية :

- احنا معانا الورق اللى إسماعيل عايزه .. والشريط ، وهو مابيعرفش إن كنا عايشين ولا متنا .. طبعاً التليفـــون بتـــاعى إتكسر فى الحادثة فمبقاش بيقدر يكلمنى ..

اعتدلت زهرة للأمام فصارت تجلس على طـرف المقعـد، وقالت:

- أنت ما بتعرف كيف هايدى الإشيا مهمة بالنسبة لألنا.. إسماعيل هايدا شخص حقير بس بتحميه قوة كبيرة .

إبتسم الأصلع فيما بدا لزهرة وكأنه إبتسامة ثقة ، ولكنـها فى الحقيقة تحمل ملامح الإستهزاء فى دواخلها وإلى عدم الثقـة تميل أكثر ، يجلسون الآن فيما يشبه شونة الغلال الملأى بالتوابل نفاذة الرائحة .. فى إحدى القرى السورية الفقيرة ، ويتناقشون فى كيفية تحطيم رمز من رموز الخيانة الداخليـة فى فلـسطين بأسرها .. كان يرى أن ما يفعلونه هراء ، ولن يؤدى بهم لأى نتيجة ! ولكنه كان إقتراح منة ، وكان هو الحل الوحيـد فى جعبته على أى حال...

- إنتم ما إلكم دعوة بها الشغلة ، أنا ما بريد رجالة إسماعيل يضلوا يطاردونكم.

قالت زهرة وهى تتفحص الأوراق التى سلمتها منة إليهـا ، فتسائل الأصلع فى ضيق:

- يعنى تفتكرى هيقول جبتو الورق والشريط منين ؟!

- الشريط هيكون عندنا كورقة نلعب بيها فى المحكمة بإذن الله ، والورق ممكن يكون إسماعيل تركه فى حياله مكان..

قال بدهشة :

- وهو ده ورق برضه يتساب فى أى مكان؟

ابتسمت بلا تعليق ، ثم تجاوزت تلك النقطة و أكملت في إمتنان:

- كل واحد فيكم بيشوف حياته من هون ، وأنا ماعدت أعرف أي شيء عنكم، ولا شفتكم قبل هيك .. بيكفيكم إنكم سلمتوا ها الإشيا وعرضتوا أنفسكم للخطر لها القد ..

فعلاً .. يكفيه أنه إحتراق ما كان قد نذر نفسه على بقاءه ، وهو عدم ولائه لسياسة معينة ، وعدم تدخله في شئون عملائه .. كان المفترض أن يذهب لإسماعيل فيسلمه الشريط ويقبض باقي أتعابه في تلك الصفقة ، ويترك منة مع أوراقها الغامضة تحاول وحدها صد الرياح بعود من القصب .. ولكن الرفض والثورة تشكلا في عقليهما معاً ، حين كانا في الكهف غارقين في الدماء والتراب !! .. وكأنه جالساً في صحن الكلية وسط رفاقه يرتبون لمظاهرة جديدة تحمل آفاقاً ثورية ، ربما صار هذا هو الوقت الذي سيتحدى فيه كل قوانينه الخرساء القديمة ، وربما هو وقتها أيضاً لكي تحاول الرفض ، بعدما وافقت على الخوض في تلك العملية وهي تعلم كل شيء عن إسماعيل وصفقاته المرعبة ، طمعاً في المال وحفاظاً على وظيفتها

... لقد مضى كل شيء في طريقه المحتوم ، وصار من الغباء أن يحاول إيقافه أو الإعتراض عليه حتى بندم دفين، منذ جلبته منة إلى هنا لمقابلة المرأة الأسطورية زهرة غالب ، في تسلسل يشبه تسلسل الحكايات حتى تخيل للحظات أن الفكرة كلها

مدبرة للإيقاع به .. ثم إستبعد مع الوقت أن تكون لدى منـــة أى نية فى إيذائه !

حين وصلا للقرى السورية الحدودية ، محطمـــين نفـــسياً وفكرياً وجسدياً ، بعد الليلة التى قضياها فى ذلك الكهـــف .. كانا قد إتفقا بشكل نهائى على أن يلعبا دوراً ما فى درء اللعبة التى كانا طرفين فيها .. إذا كانت تلك الصفقة تشبه المبنى فهذا المبنى قد فقد عمودين من أعمدته .. وصار واجباً على هـــذين العمودين أن يخرجا من مكانيهما حتى ينـــهار المـــبنى كلـــه ، لكنهما كانا يطمحان فى ما هو أكثر من تدمير المبنى .. كانـــا يريدان رأس المقاول شخصياً .. تذكر كذلك ما قالته منة عـــن زهرة غالب ، وعن قصتها المأساوية التى حولتها من مجرد امرأة وزوجة عادية إلى مناضلة فلسطينية .. حياة حافلة تلك الـــتى عاشتها هذه المرأة التى تخفى سنواتها الأربعين جمالاً وجاذبيـــة عجيبين .. إبتسم وهو يستمع إلى منة وهما يسيران جنبـــاً إلى جنب فوق أحد كبارى دمشق ، وتنفس هواءاً عميقاً ليطـــرد رائحة التوتر الذى يدق بين قلبه وضلوعه ويتسرب عبر أنفاسه ، كانت قد جمعت شعرها البنى الملتف خلف رأسها ، وتركته ينسدل من عقدته متحرراً من التصفيفات المنمقة .. وتعـــرت تماماً عن زينتها ، فبدت أقل جمالاً .. ولكن أكثـــر مـــصداقية وجاذبية ، فاتحته من جديـــد فى موضـــوع تـــسليم الأوراق والشريط إلى إحدى الجهات .. وبدأت تقنعه بحديث طويـــل مليء بالثرثرة ليس فى الحقيقة بحاجة إليه !! فما كان قد قـــرره

بالفعل هو الذى سيفعله ، لهذا كان يستمع إليها بنــصف أذن منجذباً أكثر نحو مظهرها الجديد وطريقتها المختلفة فى الحديث عن تلك الطريقة المبتسمة الآليه .. ولكنه إنتبه على ذكر زهرة غالب ، وهى تحكى عنها بطريقة تختلف تماماً عن تلــك الــتى كانت تنفره منها من قبل:

- .. كانت عم تشتغل طبيبة فى مستشفى خــاص ، شــو كانت معروفة بأنها ناجحة ومهضومة .. بس عمرها ما فكرت فى أى نشاط سياسى أو غير سياسى ، حتى زمايلها الــدكاترة يللى كانوا فى آخر الأسبوع بيقوموا بنشاطات خيرية لــدعم المقاومة الفلسطينية ما كانت بتعمل زيهم ، ومتزوجة راجــل محترم بيشتغل دكتور فى الجامعة بعد قصة حب كبيرة جــداً .. بس ما كانت بتقدر تخلف ...

.. وشو اللى صار ؟! عادى جداً!! .. ربنا ما بيعطى لحدا كل شيء وهايدى حكمته ، وهى كانت بتعتبر زوجها هــو عيلتها كلها ، عاشوا مع بعضن تمن سنين كان كل العالم فيها عم بيحسدوها على سعادتها ، وبعدها عن المشاكل اللى مغرقة الحكومة وفلسطين كلها ..

بلعت ريقها فى توتر وكأنها تحكى حكاية خاصــة بهــا ، وتوقفت لوهلة ثم أكملت:

- .. وفى يوم كان فيه قصف شديد جداً فى مناطق سكنية قرب بيتها ، سمعت الخبر فى الفجر وهى فى نوباتجية المستشفى صارت متل المجنونة .. كلمت البيت شى مليون مرة ومــا فى

حدا رد ، ولأول مرة فى حياتها أجلت عمليات كان المفروض تعملها هلاً ، خاطرت بحياة العيانين تبعها تا تروح تنقذ زوجها .. وعيلتها وإبنها !! ..

... كانت ناوية تصحية تا يخرج معها من الشقة ، وساقت فى السكة بسرعة مجنونة ، وعملت حادثة بسيطة مع سيارة أجرة .. إنخبطت راسها فى العجلة وإنجرحت ، فتركت السيارة لحالها ، ودفعت كل اللى بجيوبها للسواق تا يتركها تفل ، وصارت تجرى لتلحق زوجها ودمها عم بيسيل على وجهها .

تنهيدة عميقة من منة ، لكى تتابع مستوى آخر من الحكاية، فى أسف المضطر لتلخيص حياة شخص ومأساته فى جمل معدودات ، مجهود لا طائل من ورائه .. لا يعبر عن شيء ولا يصف شيئاً ، وهل مهما برعت فى حديثها تستطيع أن تصور لهفة كل خلية من خلايا زهرة وهى تسعى بمقاومة هائلة لقدر ينوى أن يطيش بحياتها عن الصراط الهادىء السعيد ؟! هل تستطيع هى حتى أن تتصور ذلك النضال المحموم ؟ .. أما الأصلع فكان يستمع مكتفياً بتعبير ثابت من الأسى والتعاطف ، من كثرة ما رأى فى حياته لم يعد يدهشه شيء ، بل وربما يرى نفسه بداخل كل مشكلة من هذه المشكلات .. إستعاد ذهنه نقطة التحول الأساسية فى حياته حين تغير فى لحظة واحدة كل شيء .. وتعين عليه أن يغادر بلاده ليغوص فى قلب جحيم يجهل عنه كل شيء ، ربما إستطاع أن يحس قليلاً بزهرة وهى تسابق القدر فى ذلك اليوم راجية أن تنقذ زوجها .. ربما تمنت

فى تلك اللحظات أن تسبق كل شيء ، حتى الله – جل شـــأنه – ، جزء من عقلها يتصور أنها قادرة على تحقيـــق مأربهـــا .. والجزء الأكثر عقلانية يعلم أن كل شيء ينفلت من بين يديها كالرمال ، وإن تقبض يديها بأقصى ما تستطيع لن ينقـــذ لهـــا سوى الفتات ..!! .. أكملت منة :

– أول ما وصلت الشارع كانت الطيارات عم بتطير فوق راسها ، والصواريخ فعلاً دمرت كل شي .. حكيـــولى أنهـــا كانت ماشية تحكى لحالها وهى عم تجرى ، ماسكة جزمتـــها الكعب العالى بإيدها والدم مغرق وجهها .. بتحكـــى لحالهـــا !!!؟

إبتسمت منة بمرارة من ذلك التشبيه ، وأردفت:

– .. بعتقد انها كانت بتدعى الله يلطف بيها ، وأول مـــا وصلت العمارة كان مستحيل تصدق أنه هايدا يللى صـــار .. حست إن الطيار إختار عمارتها بالذات من شان يدمر بيتـــها ، حست إن إسرائيل إحتلت فلسطين بالذات من شان تدمر بيتها !! ... لأول مرة بحياتها حست بمعنى الإحتلال ، وإن بيتها مـــا كان ملكها ، لكن فى عالم عم بيتحكموا فيه من السما وكأنهم شياطين ..

.. حاولوا الجيران يمنعوها ويقولولها إن البيت إحتمال يقع وهى جواه ، وإن شباب المنطقة طلعوا يحاولوا ينزلوا الأحياء ، بـــس أكيد كانوا متل اللى عم يقف قبال موجة عاليـــة فى البحـــر

وبيترجاها ما تنزل من فوق .. طلعت تجرى وسط الدخان والطوب والبيت المحروق ، والناس اللى عم بتصرخ فى كل مكان غرقانين بالدم .. ورجلها الحافية عم تدعس فوق الأرض ودخلت فيها شي ميت حته قزاز وميت حتة طوب .. وشافت المنظر اللى إتمنت طول حياتها إنها ما تكون شافته .. شافت زوجها مرمى ع السرير ، والسقف مفتوح على الشارع .. والنور عم يدخل من كل شى مكان ، كان زوجها ميت ع السرير مغمض متل الملاك ... وف حضنه كانت واحدة زميلته فى الجامعة نايم معاها .. ميته وعريانة .. !!! قطبت منة حاجبيها فجأة ، وبدأت عينيها تتجمعان بالدموع، فى حين فكر الأصلع بالقصة من جديد .. لم تتخذ منحنى دراميا مؤسفاً كهذا على الرغم من أنها تحولت إلى النقيض ، ولكنه إندهش من هذه الحكاية المذهلة ، والتى تختفى خلف القناع البراق للسيدة التى إستقبلته فى شونة الغلال بمنتهى الثقة ، خيانة زوجها ومصرعه هما ما جعلها تتحول لمناضلة .. تضع الخطة تلو الخطة للإنتقام لحياتها السعيدة المفقودة ، حتى تلك اللحظات التى تسعى فيها لتحطيم إسماعيل المروان .. ومن منطق القوى الذى أحكم قبضته حول مجرم ضعيف طريد العدالة . رفضت زهرة أن تطلعه هو أو منة على خطتها بأى حال على الرغم من تساؤله الملح حول كيفية إستخدامها لهذه الأوراق ، فقط طلبت منه المساعدة فى أن يحاول ترشيح أى شخص قد يكون صديقاً مشتركاً بينه وبين إسماعيل ، وهى

ستقابله وتحاول إقناعه بمساعدتها .. ولو فى مقابل مبلغاً من المال ، وإندهش الأصلع لحماسها البالغ الذى بدا له وكأنما يتجاوز الحماس التقليدى للعمل ، فسألها على نحو مباشر:

– باين كده إنك متحمسه جداً للموضوع ده ..

فإبتسمت وهى تدارى حنقاً أكيداً ، ثم قالت :

– بتعرف القضية اللى إتورط بها إسماعيل من قبل ونشرت تفاصيلها بالجرايد ، كانت هايدى بداية تعامله بصفقات السلاح .. كنت أنا المسئولة فى العملية ، إندسيت كوسيط بينه وبين تاجر السلاح المعروف أحمد شاكر .. رتبنا كل شىء ، أنا ورجال المقاومة وجهزنا كل الأوراق المطلوبة .. كانت خطتنا نوقع إسماعيل الأول لأنه أضعف الموجودين ، وبعدين يعترف هو على أحمد شاكر ، وبعدين .. وبعدين ... وفجأة... طلع من القضية فى الجلسة الثانية ، كانت قوة الإسرائيليين كبيرة ، قدروا يخرجوا إسماعيل ويسيطروا عليه وفى نفس الوقت صار من أكبر رجالهم فى فلسطين ، كل العملية إتشلعت ..

قال الأصلع فى حرج محاولاً أن يبرئ ساحته :

– أنا صحيح كنت عارف عن القضية ، بس ماكنتش أعرف التفاصيل .. ولا إن إسماعيل بيتاجر فى السلاح ..

كان يكذب بوضوح أمام قوة هذه السيدة ، فما كان خفياً عليه هو فقط طبيعة تلك الأسلحة ، وهى حلقة أخيرة فى

سلسلة من الأخطاء الفادحة التى تجاوزها فى بساطة ، وحينما يفكر فى الأمر بهدوء وموضوعية .. يدرك أنه لولا ما حدث فى الكهف الحجرى – وحتى لو علم نشاط إسماعيل فيما بعد – كان سيتجاوز الأمر تماماً ويغض الطرف عنه وربما يتعامل مع إسماعيل مرات أخرى ..

ليس من الذكاء فى شىء أن يضع نفسه فى صفوف الأخيار لمجرد قيامه بعمل بسيط كهذا ، صحيح أنه يعرض مستقبله المهنى وسمعته للخطر.. ولكن هذا لا يساوى شيئاً أمام تضحيات من يقوم بواجب وطنى حقيقى تجاه وطنه ، وربما أدركت زهرة غالب كذب جملته المحرجة أو لم تفعل ، المهم أنها قالت له فى هدوء:

– بيكفى إنك جيت لهون وقدمت لنا المعلومات اللازمة ، أنا بيشرفنى مساعدتك لإلنا ..

***

إنتهت زهرة من عباراتها المقتضبة التى حاولت أن تشرح بها لمحمود – بأكبر قدر من السرية – ما تنتظره منه إن وافق على المساعدة ، وبقيت تتفرس فى وجهه لحظات من موقعها على المقعد المواجه للباب .. واضعة ساق فوق ساق فى ثقة ودود ربما كانت مقصودة لإجتذابه ... على الرغم من أنه لم يتحرك طيلة اللحظات الماضية وظل واقفاً أمام الباب وكأنه ينتظر أن تفرغ من حديثها وترحل فى سلام .. طالت فترة سكونه ولم تستطع تبين أى بوادر لقرار معين فى ملامحه، فقالت فى مزيج من الحرج والتفهم للطبائع البشرية:

- بعرف إن الموضوع منه مريح .. لكن باحلف لألك ما في أى مخاطرة بتقع عليك، ورجالتنا كلها بتحميك .. وعموماً في مكافأة لألك من رجال المقاومة إذا ...

قاطعها قائلاً في حيرة:

- منا مشكلة مصارى ، بس ما بعرف ...

صمت وأطرق برأسه دون أن يتمم الجملة ، ثم رفعها ببطء متطلعاً نحو التليفون الأسود الذى بدأ في الرنين ، إستمع للحظات لرنين الهاتف دون أن يحرك ساكناً .. فقالت زهرة:

- مش هاترد ؟

كان يبدو أمام عينيها واقعاً في شراك التفكير الشارد، كررت ندائها من جديد.. فإلتفت إليها فجأة كأنما إستفاق من غيبوبة عميقة .. عميقة جداً ، أكثر مما تخيل هو بكثير ، عادت الموجودات تتلون بألوانها الحقيقية وإبتعد الشرود الذى كان في عينيه ، لتحل محله التماعة تصميم مفاجىء:

- أنا راح ساعد بها الشغلة.

حزم محمود أمره في ثوان ، وكأنه شخص غيره ، فإبتسمت زهرة في إرتياح عميق ، وقامت من فوق المقعد في اللحظة ذاتها التى توقف فيها الهاتف عن الرنين المزعج ، وغرقت الغرفة من جديد في السكون، ثم تقدم محمود نحوه ونزع السماعة من مكمنها وتركها فوق المنضدة مستمعاً لصوت الحرارة المنبعث للحظة .. قبل أن يبتعد وينظر نحو التليفون الذى أصبح عديم

الفائدة ، وإستدار ليوصل زهرة نحو الباب ، التى قالت فى لهجة عملية:

- التفاصيل كلياتها هاقلك عليها أول ما بعرفها ، هـاجى تانى لعندك هون أو هابعت حدا من الرجالة .. مـا تخـاف ، وتوقع أنه أى حدا يجى يكون من طرفنا ، أوكى !

إبتسم محمود فى إرتباك وقال:

- تمام .. وانا هاضلى ناطر أو اسيب خبر فى الإستقبال .

فتحت زهرة الباب وهمت بالخروج لولا أن لفت التليفـون ذو السماعة المرفوعة نظرها ، فقالت لائمة :

- هيك اللى بيتصل بيك بيلاقيك مشغول !

لم تفهم دافعه فى إيقاف تليفونه عن العمل ، ولا الشخص المعنى من هذا الوضع حتى لا يتمكن من الوصول إليه .. كانت تقصد رجال منظمة التحرير بجملتها، لهـذا شـعرت أن رده مستفز أو على الأقل بلا مبرر حين قال لها فى ثقة مختلفة عـن لهجته الطبيعية :

- وشو فى حدا قال غير هيك ؟! .. أنا فعلاً مشغول .

***

الفصل الرابع عشر

آخر فصول العراق

يتلبسه خوف مقيت منذ قام بكل شيء طلب منه ، خوف مقرف .. لعل هذا هو التعبير الذى يتناسب مع أفكار غسان بشأن هذا الخوف الذى يسد ملامح طريقه أمام عينيه ، وما كان يظن نفسه رعديداً إلى هذا الحد ، حسب أن هذا لن يشغله طويلاً إن كانت القنبلة سوف تطيح بالإستديو ومذيعيه فقط أم ستأخذه فى طريقها نحو الجحيم .. خال أنه إن قبض عليه فسيكون الخاسر هم رجال الشرطة ، وإنه سيجهز على أكبر عدد ممكن منهم قبل أن يردوه صريعاً ، لأن هذا هو ما عودته عليه سنواته الماضية المليئة بإستهتار المنتقمين .. سار فى الطريق المعوج المنحرف بإستدارات حادة طوال سنين إنضمامه للمليشية وهو لا يخشى شيئاً .. لا أن يسقط فى قرارة الهوة التى ينحدر فوقها الطريق ، ولا أن يبلغ نهايته مسرعاً .. مزيج من القوة والنشوة كان يغسل أعماقه كلما مضى فى الشارع خارجاً من دار فريد صديقه ، مرتدياً الزى الأسود مطموس المعالم والقناع الذى يخفيه حاملاً الموت فى يده على شكل معدن سوفيتى أجوف ، مشاعر كثيرة جداً كانت تعتريه و لم يكن الخوف من بينها أبداً .. لهذا قرف من نفسه ، ومن خوفه، ومن إختباءه .. !!

أخفى إنفعاله الظاهر فى سيجارة أخذ يسحب منها فى سرعة وضيق ، ووضع إحدى يديه فى جيب البنطلون مشيراً للميكروباصات المارة بيده الأخرى التى تمسك بالسيجارة .. ليلة حارة وكئيبة كالعادة ، لا يضيع من جو إكتئابها الإعتياد على الفعل ذاته ، فهى الليلة الخامسة عشر تقريباً فى مسلسل خروجه من موقع إلى آخر ، بل أن كل يوم يزيد يحفر فى أعماقه مللاً وإكتئاباً عظيمين .. و ربما كان الشارع المظلم الطويل وأضواء السيارات المارة مسرعة إلى جواره هو ما يزيده بؤساً .. توقفت سيارة الأجرة الميكروباص أمامه فرسمت أنوارها ملامحه المميزة ، بشعره الأشعث المجعد وطوله الفارع ، والنظرات المعذبة التى أضيفت حديثاً لملامح وجهه .. دخل إلى السيارة وهو يلقى بباقى سيجارته على الأرض، فى مزيج من الملل وخشية إثارة المشاكل مع ركاب السيارة ، وإنحنى ليمر بداخل الممر الضيق للميكروباص حتى جلس بعيداً فى الصف الأخير .. فى الظلام ! ، ومسحت عيناه الركاب فى هدوء محاولاً تبين أى مصدر للإزعاج فيهم ، حتى إنطلقت السيارة من جديد ليهب عليه الهواء البارد من النافذة المجاورة...

.. خالد أسامة ... !!!

الذقن الرفيعة المشذبة بعناية فائقة وإهتمام متميز بالنفس ، والعينين الباسمتين فى ثقة متحدية وكأنه سينقذ العالم من الشرور ويعيد كل شيء إلى نصابه ... أم النظرة الأخرى المعذبة التى إستقى هو نظراته منها ، والأقواس التى تحيط بالفم

كحصار عصيب لمدينة توشك على الهلاك ، أيهم هو الشخص الحقيقى الذى يعيش خلف أسوار البث المباشر والبرنامج السياسى المعروف ؟ تحول تام يطرأ على الأشخاص كلهم فى لحظة تسبق الحقيقة الواضحة .. كان هذا التحول الهائل فى ثانية واحدة ! .. ودام كذلك ثانية واحدة ! .. ولكن ثانية كانت كفيلة بتغيير كل شيء حتى ينمحى أى أثر للشخصية السابقة ، وتنحفر الملامح الجديدة فى وجهه ..

ثانية واحدة فقط !! وبعدها صارت الإنفعالات تراباً والنظرات تراباً ، والمذيع اللامع نفسه صار تراباً يتبخر فى هواء الأستديو المتطاير فى كل صوب على الهواء مباشرة ..

من يا ترى هو ذلك الشخص العبقرى الذى إبتكر فكرة التصوير البطئ لإنفعالات الشخوص فى السينما ؟! حتى فى الحياة نفسها لحظات تمر على المرء يتجمد فيها الزمن حتى يستطيع أن يرى كل دقيقة من دقائقه تمر أمام عينيه ، وتمضى الثانية فى دقائق .. حين مرق بداخل الأستديو مسرعاً وفتح الباب الخشبى متجاهلاً المصباح الأحمر المضيء لإعلان بدء البث المباشر كان قلبه يدق فى كثافة متوترة ، ولكن الزمن كان يمضى كما هو .. سريعاً ومزدحماً بالتفاصيل، حتى وهو يقف أمام الزجاج مباشرة ويرى من بعيد خالد أسامة داخل غرفة البث المعزولة وهو يراجع الأوراق ويتحدث مع أحد الأشخاص بالمكان ، حتى وهو يبصر الضيف الشيعى الجالس خارج الغرفة يترقب موت المذيع بالداخل، والضيف السنى الجالس على منضدة الحوار فى إنتظار بدء البرنامج .. كل هذا

مر بصورته المسرعة التقليدية ، ولكن كل شيء تغير فى اللحظة التى رفع فيها المذيع عينيه وإصطدمتا بعينا غسان المحـدقتين .. لابد أن مظهره كان جنونياً ، و لابد أن شحوبه كـان يـبرز توتره بشده لأن المذيع تعرف نيته على الفور ، نظر إليه بقلق و رجلى الأمن مندفعون خلفه من باب البلاتوه ، ومـن خلـف الزجاج اللامع الذى يعكس كل شيء حـتى الـصوت ، رأى ملامح المذيع تنقلب فى بطء شديد ، وفمه يصرخ بعبارة مـا حجبها الزجاج العازل ، وتجمد الزمان للحظات !! الملامـح الخائفة المتوترة، والفم المستدير فى صرخة أبرزها إلتفاف الذقن الرفيعة وهى تحاصر الصرخة من كل مكان .. الضيف الشيعى الذى نظر بنظرة ملؤها الإبتسامة دون أن يبرز ذلك على شفتيه ، والحيرة التى شملت الجميع حتى رجلى الأمن ذاتهما ، كل هذا مر ببطء ، أو لم يمر على الإطلاق .. فقط تنبه الجميع ، وعـاد الزمن لسريانه عندما تشرخ ذلك الزجاج العـاكس بقرقعـة مدوية ، وإندلع الإنفجار الناسف الرهيـب مفتتـاً الـديكور ومطيراً الزجاج فى كل صوب .. إنتهى كل شيء بإزعـاج لا حد له ، وبغبار ملأ المكان وصرخات من كـل الموجـودين ، وإستغل هو الهرج والمرج ليفر بسهولة ، على الرغم من الـدم الذى يترف من جسده من شظايا الإنفجار.. ولا يزال جسده يترف حتى هذا اليوم ، وعيناه ترسمان التعبير المقتول فوق وجه المذيع .. هز رأسه متطلعـاً للـرؤوس المتجـاورة أمامـه فى الميكروباص الضيق ، حيث كانت مجموعة من الشباب تتحدث

فى صوت عال بلهجة مليئة بالمزاح والسخرية ، فى مثل سنه تقريباً ولكن يبدو عليهم من أناقة مظهرهم أنهم من طلاب الجامعة .. حتى بالرغم من لهجتهم السوقية فى الحوار وتبادل السباب المقذع !!.. ظهر صوتهم فجاة فى فضاء الليل حين مرت من أمام الميكروباص فتاة غير محتشمة ، وتزاحمت عبارات السخرية مع الضحكات لتصنع مزيجاً ملفت الأنظار حتى تحول الميكروباص إلى سيارة خاصة بالشباب ينبعث منها كلامهم الصاخب العالى .

أطبق غسان حاجبيه فى قسوة وهو يلتفت من النافذة المجاورة متطلعاً للطريق ، باغته ضيق حاد بمسمع الفتيان المتضاحكين ، آخر ما يريد هو أن يلفت صوت الشباب إنتباه أحد لجان الشرطة المقامة على مداخل الأحياء ، وبالذات فى هذا الجو الملبد بالصراعات حيث يصبح فحص بطاقات الجالسين وارداً جداً .. تأفف وحاول أن يسترخى فى جلسته دون جدوى ، وحماس الحوار الدائر يزداد بين الشباب ..

– أى .. إشلون أهلها ها الحين .. وهى خارجة هذا الوقت؟!

– وانت مال أهلك .. هذا القمر يخرج وقت ما بيريد ..

يتضاحك الشباب لثوان قبل أن يهتف أحدهم مازحاً بلحن الأغنية المعروفة:

– كل ما تكبر تحلى .. وتصير أحلى وأحلى .. !!

ضحكات هستيرية تنبعث من شاب جالس قبالة البـــاب ، وصوته المحشرج يهتف فى مرح :

- لو كاظم سمعك بيتركلك الساحة ، صوتك أوين يطرب.

ثم المزيد من الضحكات المجنونة ، حتى دفعت شفتى غــسان للإنفراج عن بسمة مكتومة برغم ما يعتصره من خوف ، وسمع من جديد صوت الفتى الذى كان يغنى حين واصل أغنيته:

- بين الخد والحاجب سحر العالم كله ..

.. مرت من شارعنا، سكتت كل الجهوة ، عظينا أصابعنا إعجاباً بالحلوة .. واحد هز الشارب وواحد حرك حاجب .. هى إرتبكت عثرت ضحكت صاح الكل ..

وبالفعل على قوله صاح كل الــشباب بــصوت واحــد ضاحك:

- .. إسم الله ..

ثم بدأ التصفيق يتعالى من بينهم ، وأشاعوا بين الركاب جواً من المرح وهم يكملون بصوت كورالى واحد:

- بارد حبهم بارد .. وحبى اللى يشفى العلة ، يبعد واحد واحد وخلوا الحب لأهله ..

ليش تهز الشارب..

على الرغم منه ، تتسع إبتسامته مع هتاف الشباب الغنائى ، وتبدأ شفتيه تلقائياً فى ترديد باقى مقطــع الأغنيــة بــصوت خفيض، وقد إنشغل بالغناء عن خوفه المقبض :

- .. وليش تحرك حاجب .. مسكينة إرتبكت عثرت ضحكت صاح الكل إسمالله ..

- وقف هنا !

ظنه فى البدء صوت أحد الركاب الذى يتأهب للنزول، ثم فطن لمقدم الصوت من الخارج من جوار نافذته .. كانت اللجنة بالفعل قد إنجذبت للغناء العالى ووقف أحد الجنود أمام الميكروباص ، فتوقف السائق عن المضى فى الطريق .. وإنفتح باب الميكروباص ليكشف عن ضابط اشيب الشعر ذو عين حولاء .. لم يبد أى تغيير على راكبى الميكروباص حين أطل ذلك الضابط متفحصاً وجوههم من موقعه ، شاع بالتأكيد جواً من التوتر فى سماء المكان ، ولكن رهبة غسان وخوفه من إفتضاح أمره كادا أن يوقفا قلبه بين ضلوعه ، وتابع فى توتر الضابط الذى ينظر بين الركاب بلا أى تعبير . وعينه الحولاء تمنع غسان من تحديد موضع نظره بشكل يقينى .. وتوقفت العينان للحظات على الأريكة الخلفية حيث يجلس ، وإستعد لأن يجابه الموقف بأى طريقة مناسبة وهو يتوقع النداء القادم .. ولكن مجيء النداء نفسه فاق حتى توقعاته ، وسبب له إرتعاشة فورية وخفق قلبه بعنف حتى دق فى أذنيه ..

- أنت .. بطاقتك !

تأمل ملامح الضابط فى ذهول وعقله يعمل بسرعة بالغة ، هم بتحريك جسده لكى يخرج من السيارة ، حين أخرج الشخص المجاور له بطاقته فى هدوء ومد جسمه ليضعها فى يد

الضابط .. كان الجالس بجواره رجلاً ملتحياً مريب المظهـــر ، حينها فطن غسان إلى أن شعره المجعد وفانلته المطبوع عليهـــا عبارات أمريكية جعلته بعيداً تماماً عن موضع الـــشك الـــذى يتوقعه .

غاب الضابط للحظات تاركاً باب السيارة مفتوحاً ، ثم عاد ليعطى البطاقة لصاحبها ، وتوقفت عينه الحولاء للحظة أخرى مرعبة فوق وجه غسان ، ثم إلتفت إلى السائق قائلاً :

- إطلع ..

فتحركت السيارة فى الفراغ الأسود المحيط بها من جديـــد ، وإستعاد غسان هدوئه المتبخر بإبتعادهم عن موضع اللجنـــة .. ولكن إستمتاعه باللحظة الماضية وغناء الشباب غاب فى سهولة إلى الأبد .. وحين عادوا من جديد لغناء أغنية خليجية إيقاعيه كان إكتئابه قد سيطر على حواسه فأسند رأسه على الزجـــاج البارد للسيارة وغاب فى أفكاره حول خوفه المقزز المقرف من كل شيء يحيط به .

***

حين خرج من الأستديو فاراً فى أغلال جراحـــه الممتـــدة ورقاقات الزجاج المهشم تلتمع فوق ملابسه ، كان أول مـــن فكر فيه هو إبراهيم ! .. صديق له تذكره على الفـــور علـــى الرغم من أنهما لم يتقابلا منذ أيام رحلاتهم المشتركة إلى مينـــاء شط العرب فى الجنوب .. كانا صديقين منذ ايام الطفولة ، ولم يعكر من مياه صداقتهما إنضمامه لحـــزب الفـــضيلة وجـــيش

المهدى ، ولا إنضمام إبراهيم للمجلس الأعلى وفيلق بـــدر .. على الرغم من الخلاف السياسى بين المليـــشيتين والقـــائم فى أساسه على بسط السلطة الشيعية الموالية لإيران على المنـــاطق الجنوبية فى العراق ، و تصادف أن تقابلا مرات عديدة فى ميناء شط العرب ، حيث تنتظر القوارب التى تحمل المنـــدوبين ذوى الجنسيات المختلفة — ما بين إيران والكويـــت والإمـــارات — والتى تقبع فى إنتظار كميات النفط المهرب التى تستطيع تلـــك المليشيات الحصول عليه ، بالطبع لم ينس أحد وعد عبد العزيز الحكيم قائد المجلس الأعلى الذى وعده لإيران بتعويضها ماديـــا بمبلغ ١٠٠ مليار دولاراً .. و لم يتساءل أحد عن طريقة دفـــع هذا المبلغ الكبير ..!! كان القتال يحتدم أحياناً بين المتنازعين من الشيعة حول النفط المهرب ، وتسربت أعمال العنف لجميـــع المستويات ، ما بين تدمير مراكب ، وضرب وقتل أحيانـــاً .. ولكن الجميع قد توصل مع مرور الوقت لحلول وسطى تتـــيح للجميع تهريب ما يشاء ، والحصول على الـــدعم المـــادى أو العسكرى من الجهة التى يختارها .. وتحول المينـــاء إلى شـــبكة إجرامية دولية تتحرك من خلفها جميع السياسات المتـــضاربة فى العراق ، ولا يختص بها الشيعة وحدهم .. فتلك الجهات كانت بدءاً من السنة الذين يطردون من منازلهم، وحـــتى الإيـــرانيين الذين يتغلغلون فى كل شيء ..ولكن لم تؤثر تلك الظـــروف على الصداقة التى جمعت بين غسان وإبراهيم من قريب أو بعيد ، وخاصة أن تلك الصداقة كانت سطحية بما يكفى لتظل بمنأى عن المشكلات ، وتقوم فى عمادها علـــى الـــسؤال المتبـــادل وكذلك الخدمات فى بضع ظروف نادرة .. وقد كان غـــسان يعرف جيداً أن إبراهيم فى بغداد هاته الأونة ، لذلك فكـــر فى

الإتصال به لتدبر مكان للهروب .. فكر بالطبع أولاً فى فريد جاره وصديقه من الحزب ، وفى أمه وفى العودة لمدينة التويثة .. ولكنه قد أخبر من سلمه المتفجرات بإحتمالية تفجيره لنفسه خلال العملية ، وكان بالفعل ينوى هذا ، ولكن شيئاً ما بداخله جذبه لئلا يفعل ، ربما الخوف أو غريزة البقاء أو مزيج من هذا وذاك .. لهذا بعدما خرج من الاستوديو ورحل حتى منطقة مأمونة حيث أمكنه أن يحس بلفحات الهواء ووجوه المارة حوله فى الشارع ، إمتلكه شعور غريب .. ! كان ميتاً .. بالنسبة لجيشه هو فدائى فقد فى تلك العملية ، شعوراً غريباً أن يحسب ميتاً .. ولكنه شعور هش للغاية كأنه غلاف زجاجى يحيط به ، من الممكن أن ينتهى فى أى لحظة لو إتصل بفريد أو بأى مندوب للجيش وأخبرهم أنه لا يزال حياً .. لهذا إستبعد تماماً أن يتصل بفريد فى هذا الوقت ، وشعر أنه بحاجة إلى فترة هدنه يلملم فيها أفكاره التى كان يتذرع بها والتى هدمت كلها عندما إرتكب لتوه أولى عملياته الإغتيالية الخاصة ، شعر بأنه يتغير .. وأنه بحاجة لمكان وأشخاص جدد يلائمون هذا التغير ولو لفترة قصيرة من الوقت ! بعدها ربما يذهب للحزب ويقول أنه كان هارباً بإنتظار أن تهدأ الأمور ، وكأن الأمور تهدأ ابدا فى بغداد .. !!!حدثه تليفونياً أولاً ، وطلب منه أن يطمئن الأم العجوز على إبنها .. ويقول لها أنه سيبيت مع صديق له عدة أيام خارج بغداد .. ثم حدد مكاناً للقائه .. وبالفعل قدم إبراهيم سائراً فى هدوء، قادماً من سنتين مضيتا على آخر لقاء بينهما حتى وصل إليه ، وتحدثا كثيراً – بالأحرى تحدث إبراهيم كثيراً – ولكن من دون حماس اللقاء بعد غياب ، ودون أن يشير أحدهما ولو عرضاً للجراح الغائرة وشظايا

الزجاج فى جسد غسان ، ولا للدماء التى أضحت تغطى ملابسه كلها بعد قرابة ساعتين من العملية .. كانا يتحدثان بهدوء ودون تساؤلات ، وكأن غسان يرتدى أفخر حلله ويقف متسامراً معه فى أمسية هادئة !

كان إبراهيم قصير القامة بشكل يتناقض مع طول غسان الفارع ، يبدو لمن لا يعرفه وكأنه أبله قليلاً .. بجسده الممتلىء وحديثه الثرثار المستفيض ، وكأنما يحيا ليتكلم ، يتنفس كلامه ويأكله ويشربه .. ووجوده فى أى مكان يمكن تمييزه بسهوله لأنه لا يصمت تقريباً .. حتى وهو يستمع إلى محدثه فى فترات بين كلماته ، يهز رأسه ويهمهم فى فهم ويقاطع الحديث كل عشر ثوان تقريباً ، لهذا كان الحديث الذى تبادلاه مؤثراً وطويلا .. يمتلىء بنقد قاس للحكومة ، وحوار كبير حول الوضع السياسى الحالى للبلاد والكثير والكثير من الهراء المماثل.. ركبا سيارة إبراهيم ومضى فى إتجاه بيته .. وإبراهيم يقود ويتحدث فى ذات الوقت ، كأنه يخشى أن يصمت فيموت فجأة ..! وعلى الرغم من ثرثرة إبراهيم كان فيلسوفاً متعمقاً.. أفكاره محددة وولائه محسوم الجانب ، فلم يكن مثل غسان ممتلىء بترهات الافكار والمشاعر المتناقضة . وقد مثلت تلك الأيام — أيام تهريب النفط فى شط العرب — الكثير بالنسبة لكليهما على الأقل فى تحديد سياستيهما من الحياة ، حيث كان إبراهيم فى أحاديثه السابقة مع غسان — بصفتيهما من المثقفين — يرى أن هذا الميناء يمثل السياسة العراقية الأبدية بعينها حيث

الطوائف تتناحر وتتفق وتختلف بلا ولاء ذو فكـــر محـــدد ولا قضية بعينها ، وكان يستند فى أفكاره إلى مذكرة الملك فيصل الأول الشهيرة التى كتبت فى ١٩٣١ .. حيث قال فيها:

- إن البلاد العراقية هي جملة من البلدان التي ينقصها اهـــم عنصر من عناصر الحياة الإجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية و القومية و الدينية فهي والحالة هذه مبعثرة القوى منقسمة علـــى بعضها و بالإختصار اقول إنه في إعتقادي لايوجد في العـــراق شعب عراقي بعد بل توجد كتلات بشرية خالية من اي فكرة وطنية ، هذا هو الشعب الذي اخذت مهمـــة تكوينـــه علـــى عاتقي!! كانت هذه هى فلسفة إبراهيم بإختصار، ولكنـــه لم يعبأ بتكوين الشعب العراقى أو غيره ، كان من فلاسفة الحرب، فيلسوف صنعته ظروف ضائعة فخرج للحياة لا يؤمن بشيء ، فقط يعبأ بالولاء للمال والسلطة والملذات الدنيوية الحالية بـــلا أى تفكير وطنى أو روحانى أو دينى .. شيوعى ؟! لا .. بالطبع ليس شيوعياً ! فالشيوعية فى حد ذاتها تمثل بالنسبة له مـــذهبا وعقيدة ، فكتاب رأس المال هو إنجيلهم وقرآنهم، والكـــرملين هى الكعبة ولينين هوالرسول ، ورسالته هى مذهبهم فى خلاص البشرية من الصراع الطبقى وتحقيق جنة العمال، وهو لا يؤمن بالمذاهب ولا العقائد ، ولهذا ظل طيلة الوقت أقل الخيـــارات إثارة للخشية بالنسبة لغسان ، والملاذ الأخير له فى مواقف مماثلة ، فهو لن يشي به أو يرفض مساعدته لمبدء أو فكرة ما .. ولهذا وقع عليه إختيار تسليم حياته ليديه ...

حدق غسان فيه طويلاً وهو يقود السيارة ، بصمت دائم وهو يستمع لحديث إبراهيم الثرثار ، ثم قال وكأنما تذكر:

- إتصلت بالحاجة ؟

إلتفت إليه إبراهيم مقاطعاً حديثه ، ثم نظر ثانية للطريق وهو يقول:

- إيوه .. وخبرتها إللى قلتلى بالحرف ، ما صدقتنى وقالتلى روح يالكذاب ، ولدى إنصاب وما تريدو تخبرونى ..

- وإيش قلتلها ؟

مط شفتيه قائلاً:

- وإيش يعنى بتريد أقول ، قلتلها إنه هذه الحقيقة .. وإنك زين ، بس هى ما عطيتنى فرصة ، وسكرت التليفون بوجهى.

تنهد غسان بعمق ، وقد عادت مشكلة أمه للظهور من جديد بعدم تصديقها .. عما قريب سوف يأتى لها رجال فيلقه فى جيش المهدى ، وربما يرسلون لها فريد صديقه من أجل المزيد من التقدير .. تصوره فى عقله يقف أمامها مطأطأً رأسه وهو يقول فى صوت يغلفه الأسى :

- الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه الحكيم " كل نفس ذائقة الموت " .. خلى إيمانك بالله قوى وهذا القضاء والقدر ، واللى كاتبه الله ليكى ولغيرك ..

ثم ينتظر برهة حتى تتمكن الأم من فهم الجملة من دون الحاجة لتكملتها، ولتصير كلماته المؤسفة التالية مخففة الوقع :

- الموت حق علينا .. وعظم الله أجرك بولدك غسان ..

تصور صرخات أمه .. ودعواتها له بالرحمة والمغفرة ، وربما إغمائها على الأرضية الفقيرة أمام باب المنزل .. وقلبها ! ربمـــا لا يتحمل الصدمة فتأخذ الخبر بوجهها كالقذيفة وتمو......

نفض عن فكره كل هذا وهو يقول فى جزع:

- أريد أتكلم وياها .

- أول ما نوصل ع البيت !

قال وعيناه تدوران فى محرجيهما كالمجنون ، بحثاً عـــن أى تليفون فى الشارع خارج السيارة :

- لا .. ها الحين .

توقفت عينا غسان فجأة أمام التليفون المحمول الذى وضعه إبراهيم فى يده ، فطلب رقم المنزل ولصق حرارة التليفون بأذنه فى لهفة ، حتى وصل إليه صوت الأم العجوز المتلهف :

- غسان ؟!!

- أمه.

- إنت غسان يا ولدى ..

قال بإنفعال:

- أنا غسان يا أمه ، أنا بخير وأريدك ما تقلقى على .. بس هاقعد كام يوم بره بغداد لين ما تنتهى أعمالى وأجيكى .

– غسان ، ليش تعمل هيك فى أمك المسكينة .. أنا عرفت إنك إنضميت لجيش الخونة .. ليش .. ؟

تبكى الأم بحرقة خلف سماعة التليفون دون أن يفهم كيف عرفت بهذا ، وفجأة إصفر وجهه بشده حين سمع صوت فريد قادماً من بعيد عبر التليفون .. إختلطت الأصوات للحظة ثم سمع أمه تقول لفريد :

– لساه حى .. مو قلتلك يا ولدى ، لو مات كنت بعرف الحالى ..

أطلقت أمه زغرودة كبيرة وسط البكاء .. وصوت فريد المذهول يتأكد منها بصدد الخبر ، وأخذ منها سماعة التليفون .. فسمع غسان أنفاسه وهو ينصت للطرف الآخر ، ثم جاء صوت فريد :

– ألو .. غسان ؟!

صمت غسان تماماً وهو يعتصر التليفون الصغير فى يده ، وقلبه يخفق بعنف .. هل يرد ؟ فشلت خطته فى الإختباء عن جيشه والتظاهر بالموت سواء رد أم لم يفعل .. كيف وصلوا لأمه بالخبر بتلك السرعة و لم تمض سويعات على حادث التفجير ؟! وهل من الممكن أن يعتبروها عجوزاً مخرفة تتخيل الأشياء إذا لم يرد ؟ إذن لمن كانت تتحدث ؟!!! ..

– غسان .. هذا أنا .. فهد زميلك فى السرية ..

ابتلع ريقه فى توتر ، وهو لا يزال بين رد ورفض .. ثم لم يدر بماذا قد فكر ولكنه أغلق الخط ضاغطاً على الزر الأحمر فى

التليفون الصغير !! .. أقفل السكة الوحيدة المفتوحة بينه وبين أمه دون أن يغلق الشكوك الواضحة التي حامت حوله ، ثم إرتعشت يديه بشده وسقط التليفون على فخذيه وقد إرتعش جسمه أيضاً وبدأ في النحيب الطويل ، بكى مستنداً برأسه على يديه خوفاً على أمه وشفقة بها .. وجهلاً بمصيره الذى يتغير الآن في كل لحظة تمر به .. سأله إبراهيم:

- إيش سويت ؟ ليش وقفت الكلام وعم تبكى ؟ إيش قالتلك إمك ؟

لم يرد غسان وهو مستغرق في نحيبه ، وبعد ثوان رفع عينين محمرتين بالدماء وقال في لهجة غير مفهومة :

- وقف .. وقف يا إبراهيم .. ما بقى ينفع أروح بيتك ، لازم أختبى بمكان .. صاروا بيعرفوا إنى حى ومو مت.

***

نظر له نظرة طويلة مستنكرة، ثم قذف بمجموعة من الأردية وكساء للفراش على طول ذراعه فإستقر فوق الأرضية التى تفوح برائحة الشحم ...

- بتفتكر إن انت بتخدم بلدك ولا نفسك ؟ ولالا إيش تظنك بتسوى بالضبط ؟!

قال له إبراهيم في صوت جاف كالقش، حاد كالصخور .. تتكسر الحروف على أطرافه فتسقط في أذني غسان بدوى

مزعج، فى وقت لم يعد فيه أى متسع لجلد الذات أو الحـــديث عن أيديولوجية الحرب .. كان إبراهيم يجره بإصـــرار طـــوال الطريق إلى منطقة من المناقشة يعرفانها جيداً.. ووصـــلا إليهـــا مراراً ، ولكنه هذه المرة إستشعر نبرة مختلفة فى الحديث..

استمع قليلاً للصدى الذى يتردد بإستمرار لكلمات إبراهيم خلال الورشة الواسعة الشبه خالية، وهو يجيل بصره فى أكداس الأسلحة المفككة والصناديق الملقاه فى كل صوب ، كانت تلك الورشة المخربة هى أفضل ما استطاع إبراهيم تـــوفيره بعـــدما رفض غسان الذهاب إلى بيته.. ورشة حدادة عادية فى المنطقة الصناعية فى منطقة البياع جنوب بغداد ولكنها فى الحقيقة تقوم بصناعة القاذفات الأنبوبية، و منـــصات إطـــلاق صـــواريخ "الملوتكا" الروسية التى تستخدمها المقاومة العراقية !!

– إبراهيم .. ما بريد نتكلم فى هذه الأشياء ..

– هايل..

نفخ إبراهيم فى ضيق وبدأ يتحول إلى الغـــضب، وغـــضبة إبراهيم ليست بالشىء اليسير بالنسبة لهدوءه الدائم وإبتـــسامته المتهكمة .. قال فى صرامة:

– ما تريد تتكلم !! .. العالم كله إتغير بعد ثـــورة الإمـــام الخومينى بإيران ... بتعرف ليش؟

حاول غسان الإعراب عن عدم إستعداده للحديث ثانيـــة ، ولكن إبراهيم أكمل:

– لأنها ثورة ناجحة ، وغضبة شيعية من شـأنها تنقلب موازين القوة .. لكن إيش صـار بعـدها ؟ الثـورة أكلـت رجالها..كلت الشيوخ المناصرين مثل ما كلت رجال الـشاه ، وكلت م الإيرانيين مثل ما كلت من العراقيين..

قال غسان هازئاً:

– يا سلام ! إحنا ما بنقوم بثورة .. إنـت بهـذا الكـلام بتقنعنى إنك ضد الشيعة ؟!

– إفهم بقى...

صيحة مستنكرة غاضبة قوية، يتبعها تفسيراً حاداً:

– هذا اللى بتعمله ماكو منه هدف .. بتمسك سلاح إيرانى وتقتل عراقيين وبتختبى منهم ، لصالح مين ؟ .. بكره بيلاقوك السنيين وبيقتلوك أو بتقتلهم، لصالح مين ؟ ..

– لصالحنا كلنا .. لصالحك ولصالحى ولصالح إمى ، حـتى يصير لنا صوت فى البلد وما ننظلم أبداً من جديد .

أظلم وجه غسان قليلاً بعد هذا الرد .. وأردف:

– .. صوت ! هذه الكلمة اللى بنـسمعها فى إنتخابـات أمريكا ، اللى كان المفروض يبعتولنا إياها .. حتى ما تصير أمى تعيش وسط حى مليان بالسنة ، بيكرهوها ويعاملوهـا بكـل سوء .. وهى تقولى لا تاخذ ببالك يابنى هذوله أهلنا برضـه ، وفيهم اللى بيحبنا ..

... لكن أنا بعرف ، ماكو حدا بيحبنا ، لهذا فر أبوى من البصرة وهو بعد شاب ، لهذا صار مجنون بيقتل ويضرب ويهرب من زوجته وأولاده .. لهذا كان أخوى كاظم فى أول صف من الجيش ، ومات فى أول الشهدا .. لأنه شيعى.

صمت غسان قليلاً وهدأت أنفاسه ، وكأنه يقاوم المزيد من الحديث الثائر ، ثم أجاب من جديد بلهجة مختلفة:

- واذا كنت بتريد صالحى .. أنا باخد من الجيش أضعاف الدنانير اللى أى حدا بياخدها فى أى عمل تانى ، وف أيام الشغل باقبض بالدولار.. تفتكر مو هايدا لصالحى أنا .. !

سار إبراهيم حتى مقدمة الورشة ، والباب المعدنى المفتوح لأعلى .. ووقف قرابة الباب قليلاً وكأنه لن يرحل ، ثم قال:

- بتقعد هنا يومين تلاته .. حتى أدبرلك مكان أحسن من هذا.

ثم إستطرد وهو يخرج فى الليل المعتم الحار بالخارج:

- ... إنت غبى ..

وجذب الباب المعدنى من أعلى حتى أغلق عليه باب الورشة من الخارج.. ورحل...

ارتمى غسان بثوبه الدامى فوق كتله الأردية التى تركها إبراهيم ، وكشف وجهه عن تعبير مبهم فى ضوء الكشاف الضئيل الذى يملأ الورشة بالظلال .. كان متعباً من جراء يومه القاسى ، ومتعباً أكثر من جراء الأيام المضنية التى تنتظره فى

فرار بدا له بلا نهاية .. قضى يومين فى تلك الورشة ، ثم إنتقل إلى ورشة أخرى ثم أخرى .. كلما حاول أن يكلـــم أمــه فى التليفون كان عقله يناشده ألا يفعل ، هذا هو مـــا يتوقعـــون تماماً.. بالتأكيد يراقبون تليفونه ويجلسون إلى جوار أمه بـــأى حجة مراهنين على نفاد صبره .

والحق أنهم كادوا يكسبون هذا الرهان مرات عدة خـــلال الأيام الأولى لفراره .. تلك الأيام التى كان يحرص فيها علـــى متابعة قنوات التليفزيون وبالذات قناة بغداد، يتابع إذاعة القناة للخبر الحزين بوفاة خمسة من عامليها على رأسهم المذيع اللامع — الذى كان لامعاً — خالد أسامة، تلك الحادثة التى أذيعـــت على الهواء مباشرة !! .. فى هذه الآونة دفعه الهجوم الحاد على مرتكبى ذلك الحادث من قبل القناة ، ووصـــفهم للمـــرتكبين بأوصاف إرهابية وحشية .. دفعه هذا إلى مهاتفة أمه ، علـــى الأقل حتى يبرر نفسه أمامها ، ويستجديها أن تسامحه تدعو له فى محنته هذه ، مادام غير قادراً على أن يحملها على الثأر الذى يشعل قلبه ويدميه، ولكنه ما جرؤ قط على أن يفعل .. وبعـــد هذا صار مشبعاً تماماً بحقيقة أن هذه المكالمة خطرة على حياته ، فصار ينتقل من مهرب إلى آخر بتقبل أكثر لقدره حتى يـــستقر فى مكان يتيح له التصرف بشكل لائق... وخلال هذه الرحلة الشائكة كان إبراهيم يزوره كل عدة أيام وينقله من موقع إلى آخر .. وفى أولى زياراته يتخطى إبراهيم حواجز آخر حوار دار بينهما ويعود كما هو تماماً .. يثرثر طيلة الطريـــق ، ويتـــهكم على كل شيء فى الحياة .. يـــذكره بالفيلـــسوف المعـــروف

شوبنهاور الذى يرى أن الدنيا لا شيء ، ولا تساوى إطلاقاً ما يعانيه الإنسان ، وكان غسان يرى فى صديقه أن تلك الفلسفة الوجودية المتشائمة لا تعكس سوى نقص فى حقائق الحياة ، أو بشكل أكثر دقة .. عدم وجود هدف من الحياة !

هكذا كان إبراهيم منذ عرفه ، يتهكم ويأكل ويشرب ويكسب المال ويضاجع النساء ويتاجر فى الممنوعات .. لماذا؟ لصالح من ؟!!! سأله إبراهيم ذاك لسؤال فى الورشة المليئة بصدى الصوت .. كأنه تحين فرصة وجوده فى هذا المكان كى يعود إليه السؤال مرات عدة فيخبطه من كل جانب وكأنه يوجهه لنفسه عدة مرات ..

لصالح من ؟ .. لصالح من؟ .. لصالح من؟ .. لصالح من؟!

عاد إبراهيم من جديد يتكلم ولكنه لم يتحدث معه قط حول مصيره أو ماذا ينوى أن يفعل فى المرحلة التالية ! فقط يأتى لينقله من مكان لآخر أو ليجلب له بعض المال والأخبار بآلية تامة ودون أى حماس أو فتور .. وكأن شيئاً ما قد تغير فى صديقه ، أوكأنه صار يؤمن بشيئاً ما .. أى شيء ، فقط لم يعد لتهكمه الدائم ذات المذاق الذى عهده فيه ، أو ربما كان إبراهيم قد أدرك فجأة أن غسان فعلاً أغبى مما ينبغى مثلما نعته فى الورشة ، ولكن هذا لم يمنعه من متابعة واجبه مع صديقه .. وتقبل غسان هذه الصفقة الصامتة برضا تام .

الليلة هو فى منزل على مشارف الطريق الصحراوى للمدينة، وصل إليه بعد إثنى عشر يوماً من التنقل .. لعن نفسه

على خروجه فى تلك الليلة ، لم تنجح تلك النزهة الليلة الخطرة فى إزالة توتره ، ولا حتى رحلة العودة فى الميكروباص حيـــث كان شباب الجامعة يغنون فى سعادة ، ذلك الـــضابط الـــذى إستوقفهم أعاد إلى أحشائه ذلك الخوف المقزز الذى ما إعتقد أنه يملك شيئاً منه من قبل .. ولكن يد الملل السوداء هى مـــا دفعه للخروج الليلة ، فإبراهيم لم يظهر منذ أودعه هذا المترل ، وقد نفدت منه السجائر بسبب أن معدل تدخينه تضاعف عدة مرات خلال تلك الأيام . لذا صار عليه أن يخرج ليعود بعلب السجائر والطعام والهواء الذى يتنفسه الناس خارج هذا المعتقل الإختيارى الرهيب.

القى الأشياء التى جلبها على أحدى الطـــاولات، وخــــرج ليدخن فى الشرفة ، وضع السيجارة فى فمه، والعلبة كلـــها فى جيبه .. بذلك المعدل من التدخين ربما نفدت العلبة قبلما يخرج من الشرفة ، وفى الطريق حانت منه إلتفاتة نحو المرآه .. فتوقف قليلاً .. كان شعره إستطال وصار أكثر تجعداً وتنـــاثراً حـــول جوانب رأسه ، وإكتسب وجهه مظهراً تعيساً مريباً .. كـــان الضابط خاطئاً حين فكر أن الشخص الملتحى فى الميكروبـــاص مثيراً للريبة، فمن يحمل تلك الملامح الكئيبة الآثمة بالتأكيد أكثر إثارة للشكوك ، وكأن على وجهه لافتة تعترف بما إقتـــرف .. ما هذا الهراء!! صار عقله يخرف منذ أصبح يجلس وحده معظم الوقت ، أغلق أنوار الفيلا ليعطى لنفسه جواً هادئاً ، ثم توقف عن التفكير وهو يفتح باب الشرفة الذى إنفتح بصرير معـــدنى

مهيب فى ذلك السكون الليلى الموحش ، وعلى الرغم مـــن أن شهر آب لا يزال فى مقتبله إلا أن النسائم الباردة كانت تهـــب من آن لآخر من جهة الصحراء القريبة .. جلـــس فى ظـــلام الشرفة يستل أنفاساً من السيجارة ثم أخرج قلماً مـــن جعبتـــه وأمسك طرفاً من جريدة ملقاه يعود تاريخها إلى شهر مـــضى ، ومال على الورقة محاولاً أن يعاود كتابة الشعر ..

خط ببطء على طرف الجريدة أول الأبيات التى لا يعـــرف بعد كيف يكملها ..

بكى الجدار إذا بكى.. وإستكانت الأرض إذا سكن ...

كان هذا هو آخر شيء خطه منذ شهر تقريباً قبل رحلتـــه إلى لبنان ضمن فريق إغتيال ذلك العميد السنى ، عرضها على المصور الأصلع الذى كان معهم ، والذى سمع عنه أنـــه فنانـــاً جيداً وشاعراً متميزاً فأثار إحباطه .. ماذا قال ؟.. .. نعـــم ، قال أن الوزن مكسور ، وأن الصواب هو وإستكانت إن وليس إذا، ليكن .. شطب على الكلمة المراد تعديلها وتوقفت يـــده ليعيد تأمل البيت فى حزن حقيقى ، كأنـــه يـــستجدى بـــاقى القصيدة فى القدوم .. لحظات ثم كتب من جديد..

بكى الجدار إذا بكى.. وإستكانت الأرض إن سكن ...

الصمت يحفر قبوراً فى ملامحه .. وجفا عيناه — فى ليلها — الوسن ..

ليلاً طويلاً أقسم ألا ينتهى .. وخيطاً من الأمل أقـسم ألا ينقطع..

يجذب فيسمع صوت الخيط يتمزق ..

هل يا ترى لا يحنث الخيط بالقسم ؟

يتوهم نوراً فيمضى فى طريقه ..

هل يا ترى الليل قد لا ينصرم ؟ ..

حيرة تضرب فى أعماقه حيرة ، لصالح من ؟!! سؤال غـير منحسم ..

كان كل شيء يخطو لصالحى ، فلماذا لا يـبدو لى العمـر يبتسم ؟!!

توقف قليلاً ثم نظر للأبيات فى تأمل، وتنهد فى ضيق وقـد أحس بما كان فى روحه يتسرب حتى يملأ أركـان جـسده ، وقف عقله طويلاً عند العمر الذى يبدو وكأنه لا يبتـسم دون أن يكمل الأبيات ، هل هو حقاً يبدو؟ .. شعر فجأة أنـه لا يريد أن يكمل القصيدة ، فهى لا تغير من الحقيقة شيئاً ، مـا جدوى الشعر حقاً بالنسبة له ! .. إمتص السيجارة من جديد فى نفس حاد ، وضرب الدخان من أنفه فى مستوى الجريـدة فتطاير فوق الكلمات مبتعداً حتى خرج من الشرفة ، ثم أخرج القداحة من جيبه وأدناها من طرف الجريـدة .. فأسـودت الكلمات وتجعدت ملتفة حول نفسها مع تصاعد رائحة الورق

المحترق واللهيب المنبعث من الجريدة .. وفى وسط قعقعة النيران التى تلتهم الجريدة خيل إليه أنه سمع صوتاً ما مـــن الخـــارج .. فإلتفت نحو سور الشرفة مترعجاً وقد قوطعت كل تأملاتــه و خفق قلبه بعنف ، كانت حديقة الفيلا تغفو فى الظلام كما هى بلا أى حركة، وإرتفع وجيب قلبه فى أذنيه فسمعه بوضوح فى السكون ، تباً لهذا الخوف الذى صار عبداً له .. نظر من جديد نحو الحديقة محاولاً إستنطاق أى حركة منها بـــلا جـــدوى .. كان واثقاً من أن هذه هى بدايات النهاية .. التوتر الذى يحدو به إلى الجنون ، يستمع أصواتاً لا أساس لها ويصير مترقباً عصبياً يدفعه كل شيء للرعب حتى أعماقه .. بعد هذا كفيل صوت إبراهيم وهو يرن جرس الباب أو يفتح بمفتاحـــه بجعـــل قلبـــه يتوقف رعباً .. هذا هو الجنون بعينه. زفر فى ضيق وهو يعاود النظر نحو الجريدة التى إحترقت عن آخرها فإنطفأت جـــذوتها وإنبعث منها دخان رمادى كريه ، ثم إستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وهو يفرك على وجهه ، وبدأت دقات قلبه فى التبـــاطؤ قليلاً ... حين .. سمع من جديد صوت حفيف يتزايد .. ليس واهماً ولا مجنوناً هذه المرة ، والمخيف أن الصوت لم يكن قادماً من الخارج كما تصور فى البداية ، بل من داخـــل الفـــيلا .. خلف رأسه المدار ناحية سور الشرفة .. إستدار ببطء محـــاولاً تبين أى شيء فى ظلام الفيلا ، وإستمر الصوت يطرق فى أذنيه ، كأنه وقع أقدام خافته ، العديد منها .. متسللون! ماذا حدث ؟! هل وشي به إبراهيم ؟!!! .. قام من مقعده بحركة مفاجئـــة

ملتفتاً ناحية باب الشرفة المفتوح ، فإهتز المقعد مطلقاً صـــريراً في المكان.. فتوقف الصوت تماماً ، لو كان هذا شخصاً ما فقد توقف عن المسير الآن ..

سار ببطء حتى باب الشرفة محاولاً تجنب إصدار المزيد مـــن الأصوات، وتسارعت دقات قلبه من جديد حينمـــا فكـــر في حقيقة موقفه وكيفية الهروب....

.... " ما هذا ؟! أسيظل ذلك المتسلل في مكانه للأبد بلا حركة " ..

... مد يده نحو الستائر المنسدلة على جوانب ذلك البـــاب محاولاً الإختباء بشكل ما خلفها وهو ينظر نحو...

" لهذا قد بدا إبراهيم مختلفاً ، ربما أسلم أو صار سنياً ! "

.. الصالة الواسعة المظلمة ، وجد باب الفيلا نفسه مفتوحاً من بعيد ينبعث منه بعض الضوء، فصار أكيداً له أن ..

.. " أو ربما باع إياه بالمال ، لهذا نعته بالغبي .. ما كـــان يريد منه أن يلجأ إليه وقد كان هو بالفعل غبياً ! " ..

.. هناك من دخل هذا المكان ، دار بعينيه في الشرفة حـــتى توقف نحو السور ، وقدر أن إرتفاعه عن الأرض حوالى عشرة أمتار ، هل يا ترى يستطيع أن ...

... " وأمه المسكينة ؟ .. إنها تتوقع موتـــه في أى لحظـــة ولكنه طمأنها في التليفون على حياته " ..

.. يقفز من الشرفة ويهرب ؟! بالتأكيد يتركون خارج الفيلا بعضهم للحراسة ، ولكن كيف لم يستمع لصوت السيارة ؟! هل يعقل أن يكون واهماً فعلاً ، خامره الشك للحظة بدت طويلة ، فمد عنقه وهو يخرج من خلف الستار حتى يتأكد من .. فاجأه المعدن الأسود البارد الذى طالما وقف خلفه وهو يحدق الآن فيه بإصرار ، قبل أن يتحرك كان ذلك المسدس مشهراً فى وجهه، ومن خلفه وقف شاب ملتحى يرتدى جلباباً أبيضاً ، وتبدو على ملامحه الشراسة والعصبية..

- إنت غسان الهاشمى؟

بلهجة هادرة صاح ذلك الرجل ، وفكر غسان بالكذب وهو يحدق فى فوهة المسدس التى تمتد أمام عينيه مباشرة ، ومن خلفها ذلك الشاب وحوله آخرون يرتدون مثل ثيابه .. كان هلعاً .. ففكر فى الكذب ، وفى أن يضرب يد هذا الرجل ويحاول الهرب .. ولكن معظم تفكيره كان منصب على هذا الكمين .. ربما كان إبراهيم منذ البداية متواطأً ولهذا كان يمثل عليه أنه قد نسى محاورتهم الأولى .. وعلى الرغم من أنه أدرك أن إبراهيم قد تغير على نحو ما فإنه كان غبياً .. بالفعل غبياً ، كيف لم يفكر فى هذا الشرك من قبل ؟! كان منطقياً ..

- إنت غسان يا بن الكلاب ..

صاح الرجل فى عصبية شديدة ، ويده المعروقة تهتز وهى تتشنج بشدة حول مقبض المسدس .. ورأى غسان إصبع الرجل يتقلص فوق الزناد، فانكمش وجهه فى خوف ..

سيضغط عليه فى أى لحظة .. سيضغط عليه فى أى لحظة .. سيضغط عليه فى أى لحظة .. أطرق غسان ليبعد بصره عن المسدس وهو يتمتم بالشهادة ..

- أشهد أن لا إله إلا الله .. وأن محمداً رسول الله ..

أخذ يتمتم بها مراراً بطريقة مرتبكة فيعجز عن إتمامها صحيحة فى كل مرة .. وهو يتوقع طيلة الوقت الرصاصة القادمة..

- إنت غسان الهاشمى ؟

فى هذه المرة صرخ الرجل بإنفلات أعصاب تام ، وأردف ذلك بأن ضرب غسان بالمسدس البارد على وجهه، فسقط على أرض الشرفة سقطة عنيفة، ورفع غسان عينيه وفمه الدامى نحو الرجال الواقفين .. كان مرتجفاً متعرقاً وهو يجيب مطرقاً من جديد ، فيما حاول أن يبدو شجاعة ..

- نعم .. أنا غسان ..

دمعت عيناه وهو ينظر نحو أرض الشرفة فى خوف ، وإنقض عليه الشاب ليضربه من جديد بالمسدس، وهو يصيح:

- بص نحوى هنا يا كافر يا بن الكفرة ، مو تبص فى الأرض مثل النسوان ..

تراجع غسان من أثر الضربة ، ونزف وجهه المزيد من الدماء ، وجلس الشاب على الأرض أمامه بحيث أصبحت فوهة المسدس ملتصقة بعينى غسان المحدقتين فى ملامح الشاب، كان الشاب عصبياً متحمساً وهويصيح ضاغطاً على الزناد:

- الموت للكافر .. الله أكبر..

إنتفض غسان على صوته الصارخ ، و نظر تماماً نحو عـــيني الشاب المقطبتين وهو يفكر فى الجثث التى يراها فى المـــشرحة والدماء التى يمسحها العاملون بممسحة البلاط ، وهو يفكـــر فى أبيه الخائن القاتل الفار طيلة الوقت ، وهو يفكـــر فى أخوتـــه الذين لم يرهم قط وأمه العجوز التى لابد أنها تنتظـــر الآن أى معلومات عنه متيقظة حتى تلك الساعة من الفجر .. وهو يفكر فى فريد.. الإيمان المطلق بكل ما تربيا عليه ، وإبراهيم .. الكفر المطلق بكل شيء فى الحياة ، وهو يفكر فى آخر أبياته ...

حيرة تضرب فى أعماقه حيرة ، لصالح من ؟!! سؤال غـــير منحسم ..

كان كل شيء يخطو لصالحى ، فلماذا لا يبـــدو لى العمـــر يبتسم؟!

***

الفصل الخامس عشر

حلم يعجز عن تنفيذه الخيال !

لو كانت جميع المشاكل تحل بمثل هذه الطريقة التى حلت بها جميع مشاكل مريم فى وقت واحد تقريباً ، لكانت الحياة من أجمل ما يكون .. ولصار الناس يعتقدون أنها خلقت فقط لتسخر لهم أمانيهم وأحلامهم ، ولتبدد كل حديثنا السابق عن الشك الذى يجعل للحياة مذاق الحيرة والتردد .. فمن الذى يحتاج الحيرة الطائرة من حوله بينما تغفو الحقيقة النهائية فى قبضة يده ؟!! فى أيام معدودة يخبرها أبيها بنيته حول التوقف نهائياً عن العمل الحزبى السياسى ، والإنقطاع لعمله وحياته وربما زواجه — فهو ما يزال فى الواحد والأربعون من عمره.. وتجد حبيبها الذى حسبت أنه ضاع منها بشكل قاطع ! زال سوء الفهم بسهولة بمجرد علمه أنها ليست إبنة الشيخ حسين ، وعاد إليها بكامل طاقته محتفظاً بوعده الأكيد فى الزواج منها.. والحقيقة أنها شعرت للحظات بعد عودتهما أنه جبان ، تركها وفر من دون أى مواجهة ، ولو كان قد فعل لما كانا بحاجة إلى هذا الشوط الطويل من البحث والتوتر والألم . ولكن من ناحية أخرى كانت تعرف أنه لم يهرب إلا عندما وجد الطرق أمامه مسدودة كما بدا له .. كانت الحقيقة أمامه ساطعة كضوء النهار وهو يراها بجوار الشيخ الحسين فى الليلة التى تبعته فيها . وبعد هذا حتى ظل يأتى إلى مقر عمله — ومقر لقائهما — لمدة

يومين ، لابد أنه كان ينتظر منها تفسير ما حول مـــا رأى .. وبالطبع مع عدم مجيئها تخيل أن تصوراته صحيحة .. بشكل ما أمكنها أن تعذره فى النهاية وبقلب مستريح .. لم تعد تكن لـــه أى ضغينة ، وبدأت علاقتهما من جديد ..

ضحت حياتها بالإيقاع بعد ذلك السكون المتـــوتر الـــذى لازمها طويلاً - برغم تحركها المجنون فى البحث عن حبيبـــها ومصالحة والدها !! .. ودفعها الحرص الذى تكون بداخلـــها خلال تلك الفترة القاسية من الإبتعاد إلى الإسراع مـــن كـــل شيء حتى تضمن لنفسها تلك السعادة الغائبة .. كان جل مـــا تخشاه حقاً فى هذا الحلم الوردى المحيط بها هـــو لقـــاء أبيهـــا بنجيب ! هى تعلم أنهم التقيا قبل ذلك بالطبع ، ولكن لـــيس على هذه الصورة .. فلم يحاول الشيخ حسين بالتأكيد تقيـــيم نجيب كزوج مستقبلى لإبنته .. وضاعف من خوفها المطـــرد ، ذلك الوضع الغريب الذى إتسمت به الأحـــداث فى حياتهـــا ، فلقد لمحت لأبيها أثناء البحث عن نجيب بأنها تعرفـــه معرفـــة شخصية .. وأنه قابلها مرتين أو ثلاثة من دون علم أبيهـــا - حين كانت بالمصادفة بالقرب من مركز الأونروا !! - وأعجب بشخصيتها وقد كان ينوى التقدم لخطبتها منه ... بـــالطبع لم تحكى لأبيها شيئاً عن علاقة الحب الجارف الذى دام بينـــهما قرابة السنتين ، ولا عن لقاؤهما فى ذلك العصر بـــالقرب مـــن القرية المقذوفة بالصواريخ ، ولا عن وعده المبلـــل باللـــهاث والعرق بالزواج منها ، وهل هذه أشياء تحكى ؟!!

وكان إحضار أبيها إلى صور هو المعجزة الكبرى ، والعمل الذى ستسجله مريم فى تاريخ حياتها بإعتباره الشيء الأكثر جنوناً الذى أقنعت به والدها من قبل .. أخبرته أن ما عطل نجيب عن التقدم لخطبتها هو تدمير قريته فى الحرب الحالية، وإضطراره للإنتقال مع أمه وأخيه فوراً إلى مدينة صور حتى يستطيع العمل فى المستشفى العام هناك لإنقاذ مصابى وجرحى الحرب ! .. ثم أقنعته بأنهما يجب أن يزورا نجيب وأمه فى لبنان لأن هذا هو ما تقتضيه قواعد اللياقة والواجب .. وكانت تعرف أبيها حق المعرفة ، مجرد طفل كبير يتناثر الشيب فى رأسه وينمو كرش ضئيل فوق عضلاته! .. وتعرف كذلك أنه يعتمد عليها كل الإعتماد فيما يختص بتلك العادات والتقاليد والمعاملات الإجتماعية .. لهذا سهل عليها إقناعه بشكل ما .. وكان اللقاء الأول الذى يجمع بين الشيخ حسين ومريم من جانب ونجيب وأمه وأخوه مينا من جانب آخر ، هو تلك الزيارة التى أدعت مريم وجوبها فى منزل نجيب الجديد بصور .. وضعت مريم يدها فوق قلبها وأمكنها أن تسمع دويه بعنف فى هذا اليوم بإنتظار حدوث أى شيء .... ولكن اللقاء مضى كأنجح ما يكون ! وعلى الفور أدركت من نظرة أبيها التى تعودت عليها وتعرفها – برغم غموضها- أن الفتى قد نال إعجابه وتقديره ، ربما بسبب ثقافته الواضحه أو عمله فى مساعدة المناضلين واللاجئين .. أو .. فمع حبها لنجيب تستطيع أن تعدد له مزايا لا تحصى دون أن يلومها عقلها ..

وكذلك ظهر إعجاب نجيب بشخصية الشيخ حسين الذى أفنى عمره فى دوائر الحزب وصار رمزاً سياسياً كبيراً ، وحفـاوة أم نجيب الشديدة فى إستقبال ضيفيها فى ذلك البيـت المتواضـع الذى تقطنه مع إبنها .

أفلتت مريم من عينيها نظرة طويلة من حيـث تجلـس فى طرف الأريكة ، إلى الشيخ حسين الذى جلـس فى مقدمـة مقعده بشكل متحفز ، و إنخرط فى حوار سياسى تقليدى مـع نجيب .. كان متأنقاً بشدة فى هذه الزيارة ، وقد قـام بحلاقـة ذقنه التى نمت طوال السنة الماضية مما جعله يبدو أصغر سـناً ، وإرتدى بذلة سوداء كاملة ، وترك شعره — الذى بدأ ينحسر عن مقدمة رأسه — مصففاً للخلف ومختلطاً بالزيت اللامع . لم تره هكذا يوماً ما من قبل ، لا حينما كانوا يسكنون فى مخـيم حنين حيث كان يعمل منذ الصباح وحتى المساء مرتدياً قميصه وبنطاله التقليديين ، ولا حينما إنتقلوا للعيش فى ذلك البيـت الصحراوى ، حيث ترك ذقنه تنمو وأسرف فى إرتداء الجلباب فى إحدى نوباته الدينية المتقطعة .. والحقيقة أنه بـدا وسـيماً ومهيب المظهر فى ذلك الشكل الجديد ، ولولا إرتباطه بها منذ الصغر كأب .. لكان الآن رجلاً أعزب فى منتصف العمر ، و لاعتقد من يشهد تلك الزيارة أنه جاء ليبحث عـن عـروس لنفسه وليس عريساً لإبنته ! .. ونجيب كذلك كان متأنقـاً ، وإن لم يشأ أن يرتدى البذلة الرمادية التى يملكها حتى لا يتـرك لدى الشيخ حسين إنطباعاً بالتصنع — خاصة و أن اللقاء يتم فى

منزله — لهذا إكتفى بأن يرتدى قميصاً صيفياً حسن المظهر وبنطالاً قماشياً كلاسيكياً بدلاً من الجينز الذى يرتديه فى المعتاد.

أما مريم نفسها ، فقد وقفت هذا الصباح أمام المرآه فى حجرتها بالفندق طويلاً جداً ، و منذ أخبرها والدها أنه سيلقاها فى الخامسة مساءاً فى الإستقبال ليذهبا سوياً لتلك الزيارة الموعودة ، حتى قامت مسرعة لتفتح حقيبة ملابسها وتغرق فى خواطرها حول ما يجب أن ترتديه ، كانت تظن أنها عملية صعبة ومعقدة إختيار ما سترتديه .. ولكن نظرة واحدة إلى حقيبتها جعلتها تدرك على الفور ما الذى ستقوم به !

لهذا كانت تجلس فى تلك الزيارة واثقة من نفسها وجمالها بفستانها الأزرق الفاتح الذى يتناغم مع سمرتها الفاتنة ، ويلتف حول جسدها فى حشمة مثيرة .. ذلك الفستان الذى يحمل إليها أكثر من مجرد ذكرى عادية !! .. حاول نجيب ألا ينظر إليها أثناء حديثه مع والدها كثيراً ، ولكنه على الرغم منه أفلت نظرة قصيرة وإبتسامة مرتبكة قبل أن يوجه دفة الحديث إلى حسين :

- أنتو شرفتونا هون بلبنان .. نورتوها والله.

إبتسم حسين وقال بأريحية:

- لبنان منورة بأهلها .. وبمناضلينها الشجعان ..

ثم تراجع بظهره فى المقعد لوضع أكثر راحة ، مستطرداً :

- .. المشروع الفرنسى المعدل عم بيتناقش هلأ فى مجلس الأمن . والحرب بدا تنتهى بالكتير بعد أسبوع ... هانت !

إبتسم نجيب مجاملاً ، وقال محاولاً مجاراة هذا السياسى الكبير :

- هايدى أول مرة بتنضرب فيها إسرائيل بالعمق ، والله صدق نصر الله .

ضحك حسين ضحكة عالية لا تعبر عن شيء .. ربما هو ود أو سخرية دفينة ، ثم قال:

- عندك حق .. بس لساها خسايرنا بالحرب أكبر بكتير م الإسرائيليه ، واللا شو ؟

- ومين ف العرب كلياتهن يقدر يوقف بوج الإسرائيليه ؟! .. هايدا إنجاز على جميع المقاييس.

بدأ حماس الحديث يجرفه ، والمناصرة لرأيه جعلت لهجته تتجاوز الحديث المجامل ، لتقف على حدود غابة النقاش ، وقال حسين بنبرة محايدة وكأنه يتحدث فى برنامج تليفزيونى:

- هايدا منو إنجاز .. هايدى حرب !! والحكومة نفسها ما قدرت توقف قصادها ، أفتكر وضع السنيورة صار أزمة ما راح تمرق بسهوله ..

ليس لنجيب إنتمائاً سياسياً معيناً ، وهذا موقف إعجازى فريد فى بلد طائفى بسياسته مثل لبنان مليء بالحركات

والمؤسسات ، كان يساعد رجال المقاومة أياً كانت هويتهم ما دام واثقاً من أمانة رسالتهم .. وهى مساعدة ضئيلة الشأن كما يصفها دوماً ، ولا تحتاج لولائه لجبهة معينة .. لكن الرأى العام كله صار يدين بالفضل لنصر الله بشكل ما ، وشعبيته صارت كاسحة ، وفى المقابل ضعفت شعبية الحكومة بالطبع ، لهذا لم يخف نجيب حنقه وهو يقول :

- الحكومة هى اللى مش قد ها القتال .. والسنيورة فعلاً صار فى أزمة صنعها هو ورجاله وصار فيه يتنحى عن منصبة.

رفع حسين حاجبية فى دهشة أمام ذلك الإقتحام المباغت ، وقد صار نجيب الآن داخل غابة النقاش التى حاول تحاشيها بالفعل .. وفكر حسين فى الرد الذى يتناسب مع هذا التعصب الشاب ، فقال محافظاً على حيادية لهجته:

- بتعرف بشو عم بيذكرنى ها الوضع .. بيذكرنى بأيام إغتيال بشير الجميل و ترشيح أخوه وكميل شمعون للرياسة !!

ثم أكمل مفسراً:

- قالوا أن الدستور وقتها راح يراعى نسبة المارون الى الروم الى الشيعة الى الدروز .. بس لبنان صارت تنقسم هلاً لألوف العشاير والقبايل السياسية ، ومرتزقة الدول الكبرى وإسرائيل.!.. بعتقد إنك ما كنت موجود هى إيام .

كانت ذكرى الحرب الأهلية اللبنانية مقبضة على الجميع — من عاشها ومن حكيت له وشهد أثرها المتغلغل فى لبنان حتى

اليوم — وهذه العبارة المتشائمة هى أقرب الى وضع لبنـــان فى كفن من الحرير الأسود ، ودفع هذا الكفن لنعشه مباشـــرة ، كما يقول أنيس منصور فى تحليله لتلك الحرب .. لذا رد نجيب بحدة:

– وليش ما تحسبها مثل إغتيال رفيق الحريرى ؟! .. حدث مؤسف ، لكنه صحى الشعب ، وصارت لبنان عم تنفجر من جديد بالطاقات .

إغتيالات .. وحروب .. ليس هذا هو نوع الحديث المحبب فى هذه الظروف ، وبالذات مع تلـــك اللهجـــة المحتدمـــة فى النقاش، كادت مريم أن تقول شيئاً ما ليلطف الأجواء ، حـــين دخلت السيدة عاليا تحمل صينية تعلوها أكواب البرتقـــال .. فإنتهى الحوار فجأة وعاد الحديث إلى طبيعته الودودة .. بشكل ما أدركت مريم فى قلبها بأن ذلك اللقاء نجـــح كأفـــضل مـــا يكون، بالذات حين أشار نجيب فى حديثه إلى إرتباطـــه بمـــريم ورغبته فى التقدم إليها ، و لم تجد من أبيهـــا أدنى إعتـــراض .. وبعدما وجد نجيب من الشيخ حسين هذا الإستسلام الأقـــرب إلى الترحيب ، إنتظر حتى إنتهت الجلسة ، وقامت مريم وأباها وقام لتوصيلهم إلى الباب ، ثم قال وهو يربت على يد أبيها :

– شرفتونا والله بالزيارة يا شيخ حسين ، كان بدنا تنوورونا أكتر من هيك .

– الشرف إلنا يا نجيب ..

ثم مال على أذن الشيخ قائلاً بلهجة مهذبة :

– والله بس .. أنـــا كان بدى معاد من حضرتك ، تا نرد الزيارة إلكن .. و..

وأردف رانياً بإبتسامة واسعة نحو مريم التى أطرقت أرضاً :

– وأتقدم لخطبة مريم رسمياً أنا ووالدتى .

قضت تلك الليلة تطير من السعادة ، وتفكر ملياً فى حياتهـــا مع نجيب ، سابقها ولاحقها .. وما تنتوى فعله فيها ، وبالطبع لم يخلو تفكيرها من نصيب أدخرته لأبيها .. لقد تغير كـــثيراً هذه المرة ، للمرة الألف وواحد يتغير ، دعت الله أن يكون هذا هو التغيير الأخير فى نمط حياته ، وأن يلتزم بمـــا آل عليـــه .. دعت الله أن يصبح عمله فى فلسطين أكثر رواجاً ، ويـــتمكن من كسب المزيد من المال ، فى ظل ظروف البلاد التى نسير من سيء إلى أسوأ ، وأن يبتعد نهائياً عن الخطر الذى عاش دومـــاً فوقه ، ربما عن طريق الزواج .. ابتسمت فى مرح وإعتدلت فى جلستها على الفراش فى حجرتها بالفندق ، ثم أخذت تفكر .. من من جيرانهن ومعارفهن تصلح زوجة لأبيها الشيخ حسين؟.. أخذت تطرح المرشحات واحدة تلو الأخرى وتفكر فيهـــا ، تارة بجدية وتارة بهذر .. لكنها لم تكن لتمنـــع نفـــسها مـــن الإبتسام وهى تتخيل كل مرشحة تقف الى جوار الشيخ حسين خلال الزفة ، وهى تتعلق بيديه والضحكات تعلو وجهيهما .. لا هذه لا تصلح ! .. هذه بدينة أكثر من اللازم ! .. مريم بماذا

تفكرين ؟! هذه من سن أمه وليس زوجتــه ! .. لم يتبــق فى الكون عندك إلا أم إبراهيم !!! لديها ثلاثة أولاد صاروا رجالاً خيبك الله..

تسلت طويلاً بتفنيد من تعــرفهن ويــصلحن للــزواج ، وبالتفكير فى أحداث الليلة السعيدة ، ثم سحبت الغطاء حــول خصرها وأطفئت الإضاءة فى الغرفــة وأغمــضت عينيهــا ، ونامت.. لتحلم بأحلام وردية غدت واقعاً .. أحلامــاً مــن روعتها يعجز عن تنفيذها الخيال ذاته .

***

وقف محمود بإزاء التليفون المقعى فى الطريق ، كأنه قنبلــة محشوة بالإنفعالات التى ستصيبه إن اقترب ، وابتلــع غــصة وقفت فى حلقه، وقد توقف الزمن من حوله للحظات .. أخذ يترقب تهيجات المجتمع النهارى المحيط به .. الــشارع يــضج بالأنين ، والحرارة المطلقة من السماء أفعى تلسع الوجوه الهائمة فى الطريق ، أمسك سماعة التليفون بقفاز من العرق كأنما يخفى معالم يده ، وضغط الأرقام فى توجس وبطء وهــو ينظــر فى الورقة البيضاء الصغيرة .. قفز تقريباً فى مكانه عنــد سمــاع الصوت من الطرف الآخر !! .. ثم أدرك أن هذا هو الــصوت الآلى يخبره بأن يضع الكارت أولاً قبل ضغط الأرقام .. ففعل ، وفى هذه المرة ضغط الأرقام بعصبية خانقة ، وجاوبــه رنــين هادئ تبعه صوت يد تلتقط السماعة ..

- آلو ..

- آ .. إحم .. آلو ، فينى كلم الإستاذ إسماعيل المحامى ؟

- أنا هو .. مين معى؟

بعثه الصوت العصبى ، واللهجة المتأففة إلى أيـــام خلــت ، وجعلته يتذكر صديقه الشهيد بكل تجلياته ، والطريق الطويل.. والأصلع الودود ... وإسماعيل ! بعصبيته الجبانة وأناقته المتكبرة، شعر للحظة بأن إسماعيل هذا بكل جبروته وعنفوانه حبلاً قوياً، لن تزحزحه محاولاته هو والسيدة الأنيقــة مندوبــة منظمــة التحرير، وشعر بثقل هائل كأنما هو يحاول حمل هذا الجبل على صدره.. فخرج صوته متحشرجاً وهو يرد:

- أنا محمود ..

... صمت من الجانب الآخر بإنتظار المزيد من الإيضاح ..

- .. أنا اللى كنت باسوق السيارة فى الطريق لسوريا ، أنا وصاحبى .

بدت من لهجة القرف الفورية أنه تعرف عليه ، وهو يقول:

- آه ..آه .. فقت عليك ، تقدر تفوت ع المكتــب يــا محمود من شان ما تاخد أجرتك .

- أنا ما بحاكيك من شان أجرة يا سيدنا البيه ! أنا باملــك أوراق باعتقد إنها بتهمك واعتقد إن تمنها أغلى من الأجرة ..

كان قلبه الآن ينتفض توتراً وهو يلفظ بتلك الكلمـــات ، وتعالى الوجيب فى أذنه التى تضغط على السماعة ، حتى لتخيل

أن إسماعيل قد رد عليه فلم يسمعه بسبب تلك الـضربات ، ثم أدرك بأنه صامتاً يفكر .. مرت لحظات قبل أن يجيء الـصوت بلهجة مختلفة أكثر تعقلاً وروية :

- هايدا الحكى ما بينقال فى التليفون ، فوت على بالمكتب مثل ما قلتلك.

جمع محمود حطام صوته وهو يغمغم :

- ما بروح على أى محل قبل ما نتفق .. كام بتعطـيني فى الأوراق؟

المزيد من التعقل والروية ، وكأن العقل الثعبانى خرج مـن خلف العصبية الزائفة، ليتولى زمام الأمور:

- مش فكرك الأول حقى طالع هايـدى الأوراق اللـى معك، وأعرف من وين جبتها !

بلع ريقه وهو يستعيد فى ذهنه ما إتفق عليه مع زهرة بعـد أيام من لقاؤهما الأول .. سوف يستغلان العلاقة السابقة بـين إسماعيل ومحمود وقت مجيئهما إلى سـوريا .. ضـغط علـى الكلمات فى عقله بقوة ليلفظها خارجاً:

- أنت تركتها فى السيارة وقت الإنفجار ، وأنا أخذتها .. فكرت أنه لما أعطيك ياها بعد كام يوم بتعطيني مكافأة ، ولـما مرقت لعندك بالمكتب من أسبوع سمعت بـالغلط حكـى فى التليفون خلانى أفل فوراً ، وفتحت الظرف وطالعت الورق ..

صمت للحظات ثم أكمل:

- .. وأفتكر بعد ما عرفت اللى حواه الورق صار ثمنه أغلى كتير ، واللا شو؟

- ومن وين جبت نمرة موبايلى ؟

أطبقت يد محمود على الورقة المبتلة بالعرق التى أعطته إياها زهرة غالب .. آه .. ها قد بدأ الأفندى المنفوخ فى إستخدام كتلة اللحم الموجودة فى رأسة والتى يعتبرها عقلاً ، وأصبح يسأل أسئلة بعيدة عن جوهر الموضوع ربما للتأكد من مصداقيته فيما يزعم ، أو للإيقاع به فى شرك أحدى الكلمات

- ما إلك دعوة من وين جبت النمرة ؟ هايدا سؤال ما بينسأل يا سيدنا البيه !

.. يا سيدنا البيه!.. نداء يتسم بالدونية والخبث معاً ، شعر محمود أنه إختيار موفق من جانبه ليحكم السيطرة حول إسماعيل ، أنت سيدنا ونحن أقل منك شأناً ، لذلك نحن نريد مالاً وأنت تريد أوراقاً قد تنعدم قيمتها بالنسبة لمن هم ليسوا مثلك من الأسياد ، ولكنك فى الوقت ذاته بيه .. أى إبن العلالى ، إبن كوكب الأغنياء ! .. لا تفهم شيئاً فى ألعاب الإبتزاز الرخيصة والوضاعة التى قد تصل لحد عدم الإبقاء على أى شيء بالمرة .. هذا هو ما يوصله هذا النداء فى نفس إسماعيل وما ألعنه من أثر شيطانى يلخص كل شيء ، شعر محمود بأنه أحكم يديه فوق رقبة إسماعيل الغليظة ، وصارت

الترهات الكلامية مسألة منتهية ، فإتخذ سبيلاً أخر في الحـــوار وبدأ يتكلم بلهجة آمرة مملياً شروطه وطلباته ..

– بعد ما نتفق ع السعر ، انا اللى راح حدد مكان نتقابـــل فيه ، وتاخد الظرف تبعك وتعطيني المصارى وكل حدا يـــدير ظهرة للتاني .. ما بريد كتر أســـئلة، وإلا راح خـــاف منـــك وأسكر التليفون ، وانت ما يرضيك هايدا ...

... يا سيدنا البيه !...

***

الفصل السادس عشر

الثورة

اعلنت الأمم المتحدة أن إسرائيل ولبنان اتفقا علـــى بـــدء سريان الهدنة المختلف حولها . وقال الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان: ان القتال يجب ان يتوقف علــى الفــور رحمـــة بالمدنيين. ومضى عنان يقول أنه يفضل ضرورة وقف القتـــال الآن لإحترام روح وهدف قرار المجلس والغرض منه إنقاذ حياة المدنيين لتفادي الألم والمعاناة التي يمر بها المدنيون من الجانبين .. كما أشارت البيانات إلى تصدي مقاتلي حزب الله لمحـــاولات تقدم اسرائيلية في منطقتي الشعب والبياضة في شمـــال القطـــاع الغربي من الحدود حيث دارت إشتباكات عنيفة وغير مثمرة .

وكان قد عقد مجلس الأمن جلسة يـــوم الجمعـــة ١١ آب الجاري وأقر مشروع القرار الفرنسي الأمريكي الثـــاني (بعـــد التعديلات) بعد مشاورات أجراها الوفد العربي مع الأمين العام للأمم المتحدة وأعضاء مجلس الأمن لا سيما فرنسا والولايـــات المتحدة الأمريكية ، وأعلن عن صدور القرار الذي حمل الـــرقم (١٧٠١) و لم يستجب لكل مطالب لبنان وبالتـــالي لم يكـــن متوازناً وظهر في حيثياته وبنوده انحيازاً واضحاً لإسرائيل علـــى الرغم من التعديلات التي أجراهـــا مقـــدمو المـــشروع علـــى مشروعهم الأصلي لعدة أسباب:

– تمسك لبنان ومعه الدول العربية بخطة الحكومة اللبنانيـــة ببنودها السبعة لوقف إطلاق النار، وتحذير العرب من مخـــاطر

صدور القرار بصيغته المقترحة (القديمة)، وهو ما أثر على مجلس الأمن وبرزت وجهتي نظر: الأولى ترمي إلى التعديل، وأخـــرى متمسكة بالمشروع.

– تهديد روسيا والصين (العضوان الدائمين في مجلس الأمن) بعدم الموافقة على أي قرار لا يأخذ مصلحة لبنـــان، واعتبـــار المشروع بصيغته القديمة لا يمهد لإنهاء الأزمة.

– تغيير موقف فرنسا (العضو الدائم في مجلس الأمن) بعـــد قرار الحكومة اللبنانية إرسال قوة من الجيش اللبناني إلى المناطق الحدودية في الجنوب للدفاع عن لبنان لا لحراسة الحدود مـــع كيان العدو بأنه خلق معطيات لإجراء تعديلات على المشروع.

– تحول موقف بريطانيا(العضو الدائم في مجلس الأمـــن) الذي أشار إلى ضرورة الأخذ بالاعتراضات العربية واللبنانيـــة التي وصفها رئيس وزراءها بـــ (المعقولة).

– الحرج الكبير الذي تواجهه الإدارة الأمريكية بعد إعطاء فرصة جديدة لإسرائيل لمتابعة عدوانها، وفشلها في تحقيـــق أي نصر ذي مغزى يمكن أن تستغله في المفاوضات السياسية وهـــو ما اضطرها أخيراً للقبول بالتعديل، وإن بقي الموقف الأمريكي ضاغطاً لبقاء القرار بالمحصلة أميل لمصلحة إسرائيل

هذا وقد أعلن الأمين العام للأمم المتحدة أن وقف إطـــلاق النار سيسري بدءاً من فجر يوم الاثنين ٢٠٠٦/٨/١٤ بعـــد موافقة الحكومتين اللبنانية والإسرائيلية علـــى ذلـــك، وأيـــضاً

يطالب القرار في بنوده إسرائيل بتزويد لبنان بخرائط الألغام التي تركتها في الجنوب اللبناني، وهو ما طالبت به الحكومة نفسها منذ عدة أيام..

لا يسعنا في النهاية سوى أن نذكر أن هذه الحرب التي أوشكت أن تصير ماضية قد تسببت في دمار مادي هائل، وقتل ما لا يقل عن ١٠٦١ شخصا في لبنان و١٤٣ اسرائيليا في تلك التداعيات التي اندلعت عقب أسر حزب الله جنديين اسرائيليين في غارة عبر الحدود في ١٢ يوليو/ تموز.. وإن كان الرئيس الأمريكي جورج بوش قد قال في تصريحاته أن هذه الحرب هي " حرب غير مرغوب فيها " فقد كان ينبغي عليه أن يحدد من الذى لا يرغب في هذه الحرب ، ومن الذى برغم كل شيء قد يرغب فيها !!

نتابعكم من قلب الحدث .. بيروت – لبنان

***

في هذا اليوم إشتعلت لبنان بالحماس ، وخرج كل من فيها عن طبيعته المعتاده .. وتلبس الجميع شيطان الثورة أو ملاكها.. وانتشر الحماس في أوصالها، ربما كان ذلك الحماس المتدفق من النوع الذى تحدث عنه نجيب مع والد خطيبته والذى فجره إغتيال رفيق الحريري – السياسي اللبناني الكبير – من قبل ، وربما كان ذلك النوع من الحماس الذى جاء في أرداف الثورة الفرنسية .. حيث كل شيء يقتل ويموت ، ورؤوس الملوك

والنبلاء والرموز القديمة تتطاير لتصنع جبالاً آدمية يتسلقها المتعطشون للسلطة والتغيير بسبب أو من دون سبب .. أخيراً نجح إحدى المشاريع التي كانت معروضة على مجلس الأمن ، وأعلن كوفي عنان الامين العام للامم المتحدة ان زعماء لبنان واسرائيل وافقوا على وقف لاطلاق النار يوم الاثنين ١٤ في الساعة ٠٥٠٠ بتوقيت جرينتش لانهاء الحرب الدائرة منذ شهر بين اسرائيل ومقاتلي حزب الله .

وأن القوات الاسرائيلية ستبدأ في الانسحاب من جنوب لبنان خلال أسبوع او أسبوعين عندما تصل قوة الامم المتحدة (اليونيفل) والجيش اللبناني الي هناك، وقد بدا للجميع من بعيد نور الشفق الذى يتوسد السماء مزيلاً كل غبار الحرب ، ولسان حالهم يصيح .. لا يهم ماذا حدث ! فما مضى قد مضى .. تلك الحكمة البشرية الفطرية الأولى ، التي تمكن الإنسان طيلة تاريخه من تجاوز محنه ونصبه والمرور عبرهم ليصل إلى أشياء جديدة تنبض بحياة جديدة !..

ليست المسألة فى عدد القتلى ، ولا ضرب إسرائيل بالعمق ، ولا القرى التي تهدمت .. من مات قد مات حين جاء أجله ، ومن لم يمت فلا يزال يمكن إصلاحه ، الجميع حبسوا أنفاسهم قرابة ثلاثون يوماً ، منذ تدمير المطار الدولى والطرق البرية والبداية الحقيقة للحرب .. بل من قبل ذلك ، منذ قام حسن نصر الله بأسر الجنديين الإسرائيليين فى ١٢ تموز فيما عرف بعملية الوعد الصادق .. ولاح للجميع أن الوقت قد جاء

ليتنفسوا الصعداء وقد صار غروب تلك الحـرب وشـيكاً ..
ولكن اليوم هو يوم الثورة .. !!لبنان كلها ثائرة بفوران محموم
كأنه قادم من عمق الجحيم .. المظاهرات تسير فى البلاد مـن
أولها لآخرها ، والمحافظات الست تشهد رجالاً ونساءاً يجوبونها
بلا إنقطاع حاملين كل أنواع اللافتات .. فى مظهر أسطورى
يشبه المظاهرات يوم ١٤ شباط ٢٠٠٦ الـتى أقيمـت وفـاء
لذكرى الشهيد الحريرى وشهدها أكثر من مليون مـواطن ..
بحار من البشر تتدفق فى شرايين البلاد و تستطيع أن ترى رجال
نصر الله فى كل مكان ، يرفعون أسلحتهم عالياً علامة علـى
النصر المبين ، وقد ظهر لكل اللبنانيين مدى صدق هذا الوعـد
الذى تعشموا فيه .. صار لنصر الله فى الشارع لسان جديـد ،
ولافتات جدد .. لسان القائد المنتـصر ، ولافتـات الـزعيم
الجديد.. قال نصر الله فى تصريحاته التى صـارت فى الـشارع
اللبنانى أهم من تصريحات مجلس الأمـن ذاتهـا : أن مقاتليـه
سيلتزمون بقرار الامم المتحدة الذي صدر الجمعـة ويطالـب
"بالوقف الكامل للأعمال القتالية" بمجرد التوصـل الى اتفـاق
بشأن التوقيت والتزام القوات الاسرائيلية ايضا بـه. وأضـاف
بحماسه المتقد "طالما ان هناك تحركا عسكريا إسرائيليا واعتداء
ميدانياً إسرائيلياً وان هناك جنوداً إسرائيليين يحتلون أرضنا فمن
حقنا الطبيعي ان نواجههم وان نقاتلهم وان ندافع عن ارضـنا
وعن ديارنا وعن انفسنا.".. يشتد الهتاف الجماهيرى صخباً فى
طيات الشوارع المضيئة بالنبأ الكبير مع نهاية كل جملـة مـن

الخطاب المدوى ، حتى فى صور ! المدينة الغافية علــى قــدمى البحر الأبيض المتوسط .. تلك التى إختارها نجيــب لتكــون منفاه، بدا وكأن البحر أيقظها فنفضت عن نفــسها النعــاس وتزينت بأناسها الجائلين فى كل مكان كــالحلى اللامعــة .. صارت مختلفة ، بمحالها ومقاهيها .. الراديوهات كلها وكأنهــا ضبطت على موجة واحدة تذيع الــشعب نبــضاً وتكوينــاً حقيقياً، يهتفون فى مظاهرات لا تبدو كأنها مظاهرات من قوتها وجمالها وتناسقها .. ويتدافع الجمع ذاتياً نحو البحــر الــصافى المشرئب فى فضول متحمس ، من كل مكان .. من المــدارس وأماكن العمل !! نحو الشاطىء الودود والكورنيش الذى يمتــد عبر طرف المدينة يحتضن الأهالى القادمين . حتى البحر يمكننــا أن نصفه بالمختلف .. هادىء وثائر ، عنيف وحنون ، ينقــل صورة تترنح بين الإحتفاء بدم الــشهداء الــذى لم يــضيع ، والفرحة الصافية بأيام أكثر سلاماً وصدقاً .

تشابكت أذرع المدينة فى عناق دام طويلاً .. عناق مــشبع برحيق الأرواح التى تندفع كالنسيم فى الأوجه ، تنعش القلوب وتحيى الألسن لتنطق بالكلمة الوحيدة الممكنة فى مثــل هــذه المناسبات ..

– مبروك .

الصوت العذب عنوان الفرح ، حتى وإن جــاء مــن بلــد مختلفة ، لا يرد عليه سوى بــ..

– الله يباركلى فيكى ، مبروك إلنا جميعاً .

إحتضنت مريم التليفون الصغير فى غرفة نومها ، وكأنه يحتوى جزءاً من قلبها ، وأرسل القمر فى غرفتها ضوءاً مسترسلاً شفافاً .. أسندت رأسها للوراء ، وهى تتكئ فوق الفراش الخشبى قائلة:

- شو الأحوال عندك بالمستشفى ؟ ووالدتك شو أخبارها ؟ ومينا؟

احتضنها صوته الضاحك عبر السماعة قادماً من صور المحتفلة ، وهو يقول:

- كلنا بخير وتمام .. لسانى راجع من إحتفال بالشارع عندنا، وأمى بتسلم عليكى كتير .. ونفسها تيجي لإلكوا تانى.

ثم أردف مازحاً :

- بتعرفى خطوبتنا طولت جداً ، وإنت بعيدة هناك بفلسطين..

ضحك ضحكة سريعة ثم تنهد ، كانت خطبتهما هى الأقصر على الإطلاق ، فمنذ أيام جاء نجيب ووالدته إلى المخيم رداً لزيارة الشيخ حسين ، وطلبا منه يد فاتنته السمراء مريم .. والآن وهو يتحدث عن الخطبة التى طالت بدا لمريم وكأنه يتحدث عن علاقتهما التى دامت قرابة العام ونصف ، هذا هو ما طال فعلاً .. الفراق بينهما وسوء الفهم المخيف الذى كاد يودى بعلاقتهما .. تخضب وجهها بحمرة الخجل حينما طاف بذهنها ما نويت قوله ، ثم تشجعت وقالت:

- شد حيلك .. كل شي جاهز ، نتجوز اليوم !

قال بصوت باسم :

- اليوم ؟ .. نتجوز إمبارح إذا ما بدك ، بس كنتِ إعطيني خبر ..

- أنا عم إعطيك الخبر هلأ .

- ولو ، مش الشيخ حسين لازم هو اللي يتفق معي ع العرس ، وللا انت ما عزمتيه ؟

- الشيخ حسين راجع حالاً من الشغل ، أول ما بيرجع بخليه يكلمك فى تفاصيل العرس مثل ما بدك.

إندهش للهجتها المصرة ، فقال لها:

- إنتِ عم تحكى جد ؟!

- ولك ليش فيى إمزح ؟

إنتقل إليه حماسها النامي فقال بجدية فرحة:

- وأنا كمان عم إحكى جد .. أول ما يوصل الشيخ لى كلام معاه ، وعلى رأيك .. كل شي جاهز .. يبقى ليش نأجل الفرحة ..

صمتت خجلاً وهى تتصور أخيراً زفافهما الوشيك ، ثم قالت مسرعة :

- طب أتركك لحالك هلأ تا تحتفل مع أهلك .. سلملى مليح على والدتك وعلى مينا .

- يوصل.

وضعت مريم السماعة فى مكمنها وقلبها يغض بــالأحلام ، وأسندت رأسها على الجدار الزيتونى الذى يخرج منـــه ضـــوء القمر ، فإرتسمت ملامحها مضيئة جميلة ، وسمرتها تتوحد مـــع الليل فى سيمفونية صامتة .. هناك فى لبنان الآن فرحة عارمة ، فرحة متكلمة صارخة منتشية ، فرحة ذات صوت موســـيقى وألحان وأغانى وطنية ، ونيران إحتفالية تحلق فى الفضاء فتتطلع نحو شعب سعيد قبل أن تنفجر مدوية من فرط ما شهدت من السعادة ... ولكن هنا فى فلسطين فرحة من نوع آخر ، فرحة فى قلب واحد ، صامتة هادئة ترتسم تفصيلاتها فى ضوء القمـــر أمهر الفنانين على الأرض ، فرحة تمثلها إحتضانة دافئة للتليفون الصغير وكأنه مرسال العواطف والحب ، تمثلها رقصة العيـــنين السوداوين حول الضوء المتلألئ فيهن شغفاً وعشقاً .. رقـــصة حالمة هادئة تبدأ وتنتهى فى نفس الحجرة الصغيرة ذات الفراش الخشبى والأمتعة القلائل ، ولكنها فى أثنائها تطوف بالعالم كله شرقاً وغرباً فتبرز سعادتها فى خيلاء كمن تبرز مفاتنـــها لقـــاء عبارات إستحسان وإطراء ..

بلا وقت تقريباً جرفتها الأحداث منذ وجدت نجيب حـــتى هذه اللحظة ، بلا وقت تقريباً منذ قرر أبيها التخلى عن النضال المقلق الأليم حتى هذه اللحظة ، بلا وقت تقريباً منذ شاعت فى وجهها البسمة التى تخشى عليها من الإنطفـــاء ، فتزكيهـــا فى أقصى سرعة كأنها نيران وليدة لابد لها من أن تتغذى لتنمو .

لم تشعر بمرور الساعات التى تلت مكالمتها مـــع نجيـــب ، وحلم زواجها الوشيك يسكرها .. فما إســـتفاقت إلا علـــى صوت مفتاح أبيها فى المزلاج المعدنى القديم ، وصرير البـــاب الخشبى إذ يتحرك منهكاً ليسمح بولوج الكهل الفتى منه ، بعد يوم من العمل الشاق .. أبيها قد جاء !!! .. كيف لم تشعر به حين مر من الصحراء وهى جالسة أمام الشباك لم تغب بصرها عن قرص القمر الموحى والنجوم الناصعة ؟!!! .....

كانت هذه هى المرة الأولى فى حياتها الـــتى يجـــىء دون أن تستشعر قرب قدومه أو ترى هيئته المميزة تسير على الطريـــق الرملى الخارج من المخيم وممتد نحو منزلهم الصحراوى ، رفعت عينيها للساعة تلقائياً وهى تسمع صوت المفاتيح تلقى بعيـــداً فأصابها قلق مفاجئ ! .. الوقت متأخر جداً ، والفجـــر لـــيس بعيداً عنهم سوى بسويعات قلائل ، منذ متى كان هذا موعـــد عودته من العمل ؟! .. كان من المفترض أن يكون هنا منذ نحو أربع ساعات أو أكثر ، وكان من المفترض أن يصيبها القلـــق عليه منذ ثلاث ساعات أو أكثر .. ولكنها ما كانـــت هنـــا ، كانت ترقص بعينيها فى الضوء الفضى الذى ينقلها إلى حلـــم رومانسى خلاب أوله فى مخيمهم وآخره على شاطىء البحر فى مدينة صور .

قفزت من الفراش فى رشاقة ، وخطت نحو الصالة لتستقبل أبيها .. ووقفت على الباب تراه بعينين عادتـــا للواقـــع منـــذ لحظات وجيزة ، وهى تحاول التركيز فى مفردات العـــالم مـــن

حديد ، وقفت تراقبه دون أن ينظر نحوها وهو يتحرك فى المكان جيئة وذهاباً بحثاً عن ريموت التليفزيون الملقى فوق الأريكة ، ثم عن زجاجة من الماء البارد فى باب الثلاجة .. جرع الماء جرعات متدافعة رافعاً الزجاجة بشكل كبير ، ثم أعادها وأخذ منديله القماشى من فوق منضدة التليفزيون وذهب ناحية المطبخ ليبلله ، ثم مسح به وجهه كله ووضعه فى النهاية مستلقياً على قفاه على سبيل الترطيب المنعش .

فقالت بعفوية كما تعودت:

- شيله من هنا .. يصيبك روماتيزم أو برد .

فنظر لها وكأنه يلحظ وجودها للمرة الأولى ، ثم نزع المنديل عن قفاه بيده الحرة وهو يبحث بعينيه فى عينيها ، ثم أدار وجهه ناحية الثلاجة من جديد ، وفتحها ليقف مغموراً بالضوء الباهت باحثاً عن شيء ما ربما لا يدرى أحد — حتى هو — كنهه، فتقدمت مريم بضع خطوات للأمام مخلفة غرفتها الحالمة ورائها ، ودخلت بقدميها نطاق الأرض التى يحيا عليها الشيخ حسين ، وهمست فى وهن:

- مالك ؟ شو مغير فيك ؟!

- ما فى شيء .. كيف كان يومك؟

لم تقتنع بإجابته المقتضبة وهو ينظر نحو باب الثلاجة دون الإلتفات إليها ، ولا بسؤاله فى محاولة تغيير الحوار .. لكنها قررت مجاراته ، فتظاهرت بالسعادة وهى تقول:

– بعد الخبر الجميل اللى ملا لبنان ، نجيب إتصل وبدو يحدد ميعاد العرس اليوم قبل بكره .. وقاللى أحاكيه أول ما تيجى تا تتفقوا ع التفاصيل .

إبتسم إبتسامة حقيقية ، وهو يغلق باب الثلاجة – دون أن يتناول منها شيئاً – وقال فى مرح وهو يجلس علـــى الأريكـــة المواجهه للتليفزيون :

– خير.. خير ، على بركة الله ، وأنا ما عندى مانع فى أى شيء .. تقدرى تتفقى معاه بنفسك ، والعرس بلبنان مثل مـــا حكينا .. إحنا ما لنا أهل هون وهمـــا مـــن حقهـــن يعزمـــوا قرايبهم...

ذهبت لتجلس فى مواجهته ، وهى تتحدث فى مرح :

– كان بدو يكون الفرح بعد يومين ، يوم وقف إطـــلاق النار بالمسا .. شو رأيك ؟

إبتلع همه وهو يغمغم باسماً:

– على كيفكم ؟ اليوم إذا بدك ...

لاحظت عودة القلق لغزو ملامح وجهـــه مـــن جديـــد ، فأكملت بنفس اللهجة المرحة:

– أنا عطيتك خبر بيعقد .. هلأ صار فيك تخبرنى شو مغير فيك ؟ وكيف كان يومك ؟

أطرق وجهه للأرض لحظة صغيرة ثم إرتفع من جديـــد ، لحظة ضئيلة كأنها لم تكن .. لكنها كانت كافية بالنسبة لمريم ،

وراعتها حقيقة أن أبيها يطرق برأسه لربع ثانية علامة على الضعف ! أبوها الذى حكى جميع من رأوه أنه كان واقفاً أبان مذبحة الحرم الإبراهيمي كالأسد الهائج حتى أنه دخل على رئيسه فى الحزب منفعلاً وثائراً بعدما خرج من عند صديقه اللدود .. وحكى عنه أنه وقف فى صدر مبنى الحزب ينعت جميع الموجودين بلا تميز بأنهم أجبن من النساء ، ونعوت مشينة أخرى ذكرت لها مرة واحدة فشعرت بمدى قوته وصلابته وإرتجفت .. هذا الإنسان الشجاع حين يطرق برأسه فلهذا فى ذهنها معنى واحد .. ترجمته فى سؤالها الجزع المفاجيء وقد تناست تمثيلها الهاديء فى السؤال عن يومه:

- وين كنت لهلأ ؟

بالتأكيد عاود نشاطه السياسى الذى وعدها بإبطاله ، هذا هو وحده فى الدنيا كلها ما قد يتسبب بخجله، حنثه لوعده أمام إبنته التى علقت أفراحها كلها على شماعة خوفها عليه ، هى لم تطلب منه أى وعد .. وحين شاورت عقلها فى الموضوع قررت أن تعطيه زمام الأمور كلها حتى لا تتهم نفسها بالأنانية طيلة الباقى من عمرها ، ولكنه لم يمهلها هذه الفرصة ، ورفض وحده الإستمرار بلعبة السياسة التى سحبت عمره كله وسنينه فى السجن .. هو الذى قرر ! فلماذا ينبئها قلبه برجوعه من جديد .. سألت بعصبية ، والدمع يتأهب للوقوف على بوابات عينيها:

- إنت عدت للشباب من جديد ؟ قابلتهم ؟ .. أرجوك حاكينى ..

تطلعت لصمته الخالى من الإنفعال .. وحاجبيه المتراقصين فى حيرة ، وأكملت:

– إنت اللى وعدتنى توقف كل شي .. أنا ما طلبت منك ، ليش رجعت لهم؟

نظر نحوها ثم قال كأنه يزيح حملاً عن كاهله :

– أنا ما رحت قابلت حدا ، وما رجعت أعمل شى ..

ثم فسر بعد تنهيدة طويلة وهو ينظر أمامه فى هدوء يكتم غضباً:

– أنا لسانى راجع من الشغل ، كنت قاعد مع الرجال ع القهوة نحضر اللى عم يحصل بالعالم ، إنتِ ما بتعرفى شيء ..!

همس فجأة بصوت كالفحيح:

– أنا كان المفروض روح لألن وما كون جبان ..

ارتاح قلبها فجأة حين أنكر ذهابه للشباب ، و لم تعد مستعدة لسماع المزيد من التفسيرات والأفكار .. أبيها لم يتغير.. هذا هو كل شيء ، كل ما يهمها فى الموضوع .. إستمعت إليه بأعصابها الواهنة وهى تتصلب فى جلستها على الأريكة أمامه من توترها فى اللحظات السابقة ، فى حين أردف هو :

– إسرائيل مش راح تسكت ع اللى عم يحصل .. الإشتباكات بالضفة زادت ، والغارات الإسرائيلية هنا وبلبنان

بتشد لحظة بعد لحظة .. واحنا بالقهوة كان فى قصف لـــشى سبع قرى فى الضفة .. المناضلين ما مكفيهم السلاح ولا الناس والنسوان عم بيمسكوا البنادق ويدافعوا عن عيالهم ..

رفع عينيه فجأة فى عينيها فلمحت إحمراراً متـــشبعاً بالـــدم أرعبها ، وهو يقول بلهجة من لا إرداة له ضاغطاً على حروف كلماته كأنها تنبعث من الجحيم :

– قبل ما يبلش موعد وقف إطلاق النار ، إسرائيل هاتكون حققت أضعاف اللى حققته فى الحرب كلها .. لبنان وفلسطين لو ما تحركوا أهلها هتصير رماد .. إســـرائيل عـــم بتوســـع العمليات البرية فى كل مكان ، وبكرة تسمعى من نجيب شـــو اللى راح يصير بلبنان ، المفروض كنت روح قابل الشباب ..

– روح ..

ند عنها صوتاً خافتاً عذباً وكأنها آهة تنبعث من أعماقهـــا دون إرادة ، قطع حديثه و نظـــر إليهـــا مدهوشـــاً وعيناهـــا الملتمعتان بالدموع تتفحصان وجهه وقد إحمرت وجنتاها مـــن إحتباس ضيقها ، وفوجىء بيديها تمتد لوجهه فتحتضنه بـــين كفيها وهى تقول بنبرات ملؤها الدموع والحنان:

– روح للزلام ساعدهم وعلمهم كيف يـــصيروا رجـــال مثلك، إذا كان هايدا اللى بدك ياه ، وما تعتل همى ...

ثم أزالت يديها عن وجهه لتمسح دموعها المنـــسابة علـــى خديها وأتبعت وهى تقوم من جلستها المتصلبة فوق الأريكة:

- وأنا راح حاكى نجيب واخبره بتأجيل الفرح .. ووقت ما يصير مناسب لإلنا بنكلمه ونحدد ميعاد جديد ، يكون كل شى إنتهى و ما صار فى قتال .

- ما بينفع .. أنا وعدتك .

جذبها ليثنيها عن الذهاب ، فنظرت له قائلة بلهجة صادقة :

- وأنا مش زعلانه ، الفرح أصلاً بيتأجـ ....

قاطعها قائلاً وهو يقوم من فوق الأريكة فى حزم:

- الفرح مش راح يتأجل .. وأنا مش هاروح لحدا .. فاهمة على ! .. الفرح هيكون يوم الإثنين مثل ما بدكن ومش راح يتأخر تحت أى ظروف .

ثم أكمل بإبتسامة شاحبة :

- يللا .. كلمى نجيب ودبرى معه كل شيء ، الفرح فى ميعاده ، ولو عرفت إنك أجلتيه مش هايحصل خير أبداً ..

إبتسمت وهى تتأمل ملامحه السودودة ، وحركة شفتيه المترددين .. تلك الحركة التى يقوم بها حين يريد أن يقول شيئاً، بدا أنه أنهى حديثه ولكنها ظلت منتظرة .. تترقب تأرجح شفتيه وملامح وجهه إلى أن قال فجأة كعادته :

- أنا ما فينى روح لحدا .. أنا عايش إلك وبس ، إحنا الإثنين بلد صغيرة .. أنا وأنت بلدنا .

ثم أحتضنها بكلتا يديه ، ومسح على رأسها واضعاً إياهـــا برفق على صدره .. إستشعرت أماناً مطلقاً يحوطها من كـــل جانب وكلماته تضيء لها طريقاً لم تحسبه كان موجوداً من قبل ، إنتهت دموعها وجفت وجنتاها وهى تتشنج كل لحظات من توترها السابق إلى أن هدأت تماماً بين ذراعى أبيها .. وتفرقـــا كل إلى ما سيفعله ، هو ليستحم وينام وهى لتنطلق نحوالتليفون فتجلس على عرشها فى حجرتها ، وتتوسـد القمـــر مـــلاءة لأحلامها وتدير أرقام لبنان المحتفلة لتكتمل دائرة الفرح حينما تخبر نجيب بما إتفقت عليه مع الشيخ حسين ويتفقـــان علـــى ترتيبات العرس القادم .. وإستغرقها الحديث فى التليفون عـــدة ساعات فى هذه الليلة على الرغم من تأخر الساعة ، وهى تثرثر مع نجيب الذى يحدثها وحيداً مثلها من غرفته فى المترل الجديد بصور ، ينظران كليهما للقمر ذاته الذى يضيء الغرفتين معـــاً كأقدر المعجزات الإلهية وأكثرها مثاراً للإعجاب .. إتفقا على موعد الفرح ومكان شراء الفستان ، وقائمة المدعوين ، وكيف سيتمكنون من دعوتهم فى هذا الوقت شديد القصر ! وإتفقـــا حتى على الأغانى التى سيتم عزفها فى الفـــرح وكـــلاً منـــهما يستدعى تراث الرومانسية فى ذهنه ، وكافة لحظات الإشـــتياق والحيرة التى عاشاها طيلة السنتين الماضيتين ليستخرج الأغـــانى التى كان يحبها والتى أحب لطرفه الآخر أن يسمعها .. إتفقـــا على الحياة سوياً طيلة شهر العسل فى لبنان ، وإتفقـــا كـــذلك على أنه بعد إنقضاء هذا الشهر وتحـــسن أحـــوال نجيـــب فى

المستشفى - التي نقل إليها حديثا — أن يسافرا إلى بلد لقضاء أجازة قصيرة ، ولتكن أى بلد غير مكلفة ولكنها بمنأى عن بحار الذكريات التي تغرق فيها كلاً من فلسطين ولبنان..

جاء ذكر أبيها وأمه وأخوه فى الحديث عدة مرات ، وما سيقومون بفعله لضمان راحتهم الكاملة .. حكت له عن طموحاتها فى تزويج أبيها فى أقرب فرصة لمن تراها مناسبة لهذا الرجل العظيم ، وسردت له قائمة المرشحات التي كانت تعدها منذ فترة كبيرة .. وطلبت منه مازحة أن يفكر فى تزويج أمه أيضاً ، فقال لها أن أخيه مينا أولى بالتدبير والتفكير فى الزواج.. ثم عاد بهم الحديث ثانية عن تفاصيل ليلة الزفاف التي أزفت .. وكيفية تنفيذ مراسم الزواج ! إقترحت هى فى البداية إقامة زواجهما بشكل مدنى بمنأى عن الكنيسة كى لا تضع فارقاً بينهم كأسرة وبين أبيها المسلم.. ثم إتفقا على إقامة الزواج فى الكنيسة ثم إقامة الإحتفال الكبير والزفاف فى منزل نجيب وأسرته ، فالزواج المدنى كفكرة مرفوضاً تماماً فى لبنان بالنسبة للكنيسة لأن الزواج في الكنيسة ليس عقداً بشروط دنيويّة بل هو سرّ من أسرارها .. بمعنى أنه يجب أن يتم بمباركة من رجل الدين المسيحي الذي يمثّل المسيح على الأرض ، وتجاوزا ذلك للإتفاق على أشياء هامشية جداً مثل الطعام فى البوفية وملابس أمه وبذلة أخوه ... و لم يختفى القمر عنهما من عليائه إلا بعدما مل كثرة الحديث وثرثرة العاشقين التي لا تنتهى ، وخرجت الشمس من كهفها المظلم مشمرة عن أكمامها لتتشاجر مع

هؤلاء المستيقظين حتى هذه الساعة .. ولكنها وجدت مريم - التى قضت ليلة مليئة بالمشاعر المتباينة و التناقضات - نائمة على فراشها فى وضع غير مريح ، والتليفون لا يزال نائماً فى صدرها بهدوء .. وقد نسيت أن تغلق النافذة قبل نومها فإمتدت آشعة الشمس ترسم تألقاً من الأصفر الوهاج على سمارها الفاتن ، وتبرز جمالها كفتاة لمرة من المرات الأخيرة قبل الزواج .. جرت الترتيبات على نحو سريع ومتلاحق فى اليوم التالى ، أخذت مريم تعد وتجهز لكل شيء ، وطلبت من أبيها الآف الطلبات ما بين الصغيرة والكبيرة .. ومئات من الأشياء ليحضرها ، وتقبل الشيخ حسين الأمر ببسمة ودود وهو يتلقى سيل الأوامر الجارف هذا ووعد بتنفيذها كلها .. و خرجت مريم إلى السوق الكبير فى المدينة بعيداً عن سوق المخيم الصغير الذى لا يحتوى تقريباً على أى شيء مما قد تريد .. ركبت الميكروباص الكبير الذى يسير فى وسط المدينة منذ الصباح ، وقضت يومها كله تقريباً وسط المحلات تتسوق وتختار وتبتاع ما كانت قد كتبته فى ورقة كبيرة ، إستغرقها التسوق حتى المساء ، فما أنتهت حتى أجهز عليها التعب والإنهاك ، فعادت لبيتهم المتفرد فى سكونه على أطراف المخيم ، ثم تبعها أبيها بعد سويعات قرابة موعد عودته الطبيعى ، لم يتأخر مثل الليلة السابقة وكأنه نسى كل شيء عن المقهى وجلوسه مع الرجال هناك لمتابعة أحداث الحرب الدائرة قبل يومين من الموعد المحدد لوقف إطلاق النار !!

عاد محملاً بالأكياس التى تحتوى بعض ما طلبت مريم .. ودخل إلى الصالة حيث كانت مريم تعد العشاء لكليهما .. تركت شرائح البطاطس التى كانت منهمكة فى تقطيعها وقفزت من فوق الكرسى لتستقبله إستقبال الغزاة العائدين بالغنائم ، وتسربت يديها تقريباً لجميع الحقائب التى دخل بها ، تعاين وتفحص وتقيس الملابس ، وتتحس المفروشات بأنواعها المختلفة ، وتختبر جودة وذوق كل شيء .. ودخل الشيخ حسين إلى غرفته تاركاً إياها مع فوضى الحقائب ، أثلج صدر مريم للحظات أن فكرت فى عودة أبيها المبكرة .. ولكنها فجأة أدركت شيئاً كان قد غاب عنها منذ دخول أبيها ، شيئاً صغيراً .. إهتز قلبها لتلك الفكرة التى راودها فى لحظة واحدة خاطفة ، وسمعت صوت أبيها من داخل غرفته يزعق بصوت عال:

– ما لقيت مقاس سمول من الأخضر فجيبتلك ميديام .. قيسيه حتى إذا ما كان بيلبقلك أرجعه بكير .

وصل الصوت لأذها بوضوح ، لكنها لم تدرك تحديداً ما قاله وعقلها يسبح مبتعداً فى فضاء الشكوك ، حين ذهب أبيها فى الصباح للعمل تصادف أن رأته وهى تعد قائمة المشتروات.. كان يحمل حقيبة غريبة مخططة بالأحمر لم ترها من قبل ، ولكنها لم تعلق على هذا أى أهمية ظناً منها بأنها قد تكون حقيبة جديدة إشتراها من السوق لوضع أغراضه بها .. ولكنه الآن عندما دخل المترل بهذه الحقائب .. لدهشتها، لم تكن

حقيبة الصباح من بينها ! لم تفترض أنه تركها فى العمل ، فلم من يكن من عادته إطلاقاً ترك متعلقاته فى محل العمل !!

- مريم .. سمعانة على؟ شفتى القميص الأخضر اللى بالكيس الكبير ؟

هل عاد من جديد لمهماته الغامضة التى إتفقا ألا يعود إليها؟ عبثت برأسها أفكار للحظات بأنه قرر بدلاً من التوقف عما يفعله أن يعود من جديد لفعله من ورائها .. تماماً كما كان يفعل فيما مضى قبل أن تصحو لتراه مصادفة فى بعض الأيام ، وينكشف الأمر بينهما منذ الشهر الماضى تقريباً، نظرت لباب الغرفة فى شرود وهى تفكر فى أن تسأله عن تلك الحقيبة الغريبة المخططة بالأحمر التى لم تعد معه .. فكرت أن تسأله بسذاجة كأنه سؤال عادى ، ثم قدرت أنه على الأرجح سيفهم سؤالها على أنه إتهام — ولن يكون مخطئاً — و ربما يكون ابتاع فعلاً هذه الحقيبة الجديدة ، ثم حين لم تعجبه ردها للبائع فى اليوم التالى ، بل أن هناك مئات الإحتمالات الأخرى غير هذا الإحتمال لا ترتبط بما كانا يناقشانه فى الأمس ، استراح عقلها لهذه الخاطرة الجديدة ، وهدأ فكرها الذى إهتاج للحظات تحت وطأة القلق المفاجىء ، و عاد الصوت يتردد:

- مريم ...

نظرت للباب من جديد بتلك النظرة الشاردة ، ثم رفعت عقيرتها هاتفة :

- حاضر .. حالاً..

وقامت من مجلسها على الأرض بين الحقائب المفتوحة وحطام الأفكار التى استهلكتها كلها ، وقد قررت أن تترك كل القلق والشكوك ورائها ، وتذهب للرد على أبيها الذى أخذ يناديها لفترة كبيرة .

***

الفصل السابع عشر

من أجل كل شيء .. ولا شيء !

علمته السنوات الماضية كلها أن يفكر ، ولكنها لم تعلمه أن يصل لنتيجة ثابتة مريحة .. حين يعود من جديد ليتذكر " لماذا " يجد سبيل التفكير مسدوداً أمام عقله ، كأنه جدار كبير يحتوى آلاف القوالب من الطوب ولكنه لا يحتوى على معنى ولا هدف ولا يلفت الإنتباه ، مجرد جدار ! .. من أجل أن يحيا وحده حياة أفضل .. ربما ! بالفعل حين ينهك عقله فى التفكير والبحث فى بئر الحياة العميقة يدرك أنه بالفعل لا يدرى .. غابت المبررات تماماً كأنها لفافة ورقية إحترقت فى نيران من سنوات القتل الثمانية فصارت ذرا الرياح ، من أجل ألا يعود لحبيبة الماضى أم من أجل المال ؟! .. لماذا توقف عن كتابة الشعر منذ فترة بعيدة وقد كان هو قوته اليومى حين كانت حياته هادئة كالنهر المنهك ؟ حين وصلت به الحياة للمحيط المخيف المتجدد والخبرة العميقة والموت الذى يطل عليه من بين خلايا عينيه ورأسه توقف عن إثراء قلمه وأوراقه بأبيات قد تتحدث فتحكى مئات من الحكايات، التى قد تدعوه للتفكير من جديد فى أسبابه ودوافعه .. التهم الإتفاق على العملية التالية معظم وقته داخل سوريا ، وجرفته أمواج الإتفاقات والمساومات ومحاولة إستشفاف طبيعة العملية والطرف الآخر وكل شيء بعيداً عن شواطيء الإستقرار الذى ألم به فى

الأسبوع الماضى .. كان حديث الساعة فى كل مكـــان مـــن الشارع وحتى الفندق الفاخر الذى يقيم به ، ذلك الخبر الذى رسم فوق جدران دمشق ومحالها وناسها .. خبر وقف إطـــلاق النار بين القوات اللبنانية وإسرائيل ، ولكن الأصلع كان بعيــداً عن كل هذا .. كاد القلق أن يفتك به وهو معلق من أحبـــال ثلاثة كسجين أسطورى فى سجن صنعته نفسه .. الحبل الأول هو خوفه من وصول إسماعيل أو رجاله إليه إستناداً على ما قد يجدونه من معلومات فى تنقيبهم عبر ماضيه المظلـــم كـــالنفق الطويل ، ولكن هذا لم يحدث قط ! فبمجرد فـــساد جهـــاز الموبايل الذى تحطم عند سقوط السيارة ، و لم يحاول إسماعيـــل الوصول إليه بطريقة أخرى غير التليفون .. على الرغم من أنه لم يغير الفندق الفخم الذى يقيم به ، والذى يعلم إسماعيل كل شيء عنه .. و قد زاره فيه من قبل أثناء الإتفاق على تفاصـــيل تلك العملية الماضية ! والحبل الثانى الذى يشعر أنه معلق إليه هو منة ! .. مساعدة إسماعيل المروان ، المحامية اللبنانية الحـــسناء ، تطورت علاقته بها بشكل كبير منذ لقاؤهم الأول الذى كـــان منذ أسبوعين بالكاد ، ومنذ صحبته إلى السيدة الأنيقة زهـــرة غالب فتخلصا من عبء الأوراق والـــشريط الـــذين كانـــا بحوزتهما.. وهو يتعامل معها ويفكر فيها بـــشكل مختلـــف ، بالطبع لا يفكر فى مستقبل لتلك العلاقة ، فسرعان ما سيغادر نحو مدينة أخرى وعملية جديدة .. وتعود هى للبنان لعلها تجد عملاً آخراً بمساعدة رجال منظمة التحريـــر ، لأنهـــا ســـتفقد

بالتأكيد عملها مع إسماعيل المروان .. ولكن ما حدث بينهما في الساعة الأخيرة أحنقه بعنف فغص حلقه و أبعدها عن ذهنه بعنف ليتذكر ثالث أحبال سجنه .. .. العملية التالية .. قبل أن تنتهى فترة إقامته في سوريا كانت قد وردت إليه رسالة اليكترونية حول عملية جديدة في إيران .. مبلغ مجز ، ومجموعة كان قد عمل معها من قبل في تصوير تفاصيل أحد التفجيرات الإيرانية بقاعدة أمريكية على الحدود ، وإن كان لم يدرك بعد ما هى المهمة الموكولة إليهم في هذه المرة .. ولم يهتم كدأبه . ولكن إهتمامه في هذه المرة كان بشيء مختلف بعيد .. شيء شفاف لا يكاد عقله يبصره حتى يتوه من جديد في زحام تفاصيل الأفكار .. ولو حاول الأصلع أن يجلس مفكراً ليضع إسماً لهذا الشيء الشفاف الذى يأبى أن يزداد وضوحاً لربما كانت الكلمة المناسبة هى الإنتماء .. كلمة مضحكة في الواقع ، بل أنها أكثر الكلمات إثارة للضحك !! تجاوز صوته غلاف أفكاره .. وهو يضحك ضحكة عالية دوت أصدائها في قاعة الإنتظار المكيفة الفسيحة ، وجعلت مجموعات من الجالسين تلتفت له في دهشة .. ثم إستدارت الوجوه من جديد حين رأوه يمسك الجريدة المفتوحة بين يديه ، فتوقعوا أنه يضحك على خبر ما ، لكنه لم يكن قد نظر في تلك الصفحات منذ إبتاع الجريدة قبل الجلوس في تلك القاعة .. بل كان بالفعل يفكر في الإنتماء كمصطلح مجرد ويضحك ! أى انتماء وقد عاش تلك الفترة الطويلة بلا هوية فكرية أو سياسية.. يقدم

خدماته لمن يدفع له دون أى قيود أو شروط ، شاهد بعينيه قتل أهل البلد الواحد لبعضهم البعض ، والمجازر الدموية للمدنيين ، وإغتيال الآمنين .. بل وصور كل هذا على شـرائطه اللعينـة وأعطاها لمن يريدها وتقاضى أجره ، لم يفكر طوال الوقت فى تغيير شيء ما أو حتى السؤال عن نزاهة العملية قبـل الولـوج فيها.. ربما لإدراكه أن أى عملية عنف لابد وأن يكـون لهـا جانبها القذر الذى لا يحكى عنه .. مهما تغلفـت بجوانـب البطولة و الفداء ، وخلت من المصالح الدنيوية .

و لم يكن ليفكر فى هذا لولا إقتراح منـة بـالتغيير ، بـل مطالبتها به .. هى إستسلمت مرة واحدة لإغـواء الـشيطان فقبلت العمل مع إسماعيل وهى تعلم تاريخه الملوث ، بل وربمـا غفر لها هفوتها أنها أرادت الحفاظ على وظيفتـها الـصغيرة فى مدينة يسهل أن تكشر لمن هم مثلها أنيابها إن هى رفـضت .. أما هو فقام بعشرات العمليات دون أن يفكر فى أى شـيء ، وأثرى من هذا السبيل دون أن يحاول التوقف ولو على سـبيل التريث ، و لم يفكر فى إغواء ولا شيطان ولا كل هذه الترهات.

حين تساقطت الدموع من عينيها فى الكهف المظلم وهـى تحكى عن إثمها الرهيب بلوعة التائبين ، سقطت دمعاتها علـى قلبه فأذابت طبقات كثيفة حول ضميره .. وأقنعته بأن يهـدم العملية على رأس مدبرها ، لكنه الآن يبـدأ فى إنـشاء قـصة جديدة لا يعلم مداها ولا أبعادها ولا أى شيء .. إذن أليست كلمة الإنتماء ها هنا من الكلمات المثيرة للضحك ؟

تنهد بعمق وهو يخفض عينيه عن الأشخاص الذين تنبــهوا لضحكته ، ثم نظر نحو سطور الجريدة الشهيرة وهــو يحــاول متابعة أخبار الحرب البرية المشددة على لبنان منذ صبيحة يــوم الجمعة ...

" شهدت الضاحية الجنوبية للعاصمة بيروت، معقل قيادي حزب الله، والجنوب اللبناني عودة نازحيه الذين هجروا خلال ٣٤ يوما من القتال الضاري اندلع بعد أن قام حزب الله بأســر جنديين إسرائيليين في ١٢ يوليو/تموز في عملية "الوعد الصادق" عبر الحدود. ..كما شهدت الطرقات والــشوارع المؤديــة إلى المدن والبلدات جنوبي نهر الليطاني، ورغم ما لحق بها من تدمير، أزمة كبيرة جراء توجه النازحين، الذين فروا مــن الهجمــات الإسرائيلية، إلى بيوتهم، التي ربما تكون قد سويت بــالأرض.. وفي غارات اخرى استهدف طريق في منطقة عكار الــشمالية كما أصيب جسر في منطقة سكانية قــرب موقــع للجــيش اللبناني. و لم ترد انباء عن وقوع اصابات ... ونقلت المروحيات مئات الجنود الاسرائيليين الى جنوب لبنان أمس السبت في اطار هجوم موسع وقال اللفتنانت جنرال دان حالوتس رئيس هيئــة الاركان الاسرائيلية ان اسرائيل ضاعفت قواتها في لبنان منذ يوم الخميس الى ثلاثة امثال ما كانت عليه .

واعلن الجيش الاسرائيلي انه قتل اكثر من ٤٠ من مقــاتلي حزب الله خلال الاربع والعشرين ساعة الماضية ودمر العديــد من راجمات الصواريخ . ولكن حزب الله نفى مقتل ٤٠ مــن

مقاتليه في الاشتباكات .. وفي وقت سابق اعلنت اسرائيل التي وسعت هجوما في جنوب لبنان قبل هدنة مزمعة يوم الاثنين ان ١٩ من جنودها قتلوا في اشتباكات وقعت بالأمس وانه تم اعلان فقد خمسة خلال العمليات بعد اسقاط مروحية ... ويفوض قرار الامم المتحدة ارسال ١٥ الف جندي من قوات الامم المتحدة الى جنوب لبنان لتنفيذ وقف اطلاق النار. ويتوقع على نطاق واسع ان تقود فرنسا القوة التي ستوسع قوة الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان (يونيفيل) الموجودة حاليا في لبنان لكن سيكون لها تفويض اقوى .. " فقد تركيزه من جديد وهو يرفع عينيه فجأه عن الجريدة ويدور بهما فى القاعة الفسيحة الهادئة ، وما أبعده عن عقله يعود الآن بضراوة شديدة .. طرقات موجعة على بوابة الأفكار التى أوصدها من خلفه ، دهش لماذا لم يسمع المحيطون به تلك الطرقات ، رفع إلى فمه علبة العصير ورشف منها فشعر بطعم مياه مليئة بالسكر ومكسبات الطعم ، ولا زالت الطرقات تشغل ذهنه وتسد الطريق أمام كل الأفكار الأخرى .. إستسلم أخيراً للحكاية وذهنه يستعيد ما حدث ببطء شديد ، وكأنه يقصد أن يعذبه فى مازوخية خرقاء .. لقد رفض من البداية أن ترافقه منة فى أى أماكن تتعلق بعمله ، أو حتى أن يريا بكثرة فى الأماكن العامة خشية عليها فى المقام الأول .. فما كانت إلا أيام يسافر بعدها خلف مزيد من المال والدم ، و هى باقية كأثر فى شوارع سوريا فى متناول يد إسماعيل ، ولكنها كانت عنيدة

جداً بهذا الصدد حتى أنه حاول إخفاء أمر العملية الجديدة عليها .. عساها تستيقظ يوماً فتفاجأ برحيله وتنسى كل شيء كأنما لم يكن !!

ولكن منذ يومين حين كانا فى أحدى المطاعم ، وجدت رسالة على هاتفه الجديد أثناء ذهابه للحمام ، أو ربما بحثت هى عنها ، ومنها فهمت كل شيء .. بالطبع لامته على إخفاء رحيله عنها، وطلبت أن يخرجا من المطعم حتى قبل قدوم الطعام .. ولكنها فى المقابل أصرت على توصيله للمطار بنفسها، تماماً مثلما فعلت حبيبته منذ سنين طويلة ..

- .. شو هو ميعاد طيارتك ؟

سؤال غاضب لا يمكن ألا يرد عليه :

- مافيش ميعاد .. أنا بروح المطار وأحجز هناك ، مابتفرقش معايا ..

قطبت حاجبيها وهزت رأسها فتمايل شعرها البنى ، وهى تقول بحدة:

- ليش عم بتكذب على ؟ تفتكر صعب أعرف وحدى ؟!

- مابكدبش ، و إبقى تعالى معايا عشان ترتاحى ..

ومنذ ساعة واحدة تقريباً وصلا إلى المطار ، اتفقا على أن يقوم بحجز التذكرة إلى إيران ويقضيان الوقت المتبقى متسكعان حول المطار فى السوق الحرة المجاورة ، أو يذهبا لعرض قرآ عنه فى دار الأوبرا بساحة الأمويين .. حتى تودعه قبل موعد

الطائرة، وعلى الرغم من إمتلائهما بأنصاف المشاعر غير المكتملة لم يجرؤ أحدهم على الحديث فى أى شىء .. يفترض أن يكون ذلك الوداع نهائياً ولكن أحدهم لم يعلق حول هذا ، لم يتفقا حول لقاء مستقبلى لن يحدث .. ولا تودعا كما ينبغى لقصة بدأت وإنتهت فى أقل من إسبوعين ، على الرغم من أن أحدهما لم يخفى للحظة ميله للآخر وإنجذابه إليه .. ليس حباً ولكنه بالتأكيد كان شيئاً ما .. شيئاً لم يجرؤ أحدهما على وصفه أو التعامل معه أو حتى إلهاؤه بأى طريقة غير المداراة .

وصلا حتى المطار وهى متأبطة ذراعه ويتحدثان فى أشياء تافهة تخفى خلفها الأشياء الحقيقية .. فقط عند مدخل القاعة المكيفة الكبيرة شعرت بإنقباض فى قلبها ، كأن السفر الآن أصبح حقيقة واقعة موشكة على الحدوث .. وصعب عليها تحديد مشاعر الأصلع الحقيقة التى أنطمست تماماً تحت إبتسامته التقليدية ونظارة الشمس الفاخرة ، و لم تعرف ما الذى يتعين عليها قوله ، فقفزت الكلمات من تلقاء نفسها على شفتيها مغطاة بلهجة مرحة تقليدية :

- هاه .. وأنت بقى شو رايح تعمل بإيران؟ هاهربوا شو ها المرة ..

وأردفت وهى تضم إصبعيها لراحتها لترسم شكل مسدس بكفها :

- وللا ها المرة راح تقوصوا حدا ...

صمتت فجأة وقد أدركت بعد فوات الأوان أن هذه ليست مزحة ، ورد عليها هو سريعاً :

– إنت عارفة إني لا بهرب حاجة ولا بأقتل حد !

– مش قصدى هيك .. أنا بس عم بمزح ..

لم يرحم إرتباكها ، وشعرت بأن عينيه الآن تنظـــران لهـــا نظرات مميته من خلف النظارة ، وتوقفا عن الســـير تمامـــاً فى منتصف القاعة .. وقال لها :

– إنت مش بتهزرى ، أنا معرفش أنا رايـــح فـــين ولـــلا هانعمل إيه بالضبط .. بس إنت أكيد مش بعيدة عن الحقيقة ، يا هنهرب حاجات يا هانغتال حد .. عندك حق .

لم تفهم لهجته بشكل أكيد ، هل هو يعنفها ؟ أم يعترف لها بشعوره بالذنب؟ .. قالت محاولة تصليح الأمور فى الحالتين:

– انت ما إلك دخل بهاك الإشيا .. أنت مـــصور محتـــرف وسعره غالى وعملك إنك تصور بس !

لم يفهم لهجتها بشكل قاطع ، هل هى تؤيده وترفـــع مـــن معنوياته ؟ أم أنها تتهكم عليه وعلى سلبيته ؟ .. قال مستمراً فى حديثه العنيد :

– فعلاً .. أنا مالى إنشاله حتى كل الناس تموت فى بعضها ، طالما بيدفعولى فلوس !!

شعرت فى هذه المرة أنه بالتأكيد يعنفها ، ويظن أنها تتهمـــه بالسلبية وإنعدام الإنتماء .. فقالت برفق:

- أكيد العمليات التانية بتختلف عن العملية اللى مرقت .. مش كل الناس إسماعيل المروان ، فى وطنيين عن جد .

شعر فى هذه المرة أنها بالتأكيد تتهكم على سلبيته وعدم وطنيته ، فقال ضاغطاً على الحروف:

- طبعاً فى وطنيين بجد .. زيك كده ، ضميرهم بيوجعهم فيعملو الخير و تبقى الدنيا حلوة !

- إحنا بوسط المطار ، والناس هاتبلش تتفرج علينا

تمتم مبتسماً:

- ع الأقل هيشوفوا الفتاة المثالية الوطنية وهى بتقنع الخاين أنه يتوب .

- أنا ما قلت أنى مثالية .. ولا إنك خاين ..

ازدادت سخونة لهجته وهو يصيح بلهجة مسرحية متهكمة:

- ليه ؟! هو أنت مش عملتى فيها ملاك وروحتى خلتينا نودى الورق ونورط محمود اللى مالوش ذنب فى عملية تخليص الشعب اللبنانى ، تبقى أنت إيه ؟ ..

نظرت له غير مصدقة ، وهى تستوعب للمرة الأولى الشكل الذى إتخذته الأحداث الماضية فى نظره .. وقفت متسمرة تماماً وكأنها مشلولة ، فأردف هو بعدما إنتظرها ثوان لترد عليه بلهجة من يقر الحقيقة :

- مثالية ! .. ومش أنا فعلاً رايح دلوقتى أشترك مع ناس فى إغتيال أو تفجير أو تهريب .. يبقى أنا إيه ؟

عيناها العسليتان معلقتان بيديه اللتان تتحركـــان فى الهـــواء أثناء حديثه ، والنبرة العالية الحادة تخنقها من داخلها ببطء .. لا تدرك ما يعتمل بداخله لكنه بدا لها فى تلك اللحظة بالتأكيـــد مختلفاً تمام الإختلاف عن السابق .. لم ترد ..

- .. يبقى أنا إيه ؟ ... ماتقولى ..

إستجمعت بصعوبة الحروف وهـــى تحـــدق فى وجهـــه ، ولفظتها مرة واحدة بلا إبطاء .. وهى تهرول مسرعة بعيداً عنه فتخرج من البوابة الإلكترونية للمطار أمام مشاعره المتفجرة فى عنف ..

- يبقى أنت خاين .

زفر بعنف وهو يدفن رأسه فى كفيه ، ويتطلع من جديـــد للحشود التى بدأت تتوافد على قاعة الإنتظار الخارجية فى المطار مع إنتصاف النهار ، وتكورت علبة العصير الورقية بين يديـــه حتى قبل أن تفرغ تماماً .. وقد أعاده إسترجاع الحكايـــة مـــن أولها إلى الحالة التى كان عليها حينما تركته .. لم يـــستطع أن يذهب إلى موظفة التذاكر فيطلب منها تذكرة السفر ، خيـــل إليه أنها ستنظر له فى قرف وإشمئزاز وكأنها ترى حيواناً ميتاً .. فإنتهى به المطاف فى تلك القاعة الشبيهة بالكافيتريا ، بين يديه علبة العصير ، والجريدة التى إبتاعها لعلها تخرجه مما هو فيه إلى مشاعر أكثر شمولية وإكتمالاً .. فحين نطالع مشاكل العالم كله فى الجرائد — وما أكثر هذه المشاكل — يخطر لنا بالتأكيـــد أن مشاكلنا الخاصة أكثر تفاهة مما نتصور ، وإننا لسنا حقاً محـــور

الكون ولا مصائبنا هى الحدث الأهم لهذا اليوم .. لكن الجريدة بالنسبة للأصلع لم تفعل شيئاً سوى أن تعيد على مسامعه سرد الحكاية من جديد ، وما الأخبار التى قرأها إلا إنعكاساً لما تحدث فيه مع منة منذ قليل ..

ألم تكن تلك العملية التى إنتهت تهدف فى النهاية إلى تشويه صورة لبنان بعد وقف إطلاق النار ، وتسليم عدداً من الذرائع لإسرائيل لفرض المزيد من الشروط ، أو حتى التباطؤ فيما هو مقرر عليها فعله .. نحن زرعنا قنابل أرضية فى حقولكم فأتلفنا محصولاً إقتصادياً لعام كامل ، وأنتم إستعملتم أسلحة محرمة دولياً لم نستخدمها حتى نحن الإسرائيليون حرصاً على المدنيين الأبرياء .. أليست هذه هى الصورة عند إكتمالها ؟! أليست منة محقة ؟ أليست الجريد محقة ؟!! ...

أحنقته تلك اللعبة التى يحاول عقله لعبها معه ، ما الذى يريده تحديداً وبأى شكل يراه ؟ هل هو خائن أم هل هو منتم؟! والسؤال الأكثر أهمية من هذين السؤالين هو .. هل الخيانة فعلاً هى الكلمة المضادة للإنتماء ؟ وهل للتضاد معنى إذا ما كان فى قضية مصيرية مثل هذه ؟! .. غاصت قدميه فى رمال التساؤلات التى إمتصته بداخلها فى نعومة ، وسرعان ما غاب كله وسط تلك الرمال حتى ما عاد شاعراً بما يدور حوله.. ولكن يديه إمتدت من قبل ذلك التهاوى الأعظم علها تمسك بطرف طيف من الذكريات يجوب تلك الفلاة المقفرة ، أمسكت يديه بطيف طالب مجتهد يحوط به الدفء من كل

جانب ، ربما كانت الحياة تلقنه دروسها ببطء أثناء تلك السنين، ولكنه كان سعيداً حقاً بتلك الفترة .. أيام الكلية والحب والطموح فى العمل كمصور للإعلانات فى الشركة التى يعمل بها والده ، كان الحب همساً وطموحاً وأملاً كباقة من الزهر متنوع الألوان .

ثم فجأة تحول إلى مفاوضات ومناقشات وإعتراضات .. كأنه شركة أعلنت إفلاسها ويحاول الشركاء إنقاذ ما تبقى فيها.. ثم كانت الغربة ، والقفزة الكبيرة التى القته من المطار وحتى هنا ، نما فى داخله مع مجابهة الموت الدائمة إحساساً بالتفوق ، إحساساً بالشجاعة والإقدام والإختلاف ، ولكنه كان فى الحقيقة سلبياً .. يمارس السلبية بإنتظام طيلة السنوات الماضية ويظن نفسه أكثر المخلوقات إيجابية ! بدا له من عظيم السخف أن يفكر فى أنه لم يختر لنفسه أى شيء من قبل ، بدت له الجملة مبتذلة ..

أن يصر الإنسان على أن حياته مخططة من قبل غيره وهو يراها صامتاً تتحرك أمام عينيه لهو السخف بعينه ، ربما لم يكن هو من خطط لإستعانة الأمن به لتلك المهمة الأولى فى إيران .. ولكن كل ما أتى بعد ذلك هو إختياره بكامل إرادته ، منذ تركه العقيد حسام جلال فى ذلك المقهى أمام قبة بيبى خاتون أمام مجموعة متنوعة من الإختيارات إختار هو من بينها الأسوأ.. اختار الإبتعاد عن وطنه وعن حبيبته ، وإختار أن يغرق نفسه فى الدماء مجهولة الولاء ، يوم أن فضل أن يغلق

بيديه ذلك الباب النافذ كطعنة فى قلبه! .. يوم أن أدرك أنه لا يحب النهايات المفتوحة !!

فى تلك اللحظة قتله وعيه بما فعله ، غادرت عقلـه كـل المسلمات الخرافية حول إستسلامه لقدر وهمى .. هو بنفسه قال أنه لا يحب النهايات المفتوحة ، لا يحب أن يلتقى بالعقيد الآن ولا بحبيبته وربما بأهله كذلك ، وأدعى أن حياتـه فيلماً سينيمائياً ! إنقضت نهايته برحيل البطل عن البلاد وفراقه عـن البطلة . فضل أن يشاهد حياته كأنها فيلماً من الخارج ! تـرى أى المخلوقات أكثر سلبية بعد هذا ؟! .. ولكنه نسى شيئاً هاماً جداً .. حتى الأفلام الناجحة يقدم لها أجـزاء جديـدة طيلـة الوقت ! يتتبع فيها المعجبون أبطالهم بعدما دارت بهم السنوات وتفرقت المصائر .. فى هذه اللحظة فقط أدرك أنه كان يضحك على نفسه ، من قال أنه يحب النهايات المفتوحة الغامضة ؟! أنه الآن فى أمس الحاجة لأن يجد شخصاً من ماضيه يـساعده فى تكملة تلك النهاية حتى تصير مغلقة عن آخرها ..

قام من فوق المقعد فى تلك القاعة الصغيرة تاركاً الجريـدة وعلبة العصير فى مكانيهما .. إستنشق الهواء المكيـف دفعـة واحدة فشعر بالبرودة تسرى فى صدره ، وقلبه يقفز بداخله .. حمداً لله أن شجاره مع منة جعله لم يشتر تذكرة حـتى الآن ، وإلا كان كل ما بداخله إنحسم فى الطائرة التى لابد أنها أقلعت الآن !! لم يهمه إذا ما كانت منة تقصد بالفعل إتهامه بالخيانـة عندما قالت ذلك أم إنها فقط كانت تضع الحجـر الأخـير فى

جدار الكلمات الذى بناه أمامها بـصوته العـالى وألفاظـه المتهكمة، لكنها بالتأكيد أسدت له معروفاً قد لا ينساه لها ! .. قرر أن يشترى تذكرة بالفعل ، ولكن ليس لإيران .. فهذا بلد ملىء بالصراعات والخلافات التى لا تحتاج بالتأكيد لزائر غريب ليزيدها سوءاً ، هذا بلد فيه حرب ! سوف يشترى التـذكرة التى كان لابد له من شرائها منذ زمن بعيد .. إلى وطنه ..على وقع قدميه المتجهتين ناحية نوافذ بيع التذاكر سارت ذاكرتـه خطوة تلو الخطوة نحو الماضى ، وغاب عقله فى المشاريع الـتى يخطط لها منذ تلك اللحظة لمستقبله ، لم يفت الوقت كى يصير مصوراً شهيراً للإعلانات .. سيحتاج بالطبع إلى وقـت حـتى يندمج فى سوق العمل الفنية لكن لا بأس ، سيحاول كذلك أن يجد حبه الحقيقى فى المكان الذى سيستقر فيه .. ليست فكـرة تكوين عائلة من أولوياته ولكنها الآن تقفز من الماضى شـأنها شأن كل شىء آخر ، قد يأتى اليوم الذى يتذكر فيه رحلاتـه وأسفاره والموت والرصاص والدماء كصور باهتة تعود لعهـد منقضى حين يلمح مع أحد أطفاله مسدساً مائياً بريئاً ، ربمـا يعود كذلك لكتابة الشعر من جديد .. فهو لم يكتب أو يقـرأ أو يستمع للشعر منذ قرون ، لا .. بل آخر مرة إستمع فيهـا للشعر كان لذلك الشاب العراقى الطويل ذو الشعر المجعد منذ أكثر من شهر ، تحديداً فى الليلة التى سبقت ضرب الإسرائيليون لمطار بيروت .. الليلة التى سبقت الحرب الحقيقية ، لا يدرى ما الذى جعل ذهنه يقفز فجأة إلى توقيت هذه العملية ، كانـت

الأوضاع متردية حقاً فى لبنان والقصف الإسرائيلى قد بـــدأ .. لكن أحداً لم يكن يتوقع تلك الحرب بذلك السيناريو الـــذى حدث فعلياً ، أو هذا هو ما يظن !!

جاءه خاطر مخيف وحاد وهو يتحرك نحو نافذة التـــذاكر ، فتذكر ما حدث فى تلك العملية ..

إذا كان هو قد ذهب مع شيعة عراقيين لإغتيال عميد سنى مختبىء فى لبنان ، ما الذى جعل الإسرائيليين يقصفون المكـــان كله بعيداً عن هذا المبنى بالذات كما لاحظ يومها ؟! وهل يعنى هذا إفتراض وجود علاقة بين هذا العميد الفار وإسرائيل حال دون قصف المبنى ؟! .. كان قد قطع تقريباً نصف المسافة نحو نوافذ البيع حينما فكر فى أنه ربما كان هؤلاء المغتـــالين علـــى حق! ربما كان ذلك العميد خائناً بالفعل ! ومهمـــا يكـــن .. فهنالك بالفعل مناضلين يخدمون أوطانهم بجد ، مجاهدين بالحق وليسوا مجرد سفاحين يبحثون عن السلطة أو المال أو أى شيء آخر غير نصرة بلادهم .. توقف تماماً أمام النافذة الـــتى تطـــل منها الموظفة الحسناء المتسائلة ، وقد أدرك أنـــه ربمـــا كانـــت العملية الأخيرة – فى سوء نواياها – مجرد مصادفة .. قد يكون عقله يضلله بدعوى عدم الوفاء ليبعده عن طريق لم يكـــن فى الحقيقة من الخطأ فى شيء ، حتى منة قد تكون قصدت كلامها فعلاً حين قالت له " أكيد العمليات التانية بتختلف عن العملية اللى مرقت .. مش كل الناس إسماعيل المروان ، فى وطنيين عن جد " .. هل قضى تلك السنوات يحارب من أجل شيء ما أم

من أجل لا شيء ؟ لم يستطع أن يجيب إجابة شافية كعادته فى تلك الحيرة المتخبطة .

إرتطمت الذكريات المنبعثة فى سرعة من نفق سنوات عمره بجدار الحاضر إرتطاماً عنيفاً فتناثرت حبات صغيرة من الشظايا فوق كل شيء ، وتداخلت الصور كلها وهى تجرى من حوله فصارت بلا معنى بالنسبة له ، يرى الدماء تغرق ثوباً ظنه طاهراً .. وسلاسل الذنوب يجرها ملاك متعب مثخن بالجراح ، وقف شاعراً بالعجز وبأنه لم يفكر جيداً .. فقط بحـث مـن هـذا الإرتطام المروع جميع التساؤلات .. قامت علامات الإستفهام بحمايتها من إندفاع الحقائق وتلون الأكاذيب ، فأوقفتها موقفاً محايداً ، صلبة وحادة ... ولأول مرة فى حياته يرى أن التساؤل أقوى من الحقيقة ! بل أنه هو الأصل الذى أشتقت منه جميـع الأكاذيب التى يقنع بها الإنسان نفسه على مـدار الحيـاة .. وتدافعت الأسئلة كالقذائف حوله فى المكان ..

هل ما عاش حياته ليفعله صواب أم خطأ ؟ هـل يكفيـه التدقيق فيما بعد فى العروض الأخرى حتى يصير بمنـأى عـن الشعور بالذنب؟

نظرت له الموظفة من خلف النافذة قليلاً وهى تتعجب لماذا لم يطلب منها شيئاً بعد .. هل يعود لوطنه ؟ أم يـذهب مـن جديد لعملية أخرى قد يكون سيفاً للحق فيها أو ثعبانا فى يـد الشيطان ؟ .. قررت أن تسأله فقالت بلهجة مهذبة :

– فى أى إستفسار لسعادتك ؟! .. لوين بدك تسافر ؟

فى غيمة من التساؤلات ، ومن دون أن تمر الجملة على عقله قال لها على وجهته ، أخرج من جيبه النقود .. وأمسك بالتذكرة دون حتى أن ينظر فيها ، إتجهت قدماه لصالة الإنتظار مبتعداً عن نافذة بيع التذاكر ، تتلقفه حيرة السنوات كلها بين كفيها ، وظنه بأن الأقدار قد رسمت له مساراً آلياً لا يمكن إختراقه قد تمخض عن وهم .. لقد أخبر الموظفة الجالسة فى نافذة التذاكر بوجهة سفره منذ لحظات ، وكان بإمكانه أن يخبرها بأى شيء وفقاً لإرادته هو . إلى وطنه .. إلى إيران حيث عمليته القادمة أو إلى الجحيم ! وعلى الرغم من هذا لا يجعله يعتبر أن ما أخبرها إياه هو حقاً ما يريد .. أنه كمن مد يده طالباً المساعدة وهو يغرق فى ذلك المحيط من التساؤلات ، حين يسأله منقذه عن الطريقة التى يريد أن ينجو بها مخيراً إياه من بين عدة طرق ، فيجيب صارخاً بإحداها .. لا يمكن أن نعتبر أن ذلك الإختيار مبنى على إرادة مفكرة ، أو قرار حكيم مدروس .. أياً كانت وجهة هذه التذكرة فهى ستقوم بإنتشاله من الغرق ، وترتفع به إلى السماء حيث يتفتح الأفق الجديد كاشفاً عن أفكار جديدة طازجة ومخاوف جديدة كذلك ..

على الرغم من إنقضاء الأمر فعلياً ، وكونه يسير حاملاً تذكرته نحو الطائرة ، إلا أن ذلك المحيط اللعين لا يزال يجذبه لأسفل بعنف ، وسؤالاً جديداً يفسح لنفسه المجال وسط الملايين من مثلائه ..

هل بالفعل هناك من يسعى خلف حلم — أم لعله سراب — إسمه وطن بلا حرب ؟ أم أن الكل عميلاً خائنـا متـورط فى لعبة قذرة ما ؟

وإذا إفترض أنه كان يبدد حياته كلها من أجل لا شيء .. فهل هنالك حقاً من عاشها من أجل .. كل شيء ؟!! ..

***

كانت الإشاعات قد إنتشرت بالفعل فى وسط المقاتلين بأن الشيخ حسين قد إعتزل العمل السياسى كله ، الحـزبى منـه والميدانى .. لا مزيد من مبادلات السـلاح والإسـتفادة مـن علاقاته بكافة أطراف الصراع الفلسطينى ، ولا حـتى بخبرتـه كمقاتل باسل فى رسم الخطط وإعطاء النصائح — والأوامر — العسكرية للجيل الجديد من رجال المقاومة الفلسطينية .. ولكن الرجال قد اكتشفوا اليوم بأنفسهم فى نشوة غـير المـصدق ، كذب هذه الإشاعة التى جرت بينهم مجرى الحقيقـة خـلال الإسبوعين الماضيين ، والشيخ حسين بنفسه قد ظهر من جديد نافياً كل ما قيل إن لم يكن بكلماته فبأفعاله !.. كما كان دوماً رجل فعل لا قول .. وعلى الرغم من الحرارة الملفحة التى تغزو الميدان ، ولهيب الشمس يحرق ظهور الرجال المنبطحين علـى بطونهم .. لم تمنع شعاعات القيظ المتسربة إلى الأرض العشبية عبر فتحات التعريشة الكبيرة التى تغلف ذلك البستان الـضخم نجاح رجال المقاومة الفلسطينية فى التسرب فوق الأرض المظللة إلى حد كبير ، ذلك البستان الذى بدا شديد التنـاقض مـع

المستوطنة الإسرائيلية الفقيرة ،التى بلا شك تتلاحم فى بعض أجزائها مع غزة ذاتها من الناحية الشمالية .. كان ذلك التوقيت يفتقر تماماً إلى الخبرة العسكرية المفترضة ، ويناقض الإستراتيجيات المتبعة فى ذلك النوع من العمليات الصغيرة كل تناقض .. ولكن من يستطيع أن يعترض على خطة وضعها بنفسه — بل وشارك فى تنفيذها أيضاً — الشيخ حسين أسد النضال ؟! إنتقلت الأوامر من قيادات عليا إلى رؤساء أقل حتى الشيخ حسين .. ثم لاحت تلك الأوامر أمام الشباب من المناضلين المتطلعين لوقف النزيف الدموى للقطاع كله أبان الحرب التى إنتهت فى لبنان بالفعل صبيحة هذا اليوم ..

ذكر العالم لبنان بالهدنة ولكنه لم يذكر لفلسطين أى شيء!! وكأنها العادة الأزلية ! فعلى المستوى الفلسطيني فإن الحرب لم تتوقف اصلاً. ومنذ سنوات، وحتى أثناء الحرب على لبنان تقوم إسرائيل بعمليات اغتيال وهدم للبيوت في المناطق الفلسطينية كافة. كما تستمر وبتفاوت عمليات الرد تارة بقصف المستعمرات أو بعمليات تفجير .. ولا يبدو أن الوضع يتجه نحو الاستقرار أو عقد التسويات ! ... بل وحتى قبل خطف الجنديين الإسرائيليين في جنوب لبنان بأسابيع قليلة كانت حركة حماس قد إختطفت كذلك جنديًا إسرائيليًا من داخل غزة. وطوال تلك الأسابيع لم تتوقّف الهجمات والغارات الاسرائيلية على القرى والبلدات الفلسطينية. وارتكب الجيش الإسرائيلي عشرات المجازر، من دون أن يتدخل أحد في العالم

لمنعه او إدانته ، وقام باعتقال مجموعة من نواب حماس ووزرائها، لذا عندما خطف حزب الله هذين الجنديين، نجح في إضعاف الطوق المفروض على الفلسطينيين .. وتردد أن التفاوض لإطلاق الأسرى قد يتخذ مسارًا واحدًا في لبنان وفلسطين. إلا أن الحرب التي اتسعت رقعتها وتعقيداتها السياسية والديبلوماسية أبقت كل صيغة تبادل على حدة ، إلا أن الأهم من ذلك كله أن اصرار حزب الله على رفض اطلاق الجنود من دون تبادل، دفع حماس إلى عدم التراجع واعتماد المبدأ نفسه على الرغم من كل الضغوط التي قد تتعرّض لها.. !!

كم كان الموقف شديد التعقيد والضراوة حتى بالنسبة للشيخ حسين الذى خاض العديد من المواقف الأكثر عنفاً ، ولكن تلك الصورة المرسومة بداخله لدولة ربما ليست موجودة من الأساس .. هى ما يصدمه طيلة الوقت من مفردات مجازر وحروب يعتبرها الآخرون مجرد نتيجة طبيعية لتلك الأوضاع المتذبذبة ، ولكن بصيرته السياسية النافذة لم تمنعه من إدراك العاقبة الوخيمة لتلك الحرب مع قرب نهايتها ، وربما كان هذا هو ما جعله يحنث بالوعد الذى قطعه على نفسه أمام مريم .

فالحرب التي استهدفت إستعادة هيبة الجيش وقدرة الردع أسقطت النسبة المتبقية من تلك الهيبة ، فعلى الرغم من الإفراط في القوة وعشرات آلاف القذائف ... والتدمير الهائل غير المسبوق... لم يتقدم الجيش نحو الأهداف التي حددتها القيادة

السياسية له ، و مع تلك الهدنة خرجت إسرائيل متضرّرة، ومضطربة من هذه الحرب وهي تحتاج إلى إعادة ترميم مفاهيمها العسكرية والسياسية والأمنية .. وإذا كانت القيادة الاسرائيلية تتحدّث عن استعداد للتفاوض أو لإحياء مسار السلام مع الفلسطينيين ، تلك الأحاديث الوهمية التى تخرج من صفحات الجرائد كل يوم لتملأ عقول الكثيرين ..

فليس ذلك إلا لمجرد أنها تريد تحويل الأنظارعن فشل الجيش في لبنان وعن لجان التحقيق في أسباب الاخفاق في الحرب. لكن لا شيء يؤشّر إلى إستئناف التفاوض في المدى المنظور خاصة وأن الحكومة الفلسطينية ذاتها يعاد ترتيبها بعدما حوصرت حماس طيلة الأشهر الماضية وبات خيار الوحدة الوطنية هو المخرج لأزمة الحكم بين حماس وبين السلطة ...

ولكن السنوات الماضية من عمر الشيخ حسين شهدت العديد والعديد من التغيرات ، تسربت سنوات السجن إلى منتصف عمره فقسمته إلى قسمين .. ظن منذ أخذ إبنته بعيداً عن المخيم أنه يفر من ماض موجع ، ظن أنه لم يعد ذو فائدة و لم تعد لحياته قيمة .. وأنه كان يحارب طوال عمره من أجل لا شيء ، كل معلوماته الحربية صارت قديمة ، وخبرته بالأسلحة إختلفت عن الواقع ، وصار يعامل كرمز من رموز الحزب .. وكأنه سلاح .. سلاح حاربوا به قديماً حين كان ذا عون والآن ظهرت أسلحة غيره أشد فتكاً ومكراً فصار بلا قيمة .. غير أن السؤال الخالد فى ذهن الفلسطينيين منذ عمر

بعيد هو كان ما يؤرقه وهو يزحف نحـــو تلـــك المـــستوطنة الصغيرة..

هل سيأتي يوماً ما سيرحل الإسرائيليون عن فلسطين للأبد؟ وتصير حكايا مثل حكاية هذه العملية من القصص البطولية التي لن يفهمها الأطفال لأنهم لم يعيشوها ؟! .. وكالعـــادة ظـــل سؤاله بلا إجابة ..

الآن وهو يتذكر طفلته الكبيرة مريم يدرك أن حياته كانت ذات معنى ، كان يحارب لها .. ببساطة هـــذه الجملـــة ، دون التمسك بشعارات ذوت مع إنقضاء الـــسنوات ، لم يكـــذب عليها حين قال لها أن هما الإثنان دولة .. أنا وأنت بلدنا .. بل كان يقول الحقيقة بعينها .. ولكن هذه الدولة مهددة .. منـــذ إنهدمت قريتهم الصغيرة ومات أبيها وأبويه صارت تلك الدولة مهددة .. وحتى يعودان من جديد لقرية آمنة لا يخشون الموت فيها تظل تلك الدولة مهددة .. لم يعد — بل و لم يكن يوماً — من الكافى أن يضمها بيديه بين طيات صدره حـــتى تـــصير فى أمان .. لم يعد إنغلاق المزلاج المعدنى الفقير فوق باب بيتـــهما الخشبى بمثابة حصن يؤمن دولتهما الصغيرة ، لهذا هو يحـــارب من جديد ، لم يستطع أن يخبرها بالطبع بأنه عاد مـــن جديـــد لملاقاة الرجال وتدبير عملية جديدة لإنقاذ ما يمكن إنقـــاذه فى قطاع غزة الذى يتهاوى فى سرعة جنونيـــة أمـــام وحـــشية هجمات ما قبل الهدنة اللبنانية ، حاول أن يخبرها حـــين عـــاد المنزل منذ يومين لكنها وضعت أمامه الخيار المستحيل ، حدثته

عن نجيب وعن سعادتها وعن عرسها التى تريد إقامته بعد يومين ثم سألته عن أحواله ، وكأنها تتوقع أن يقول لها فى بساطة أن يومه هو الآخر كان جيداً ، فقد سمع عن المجازر ما جعله يتراجع فى قراره بعدم المشاركة فى النضال من جديد .. كذب عليها .. وأخبرها أنه فقط كان جالساً على المقهى ! لم يدر إن كانت قد صدقت كلماته أم لا! ولكنها على الأرجح قررت أن تصدقه ولا تترك لشكوكها العنان .

حاول ألا يشعرها بأى فارق ، إستلم منها فى الصباح قائمة طلبات العرس .. وعاد إليها فى المساء حاملاً ما طلبت وأزاد من عنده ، لم يشعرها بأنه فى هذا اليوم تخطى سياج حدود إسرائيل وذهب حتى رام الله من أجل تدبير الأسلحة لتلك العملية ، ولم يشعرها بأن أياً من هذه الأشياء لم يشتريه بنفسه، بل أنه بعث بأحد الشباب ليحضر كل ما فى القائمة ! .. فقط وهو عائد على مقربة من طريق المترل الترابى شعر بالتقصير فعرج على السوق من جديد ليشترى بعض الهدايا التى يختارها لها بنفسه كما ينبغى على الأب والأم أن يفعلا إستعداداً لعرس إبنتهما الوشيك .. رفع عينيه للشمس المتوهجة التى تتوسد السماء ، وحفر صورتها فى تجاعيد وجهه القسيم وهو يحاول إدراك ذلك الوقت من اليوم .. تركيزه مشتتاً ما بين الزحف المتصل وإبنته الوحيدة .. عاد من جديد ينظر للرجال الذين يتحركون أمامه، ثم أشار لهم رافعاً يديه حين لاحت له الدورية الصغيرة التى تجوب أسوار المستوطنة بلا ترتيب دقيق !!

إنبطح الجميع أرضاً كاتمين أنفسهم ، وحـــرارة الأنفـــاس الملتهبة من الوجوه الملتصقة بالتراب تعود من جديد لتـــضرب الرجال فى جباههم .. وعرقهم يسيل على أعينـــهم جـــاعلاً الرؤية الواضحة من ضروب الخيال ، تقطب الحواجب الكثـــة فى محاولات مستميتة لإستنفار المرئيات على الوثوب فى عيونهم من بين حبات العرق .. وعيونهم المحملقة ترصد رجال الدورية الإسرائيلية الخمس داخل السيارة المكيفة ، وهم يتبادلون المزاح والنكات .

.. نظر الشيخ حسين خلف كتفه من جديد ليبصر الرجال المنبطحون أرضاً ، ثم أشار لأحدهم هامساً:

– انطرنا عند البوابة هون ، ولا حركة لحد ما نرجع .

وتقدم مع الآخرين من جديد زاحفين على الأرض الترابية ، وهم يتابعون بأعينهم سيارة الدورية التى تجاوزتهم حتى ذابت فى الأفق البعيد ، حتى وصلوا إلى سور واطـــىء مـــن الأســـلاك الشائكة التى تحيط بحدود المستوطنة من الخارج .. جلسوا على الأرض معتدلين فى راحة نسبية ، وأخذ ثلاثة مـــن الـــشباب يفتحون فجوة فى هذا السور بإستخدام مقص حديدى كبير.. فك الشيخ حسين الشال الملقى حول رقبته ثم أعاد ربطه مـــن جديد على رأسه ليقيه الشمس الحارقة ، وخيل له أنه يـــسمع فى تلك اللحظات نغمات الغناء المتصاعده من بيتـــهم وحـــتى لبنان .. كانت الليلة فرح مريم كما إتفق معها ومع نجيب ، فى الصباح الباكر تم وقف إطلاق النار بالفعل بين لبنان وإسرائيل

.. وعلى الرغم من الخسائر فالفرحة لا تقدر بثمن ، وفى المساء تنطلق الزغاريد من العمارة التى يسكن بها نجيب فى مدينة صور الهادئة ، حاملة الأفراح عبر الساحل كلـــه .. ليأخـــذ نجيـــب عروسته المزينة التى تليق به وسط جمهور المهنئين وينطلق بها نحو درب من السعادة الهادئة الآمنة .

.. لابد أن مريم الآن تنطلق إلى لبنان فى سيارة الميكروباص المزينة والملأى بنساء المخيم من صديقاتها والجيران ، والزغاريد تشق الفضاء فى كل مكان .. وعدها أن يجيء إلى لبنان قبـــل العرس بساعات ليشرف بنفسه على جميع التفاصيل ، ولكنـــها قالت له فى رجاء:

– ضلك معنا ، وها الباص بيساع الكل .. مـــا حبكـــت الشغل اليوم .

فضحك قائلاً وهو يرنو للشمس التى لا تزال تشرق مـــن بعيد:

– وأنا شو اللى يوديني هناك وش الفجر ، أنا هانطر للعصر وآجى مع الرجال كلياتهم .. ما بيصح أنى أتركهم هيك وآجى معك ..

– بس تيجى ع المغرب ، إياك تتأخر .. السكة طويلة!

إبتسم لها من جديد ..

– نياله ها الزلمة نجيب بياخد عروسة تطير العقل ..

تركها تحضر حقائبها للذهاب إلى لبنان ، ويكاد الآن و قد إنتصفت الشمس فى السماء أن يسمع صوت غناء النـــساء فى

الميكروباص المتمايل فى غنج وكأنه يـــرقص ، وهـــن يغـــنين ويصفقن وينقرون على الدربكة ، تنضخ وجـــوههم بـــالعرق لكنهم ينطلقون بأصواتهم فى فرحة حقيقية بالأغنيات الـــشعبية القديمة ويرددن ..

كوكية طلبت دبوس .. خد الشايب ما بتبوس ..

بدها شاب يكون محروس ..

كوكية يا كوكية ..

تسوى الفين ومية .. تسوى القاضى والمفتى ..

وحتى رئيس البلدية ..

ويشق الفضاء صوت الزغرودة الفلسطينية العاليـــة تتبعـــه أصوات النساء الآخريات فى زغاريد مماثلة .. فى فرحـــة مثـــل تلك الفرحة يشعر الإنسان حقاً أنه بحاجة إلى أقربائه الحقيقيين، صحيح أن هاته النسوة اللائى سيركبن الميكروباص مع مريم هن صديقاتها فى المخيم وجيرانهم الأعزاء .. ولكن مهما كان قـــدر إعتزازها بهم فهى أصلاً لم تنتقل لصفد إلا منذ سنوات ضئيلة.. لهذا شق عليه فراقها فى الصباح ، ليس بين يدى أم ترعاهـــا .. ولا حتى أقارب حقيقيون لها .

تمنى وهو جالس تحت السماء الساخنة كالصاج أن يعـــود بأسرع وقت ممكن حتى لا تكون وحدها فى صـــور .. يقـــف بجوارها ويساندها ويمازح الرجال ، يتكلم مع نجيب فى مـــزيج من نصائح رجل لرجل وتوعد أب لزوج إبنته إن حاول إفساد

سعادتها بأى شكل ، إن الطريق من القطـاع حـتى صـور سيستغرق حوالى ست ساعات كاملة فى ظل هذه الظروف إن هو أسرع ، وهذا يعنى أن يصل تماماً مع بدء مراسم الزواج ..

.. إلتفت إلى الشباب الذى يقطعون السور ، ونظر نحوهم نظرة ملؤها التعجل ، يستحثهم على المزيد من السرعة ، ومـا لبث أن إنقطع شق كبير فى السور فمر منه الرجال .. وأخـيراً قام الشيخ حسين مستنداً على يديه ، ومر من السور الـضيق ضاماً سلاحه إلى كتفه ومحيطاً يديه بالحقيبة الصغيرة المخططة.. صار الجميع أخيراً داخل حدود المستوطنة ، ألقى الشيخ حسين نظرة عابرة للفتى فى الخارج ليتأكد من أنه ما يزال فى موضـعه ثم أسرع إلى الداخل حيث وقف جميع الرجـال فى صـحراء واسعة تنتهى ببضعة مبانى على بعد خمس دقائق مـن المـشى الحثيث .. مسح أحد الشباب عرقه بظهر يده وهو يقول لاهثاً:

- موقعنا مكشوف جداً .. كيف فينا نوصل للخزان ؟!

لم يخف الشيخ حسين توتر عينيه وهو يقول بصرامه :

- يللا ..

ومضى يهرول بحذر مقترباً من المبانى البعيدة من الناحية التى تقل بها النوافذ ، وتبعه بقية الرجال .. حـتى وصـلوا نحـو الخزانات .. أخرج الشيخ من حقيبتـه الـصغيرة المتفجـرات والأسلاك وعلب التفجير وقام بتوزيعها على الرجال ، وبـدأ الرجال بالفعل فى التحرك حول المكان لتثبيتها ، حين قام ليقف

خلف الجدار لمراقبة الطريق .. بعد ثوان تعالى فى آذانهم صوت سيارة الدورية العائدة فإنبطحوا أرضاً من جديد ..

الآن هم فى خفاء عن الدورية بسبب المبانى المحيطة بهم ، ولكن ربما يرى الجنود الفتحة التى صنعوها فى الأسلاك الشائكة و ... دوى صوت صرير حاد لعجلات السيارة ، صمت بدا طويلاً .. ثم أعيرة نارية متتالية ، وتمكن الشيخ حسين من تمييز نوع السلاح .. كانت هذه الطلقات من مسدس الضابط وليست من بندقية الفتى الذى تركه بالخارج ، أيعقل أن يكونوا قد رأوه وأصابوه دون أن يطلق الرصاص؟! ..

نظر من حوله للرجال المنبطحين ، وكاد أن يخبر أحد الرجال بأن يذهب للاستطلاع حين دوى الجحيم فوق رؤوسهم .. رسمت الطلقات المندفعة من بنادق الإسرائيلين مسارات نارية فى كل مكان من حولهم ، وسرعان ما سمع إنفجار أحد العبوات المتفجرة التى ينسقها الرجال ثم صوت الطلقات من جديد ، فهب الجميع من إنبطاحهم وقد أدركوا أن توزيع المتفجرات قد تم بنجاح و لم يتبق لهم سوى مرحلة التفجير الفعلى ، قام الشيخ حسين متحسساً البندقية العتيقة فى يده ، وهم بالبروز من خلف أحد الجدران التى إستعملها الرجال كدوشمة لتبادل إطلاق النار مع الإسرائيليين .. حين صاح خليل فجأة:

- شيخ حسين .. شو عم تعمل ؟

نظر له الشيخ مستهجناً ، وقام بالفعل ليقف خلف الدوشمة ، حين جذبه خليل من بنطاله فى عنف أوقعه أرضاً .. ولـــوث لحيته العرقانة بالتراب ، وزعق خليل فجأة بلا صبر :

– بدك تموت يا شيخ ، ضلك هون ، و ما تمسك بارودتك أو تضرب الرصاص إلا لما يقوصونا كلياتنا.

إرتعش وجه الشيخ حسين وهو يحدق فى الشاب الغاضـــب – الخائف عليه أيضاً – الذى جلس أمامه ، ثم إستدار خليـــل ليبادل الإسرائيليين إطلاق النيران ، متخـــذاً موقـــع الـــشيخ حسين.. تاركاً إياه لشعوره بالحسرة والذنب ..!

لقد أصر على أن تقام تلك العملية بالنهار زاعماً أنها عملية بسيطة تقليدية ، ومعرضاً حياة جميع رجاله للخطر .. أصر .. وأصر .. أمام الشيخ الباسم الذى يرتدى بذلة من الكـــستور الخشن حتى فى صيف أيلول ، كان يتجول فى الخيمة قلقاً وهو يحاول أن يقنع الشيخ الباسم بإمكانية تنفيذ هـــذه العمليـــة فى منتصف الظهيرة .. بل وبأن هذا هو الوقت المثالى لها حيـــث يكون الجميع فى راحة وأقل توقعاً بكثير للخطر عن الليل الذى يعتبر مرتع لكل ثائر وخارج عن القانون ..

والشيخ يتابع تحركاته المتوترة بأعين محنكة ، ويقول له :

– ما طول عمرنا بنقوم بها العمليات فى المسا ، شو اللـــى إستجد؟

– كل شيء إستجد ..

كانت الخيمة الصغيرة التى التقى مع الشيخ الباسم فيها برام الله منذ يوم واحد لا تتسع إلا لكلاهما ، لم يكن هناك غرباء .. فصاح الشيخ الباسم داعياً الشيخ حسين للحديث بصراحة :

– خبرنى شو هى الحقيقة .. أنا بعرفك مليح .

نظر له الشيخ حسين وهو يقول بلا تردد :

– عندى فرح مهم جداً فى الغد لازم أصير فيه بالمسا.

فرد عليه بإستهجان :

– شو فرح يا شيخ اللى بدك تحضره ها الوقت ؟!

– فرح مريم .

وافق الشيخ العجوز على أن يترك العملية للتنفيذ فى الوقت الذى طلبه الشيخ حسين ، وإنصاع الرجال جميعهم لرغبته دون الإعتراض أمام عبقريته الحربية المشهودة وتاريخه المشرف الكبير، والآن يشعر أنه خدعهم بشكل ما .. لقد حاول ما فى وسعه أن يجعل العملية أكثر أمناً ، وأن يضع خطة واقعية مبنية على إحتمالات حقيقية .. وها قد نجح نصف الخطة فعلاً بنجاحهم فى زرع المتفجرات و لم يتبق لهم سوى تفجيرها ..

بصق الشيخ حسين شعوره بالذنب مع التراب الذى دخل فمه متسللاً من لحيته الوليدة ، وقام بعينين ملؤها التصميم ، وقد عاوده كل رونقه السابق فبدا كما كان قبل عشر سنوات.. الأسد الذى يحارب الجميع ليحقق مراده حتى لو ذهب معه إلى الجحيم ، وقف على قدميه محتضناً البندقية

السوداء فصار جسمه كله مكشوفاً لرماة العدو ، لكن هذا كان أبعد ما يكون عن تركيزه وإهتمامه .. وفجأه رآه خليل واقفاً خلفه .. فترك سلاحه وإرتمى بنفسه فوق الشيخ حسين ليقعا على الأرض سوياً من جديد وقعة أعنف من الأولى ، نزف لها أنف الشيخ حسين .. وصرخ خليل مستنكراً والطلقات تنهمر من حولهم :

– شيخ حسين ؟ شو صار ؟!

غابت مقاطع رد الشيخ حسين فى صوت الإنفجار المروع لثانى العبوات الناسفة فى موضعها ..

– لا إله إلا الله ..

صاح الشيخ فجأة وهو يحمل سلاحه وينهض مستنداً على خليل ، ثم ساحباً إياه من يده ..

– يللا .. صار فى قنبلتين بعد ما انفجروا ، والشباب كلهم مشغولين بضرب النار .

توقف خليل رافضاً التحرك ، وهو يصيح :

– يا شيخ خطر تمشى هيك وسط الرصاصات ..

نظر له الشيخ حسين نظرته التى تبث الشجاعة فى أضعف القلوب ..

– ما فى شى إسمه خطر !

ثم إنحنى فجأه وركض مسرعاً وسط المبانى نحو الناحية البعيدة من الخزان ، والرصاصات تضرب الأرض والجدران من

حوله .. بينما وقف خليل ينظر له من خلف الدوشمة فى تردد ، يذهب الغبار ويجيء ، ومعه تذهب صورة الشيخ حسين وتعود وهو يتنقل من ساتر لساتر متدحرجاً وقرص الشمس من خلفه يغشى الأبصار ، ثم يقوم ليركض من جديد نحو هدفه.. وكأنه رصاصة إنطلقت من مدفع قوى إسمه العزيمة نحو هدف بالغة إياه لا محالة ..

تسمر خليل للحظات حين إختفى الشيخ تماماً خلف الغبار المفاجيء ، والإنفجار الثالث يدوى من بعيد ويبعثر النيران والدخان من حوله ، حملق فى الفراغ عله يلمح الشيخ وسط دفقات الدخان .. وخيل له أنه أصيب أو سقط ، فركض نبنفس الإتجاه مسرعاً وهو ينحنى فى نفس مسار الشيخ ، ثم تذكر بعدما ابتعد خطوات كثيرة وهو يتدحرج بين السواتر المختلفة ، أن سلاحه قد سقط منه حينما كان يحاول إثناء الشيخ عن محاولته .. وإنه الآن أعزل تماماً فى مواجهة النيران و إحتمال إصابة الشيخ أو سقوطه أرضاً ...

***

الفصل الثامن عشر

جدران عازلة للصوت

حجزت له الشركة التي يعمل بها تذكرة الطائرة في هذه الليلة ، وفي اليوم السابق كان قد حدد موعداً مع زهرة لتنفيذ مخططهما في مغرب هذا اليوم .. وهكذا صار على محمود أن ينفذ الجزء الخاص به من إتفاقهما على محاولة إبتزاز إسماعيل ، ثم يذهب للفندق إستعداداً للرحيل من سوريا في نفس المساء .

خرج من غرفته بالفندق في الصباح الباكر ، اعلمهم في الإستقبال بنيته في تسوية الحساب هذا المساء توطئة لرحيله .. ثم خرج نحو نسمات الهواء العابرة من أمام الفندق ، ليلقي نظرة أخيرة على العاصمة السورية التي لم تجد مكاناً متميزاً في قلبه ، وعلى الرغم من شعوره بالسعادة صبيحة ذلك اليوم بسبب توقف إطلاق النار في لبنان ، وإبتداء إنتشار قوات اليونيفيل والجيش فيها ، إلا أن تلك الإنفعالات كانت مخامرة بإنفعالات مغايرة ما بين توتره من تنفيذ خطة الليلة ، ونيته في البحث عن زوجته سماح وإبنته في لبنان عندما يعود .. فقد كانت الإتصالات قد قطعت فيما بينهم منذ تلك المرة التي أخبرته فيها بإنتوائها الرحيل حينما هدمت القوات الإسرائيلية قريتهم ، بعد بنائها من جديد بعد أحداث ١٩٨٢ .. لم يستطع أن يلومها وحتى أمام نفسه ، لكنه في ذات الوقت لم يستطع أن يسامحها ، لذلك تجاهل كل مكالماتها التليفونية التي

ما فتأ إستقبال الفندق يعلمه بها ، حتى سئمت سماح تماماً وما عادت تتصل .. متوقعة بالتأكيد أن الشركة قد غيرت له الفندق الذى كان مقيماً به ، بالتأكيد كانت قلقة ، ولا زالت.. وبالتأكيد تتمنى طيلة الوقت أن تجيئها مهاتفة منه يخبرها بمكانه الجديد وتخبره بمكانها الجديد ، أو على الأقل يخبرها بأنه بخير.. مر فى الطرقات التى مازالت تتشبع بروح النهار الجديد ، حيث جميع المطاعم تقوم بعمليات التنظيف المختلفة للنوافذ ، وفرش المقاعد على الأرصفة .. إلا مطعم واحد بدا وكأنه لم يغلق منذ الأمس ، يبدو بهدوئه فى صخب هذا النهار كمن قضى ليله فى الشارع وحين أقبل اليوم التالى عليه صار كالتائه إختلط يومه الجديد بأمسه الذى ما زال حياً .. دلف إلى المطعم وإتخذ مجلسه على إحدى الطاولات البعيدة عن النوافذ ، كان مطعماً شعبياً بسيطاً لا يتجاوز عدد زبائنه أصابع اليد ، ويجلس فى نهايته رجلاً عجوزاً يبدو أنه مالك المكان .. لدقائق جلس يعبث بطرف مفرش المائدة دون أن يعيره اهتماماً أى شخص ، ثم برز من مكان ما رجلاً بديناً للغاية جلس على المقعد المقابل له وإبتسم فى ود غير مبرر:

– أهلين أبو هالة .. كيفك خيى ؟ صار لنا زمان ما شفناك

لم يستطع محمود تبين ملامح الرجل ، وهم بالتساؤل .. فقال الرجل موضحاً بصوت أكثر إنخفاضاً :

– أنا من طرف منظمة التحرير ، احتمال يكون رجالة إسماعيل المروان هيراقبوك .

توتر محمود ونظر حوله ، فأكمل مطمئناً:

– ما تخاف ما فى حدا غريب دخل هون ، عشان هيك أنا نطرت تا اتأكدت .. نتكلم فى المهم .

ولوقت طويل راجع البدين مع محمود تفاصيل اللقاء المفترض بينه وبين إسماعيل عدة مرات وهما يتناولان الفطور كصديقين قديمين ، وأكد على مدى أهمية ودقة التنفيذ ، ثم أعطاه فى النهاية المظروف الذى يحتوى على الأوراق ، وطلب منه أن يخبئه فى ملابسه حتى لا يراه من يراقبه بالخارج حتى يصل إلى الفندق .. وقال له قبل أن يتركا المكان :

– حرص مليح ع الملف .. ما تتركه بالغرفة حتى ما يدخل حدا يبرم فيها ، خده معك وين ما تروح ..

توقف محمود للإستماع منتظراً أن يختم الرجل عبارته بدعوة للتوفيق أو ما شابه ، ولكن هذا كان كل شيء ، فخرج من المكان وهو يضغط على المظروف المحشور خلف حزام بنطاله حتى لا يظهر أثناء سيره بالخارج ، ورغماً عنه دارت عيناه بالمكان بحثاً عن مراقبه ثم مضى فى طريقه .. ثم ذهب نحو الفندق لكى يحزم حقائبه .. فى الرابعة عصراً توقف لدى إحدى كبائن التليفون وبقدر أكبر من الثقة عن المرة الماضية اتصل بإسماعيل ليحدد معه موعد المبادلة بعد ساعة واحدة كى لا يتمكن من إتخاذ إجراءات فى غير صالحه ، تماماً فى الموعد الذى حدده له الرجل البدين .. وكان المكان الذى طلب

محمود اللقاء به هو إحدى المصانع الفقيرة على أطراف دمشق ، فى منطقة صناعية غير مأهولة بالسكان . حتى يسهل على رجال المنظمة مراقبة مراحل المبادلة فى سهولة والتدخل حين الضرورة ، حامت برأس محمود أسئلة متعددة خلال ذلك اليوم حول تنسيق تلك المبادلة فمن الواضح أن هذه الأوراق التى يحملها فى المظروف عالية القيمة إلى درجة مخيفة .. ترى كيف ستخرجه هذه السيدة — زهرة غالب — من ذلك الموضوع ليتمكن من السفر فى الليل ؟ وأين هى الآن وسط الترتيبات الفعلية ؟!

لم يحاول أن يشغل رأسه كثيراً بأمور يعجز عن إيجاد جواب لها ، معلوماته تتلخص فى أنه حين تتم المبادلة الفعلية وتنتقل تلك الأوراق المسمومة من يديه حتى يد إسماعيل المروان ، سيقتحم رجال الشرطة السوريون المكان ويلقون القبض عليه.. وأكدت له زهرة التعاون التام بين المناضلين الفلسطينيين ورجال الشرطة ، وبأن أحداً لن يعتبره موجوداً فى القضية من الأساس وكأنه فر أو ما شابه .. المهم أن يبعد عن تفكيره أى أفكار مسمومة ويستعد للتنفيذ ، تنفس الهواء عميقاً من أمام كابينة التليفون وتوكل على الله المعين ..

فى تمام الساعة الخامسة كان ظله يرتمى طويلاً أمامه على السور المعدنى الصدىء لذلك المصنع الريفى الفقير ، محتضناً مظروف الأوراق فى هيبة ، سقى بصره من الطبيعة الريفية العذبة المجاورة للمصنع الصغير ، واللافتة المهترئة التى تحمل إسماً

غير ذى دلالة ، ولا يشير إطلاقاً لنوعية إنتاج هذا المـصنع .. توقف طويلاً أمام البوابة الخضراء الكبيرة المواربـة ، نظـر فى ساعته ثم مضى قدماً دافعاً الباب بيده .. فوجد أنه فى سـاحة رملية كبيرة نسبياً وكأنها فناء مدرسة ، ومن بعيد يبدو بـاب خشبى يقود إلى داخل المبنى الوحيد داخل المكـان ، مـسربل بظلال الغموض وكأنما سيتكشف فى الدقائق التالية عن أسرار خفية .. المفترض أنه هو مقترح المكان أى أنه يعرفه جيـداً ، وهو فى الحقيقة لم يره من قبل !! دفعه الـتفكير إلى أن يأخـذ عدة دقائق فى إستكشاف الموقع قبل أن تظهر سيارة إسماعيل .. فتقدم متشجعاً ودفع الباب الخشبى ليفاجئه الظـلام الـدامس بداخل المكان ، والحرارة التى هبت عليه من الجدران الساخنة.. ترى أين رجال المقاومة الفلسطينية ؟ وأين رجـال إسماعيـل المختبئون إن كان له رجال مختبئون ؟! موقع هذا المصنع شديد التميز بالفعل فالمبنى صغير وشبه مكشوف من شتى جوانبـه ، والمنطقة محاطة بالزراعات الصغيرة والحقول الممتدة ، ولكن أين ينوى الإختباء من قرر أن يختبىء ؟!!

مد يديه فى الظلام ليشعل المصباح ، فظهرت لـه الحجـرة على حقيقتها ، حجرة مكتب بسيطة حافلة باللوحات الزيتيـة وأصص الورد وبنهايتها يقبع مكتباً متوسط الحال .. وظهر له كذلك مع الضوء القادم من المصابيح البيضاء المعلقـة ، وجـه إسماعيل البدين العجوز ينظر له بدون أى تعـبير .. وبـصوت هادىء قال حين أبصر محمود يجفل إزاء مرآه :

– ما اتأخرت ع الموعد كتير ..

و يبدو أن وجه محمود كان مرآه لآيات الفزع التى كـــان إسماعيل يتوقعها ، لأنه قال بنبرة سعيدة غير خفية :

– إنت اللى حددت المعاد والمكان وأنا جيت لألك لوحدى رغم إن المكان بعيد على .

– كيف جيت لهون ؟ وين سيارتك .. منا بالخارج !

فى اللحظات التالية لدخوله ظهر إسماعيـــل لمحمـــود علـــى حقيقته، لم يملكه البكور فى القدوم إلى المصنع ســـوى عامـــل المفاجآة التى أجاد إستغلاله ، ثم ذوى كما يذوى كل شـــيء حينما لم يرد على ذاك التساؤل البسيط، و جلب حقيبة جلدية صغيرة من فوق المكتب ، وتقدم نحو محمود قائلاً :

– ممكن أطلع ع الأوراق المهمة اللى معك .. بدى أتأكـــد أنها أصل منا منسوخة .

اللهجة المهذبةهى قناع من أقنعة الخوف والتهيب ، لـــذلك هدأ محمود قليلاً وهو يرى إسماعيل يرتدى هذا القناع .. وقرر الخوض فى ما سبق تخطيطه تماماً كما كان ..

– وأنا شو هى مصلحتى أنسخ ها الأوراق ، هايدا شغل ما أفهم فيه يا إسماعيل بيه.

إستفزت إسماعيل الدونية فى الصوت والنظرات ، التى توحى وكأن محمود شحاذ ذليل ينتظر تفضل سيده بما يجود به ، والتى بالتأكيد تخفى خلف غطائها الكثير:

- إنك تطلب مصارى مرة تانية وتالتة .. وريني ..

نبرة الغضب المحتد دفعت بالمظروف تلقائياً فى يد إسماعيل ، ووقف محمود يتأمل تعبيرات الوجه البدين ، حتى قام إسماعيل بوضع الحقيبة الصغيرة فى يد محمود وهو يقول ، مديراً ظهره ومتجهاً نحو المكتب الخشبى :

- هايدى كل المصارى اللى طلبتها ، بسدك تراجعها إذا فيك.

أمسك محمود بالحقيبة فى وجل ، وإمعاناً فى أداء دور المبتز شرع فى فتح الحقيبة لعد الأموال ، وهو يتوقع دخول الشرطة بين لحظة وأخرى وقد إستقرت الأوراق أخيراً بين يدى إسماعيل .. وعلا وجيب قلبه وهو يتخيل الإقتحام المفاجىء لرجال الشرطة ، فحاول دفن عينيه بين دفتى الحقيبة حتى لا يلحظ إسماعيل نظرات الإنتظار، ثم فجأة هتف إسماعيل فى حنق مكتوم :

- هلأ صار فيني أقوصك وآخد كل المصارى تبعى ..

نظر نحوه فوجد فوهة المسدس مصوبة من بعيد نحوه ، ويقف إسماعيل خلفها مبتسماً إبتسامة تختلف عن سابقتها ، كالقط الذى حبس الفأر فى ركن قصى وأخذ يستعد ببطء لإلتهامه ، لم يفهم محمود سر تأخر رجال الشرطة ، ولا كلمات إسماعيل الحانقة بالرغم من إبتسامته ..

- لأ وكمان ما راح ينقبض على ، وما راح فل قبـل مـا البوليس يشرف .

وأردف هازئاً:

- مش انت ناطر البوليس يجى هلأ !

من دون أن يجد محمود أى وقت للدهـشة أو التـساؤلات أخفض إسماعيل فوهة المسدس ، حين دوت الخطوات الراكضة فى الخارج ، وأقتحم المكان عدد من الجنود وضـابط دافعـين الباب الخشبى بقوة ، ووقف محمود كالقط المبلل ممسكاً بالحقيبة حين صاح الضابط بصوت مرعب جهورى:

- ولا حدا يتحرك ، كله يثبت بمطرحه .

ودخل أحد الجنود عليه هامساً ، ثم دخل جنود يجرجـرون بين أيديهم بضع من رجال المقاومة الذين وجدوهم بالخارج ، كانت الخديعة غير مفهومة حتى تلـك اللحظـة ، وإبتـسامة إسماعيل التى لم تنقطع مع مهاجمة الشرطة أضحت كالكماشـة التى أطبقت فكيها فوق وجوه جميع المندهـشين .. وحـدق إسماعيل طويلاً فى الموجودين من حوله وكأنه سيد الموقـف ، نظر إلى الفاتنة ذات الثوب الأخضر الضيق ، معشوقته التى ذاب معها حباً فى خياله بداخل المحكمة ، وتأمل مراراً كالراهب فى شفتيها المكسوتين بالرغبة الحمراء اللامعة ، وفستانها الأصـفر النهارى الذى يتحرك قماشه برقة فوق ردفيها وهى تغادر قاعة المحكمة بعد النطق بالحكم كالطيف الشفاف ، الآن يمسك هذا

الطيف من جديد بين يديه بعد سنوات ، فكأنما يتأكـد لـه وجودها الحقيقي ، وأن خياله المحموم معها ما كان مجرد أوهام صنعها عبثه ..

زهرة غالب ، رشيقة مثيرة فى أى ثياب وأى وقـت مـن اليوم، حتى وهى تتملص من بين يدى الجنود ذاهلة تبدو فيهـا لمحات غامضة من الحب العنيف ، نسى جميع الموجودين تحـت وطأة شعور طاغ من القوة وهو يمسك حبيبته بين قضبان قفص من حديد ، على الرغم من أنه لم يتكلم معها من قبل سـوى قليلاً ، وهي بالتأكيد لا تعرف عن رغباته شيئاً ولا ترى فيـه سوى عدواً أضمرت له فخاً جهنمياً فسقطت بأرجلها الرقيقة فيه !

– عندك حق يا أستاذ إسماعيل ، فعـلاً كـان فى محاولـة لإقتحام المصنع .

لهجة الضابط وهو ينطق بتلك العبارة توحى بأنه يمثل دوراً كتب له ، متواطىء أم لا ؟! لا يمكن الجزم ولكن كـذلك لا يمكن اللوم عليه ، فهو ينفذ دوره دون زيادة أو نقصان ، أمـا إسماعيل فكان كأعظم مؤدى المسرح حين صاح براحـة مـن إستعاد حقه المسلوب :

– سرق من عندى شنطة المصارى اللى كانت ع المكتب ، ولولا إنى بلغت البوليس الله أعلم شو كان صار !!

رد عليه الضابط بإنتصار :

– وكمان لقينا تلاتة شركائه ناطرين بره المصنع ، هايــدى الست ورجالين .

وقفت زهرة غالب وسط الرجلين ذليلة غاضبة ، وقد بدأت فكرة ما تتبلور فى ذهنها ، وبدأت تتقبل الفخ بصورته المختلفة عما خططت له. سار إسماعيل بخطوات وئيدة نحوهم كأنما يريد تعرفهم ، ونظر إلى الرجل البدين الذى قابــل محمــود ذلــك الصباح والرجل الآخر ثم توقف ببصره عند زهرة ، ونظــر فى عينيها نظرة حاول أن يضع فيها كل ما يــشعر بــه فى تلــك اللحظات من المشاعر المختلطة النافذة كعطر معتق منذ سنوات إنفتحت قارورته فجأة ، وبادلته هى النظرة بــأخرى ناقمــة عدائية بثت إليه مشاعر كراهيتها بــشكل أزعجــه ، وهــى بالتأكيد لا ترى أمامها سوى عميل خائن يكاد يفر من جديد من يد الحق المكبلة .. نزع عينيه من عينيها بصعوبة ونظر نحو البدين نظرة خاطفة لم يلحظها أحد سوى زهرة ، التى فهمت منها فجأة كل شىء.. لقد كانت الخيانة داخلية منذ البدايــة ، رجلها الذى إعتمدت عليه هو فى الحقيقة رجل إسماعيل ، وهو الذى قد حدد الزمان والمكان .. وهو من إختار هذا المــصنع الصغير بسبب موقعه الإستراتيجى كما قال ، الآن فقط يتضح السبب الحقيقى ، فالمصنع هو ذاته ملك إسماعيل ! اشــتراه فى دمشق منذ أيام قلائل ليكون نواة إستثماراته الخارجية .. الآن صاروا هم المتهمين بإقتحام مصنعه ، وصارت حقيبة النقود فى يد محمود مسروقة وليست من الرشوة فى شىء . أيضاً ضاعت

الأوراق التى كانت فى يدهم ، فمنذ دخولهـا إلى المكتـب — الذى إتضح أنه مكتب إسماعيل — صار لا يمكن للشرطة إتهامه بشيء أو حتى تفتيش المكان وإخراج تلك الأوراق .

تحولت نظرتها للرجل البدين فى حنق مرير ، وهـى ترمـق إبتسامة النجاح الخفية عبر تضاريس وجهه على الـرغم مـن وقوفه مثلها بين أيدى جنود الشرطة ، وتبادلت نظرة صـغيرة مع محمود الذى وقف نادماً خائفاً وسط حطام الخطة المتفـق عليها ، وقال الضابط أزاء ذلك الصمت الذى برز للحظات فى الحجرة الضيقة :

- تفضل معانا يا أستاذ إسماعيل تا نعمل المحضر .

التفت إسماعيل للضابط وكأنه متحير ، ثم نظر من جديـد نظرة طويلة جداً إلى زهرة ، التى أقحمت عينيهـا فى عينيـه ، تخشى أن تخفض بصرها فى ذل أمام من هو أحقر منها ، ثم علا صوته :

– ما فى أى داعى ..

ونظر للضابط مكملاً بدهشة مصطنعة :

– .. أنا كنت غلطان ، هايدى زهرة خطيبتى ، واضح أنه هايدا خلاف عائلى .

لم تدر زهرة سر العبارة التى قالها إسماعيل للـضابط ، وإن كان هو أيضاً رجله أم لا ، ووقفت صامتة بلا حراك .. حيث عاد إسماعيل ينظر لها من جديد ولكن هذه المرة بطريقة مختلفة تمام الإختلاف ..

سوف يتركها ترحل !

.. هو يعلم ذلك جيداً منذ اللحظة الأولى التى رأى فيهـا عينيها اللوزيتين ، والجسد الرشيق الساحر فى أبهى جماله ، لـن يتمكن من أن يحبس ذلك العصفور الملون الغاضب تحـت أى ذنب ، هيهات أن يطمح فى أكثر مما تعطيه الحياة فعلاً ، المـال الوفير والصحة والعمل المتزايد فى إطراد وزوجته المحبة العطوف، وسواء كان ما يحمله نحو زهرة غالب هو حب خفى أو شهوة جسدية عارمة أو مزيج من هذا وذاك .. فلن يطمح إطلاقاً فى أكثر من هذا !

لقد تملكها .. يقول بملء فمه أنها خطيبتـه أو حبيبتـه ولا يمكنها التفوه بأى كلمة نافية ، قد تتهمه بـالجنون فى سـرها ولكن لن تتجاوز إتهامها شفتيها المتفتحتين كـالوردة ، قـد يكون بالفعل مضيعاً على نفسه فرصة ذهبية للإيقاع بمن يريـد تحطيمه ولكنه قد وضع قراره نـصب التنفيـذ بالفعـل دون حساب العواقب ، زهو المنتصر ونشوة من يمسك زمام الأمور أحاطا بعقله كنصابين بارعين أقنعاه بأن يبتاع مـا لا يحتـاج حقاً.. زهرة غالب !

- هايدى السيدة خطيبتك ؟!!

- .. إيه .. وهايدا هو أخوها ، أنا متأسف يـا حـضرة الضابط .

- كيف خطيبتك وكيف بتسرقك ؟

ضحك إسماعيل بود ..

- ربنا ما يجيب سرقة ، كل ما فى الأمر أن أنا وياها كنـــا زعلانين شى شوى ، وهيا كانت عاطيانى مصارى سلف مـــن شان أشترى ها المصنع .. واضح إنها خافت ما أردهم لإلها .

بان الضيق العابر على وجه الضابط وهو يرى أن الهجمـــة بدأت تسفر عن لا شيء ، و تأسف إسماعيل من جديد للضابط وسط دهشة الحاضرين ، ورحل جمع الجنود تاركـــاً إسماعيـــل وحده فى الحجرة الضيقة وسط الرجلين وزهرة ومحمود ، وقال لها إسماعيل محاولاً إستجماع أكبر قدر من اللامبالاة فى حديثه:

- تقدرى تفللى هلأ .. ما حدا صار له شى عند التانى .

كتمت غيظها وقد تقلص وجهها ، كادت أن تهتف بعصبية أنه لا يزال مديناً لها بالكثير ، وكأنه مسئول عن موت زوجها، بل وخيانته المأساوية لها ، كأن يده التى يشيح بها فى لامبـــالاة هى التى أسقطت صواريخ القصف فـــوق بيتـــها .. أو أنـــه الجاسوس الذى أعطى للإسرائيليون عنوان منزلها هى بالذات .. ولكنها آثرت الصمت الحاد بدلاً من هذا كله ، فبادرها قـــائلاً بلهجة تأنيبية وكأنه يكلم طفلة :

- يللا .. لمى رجالتك وفللى من هون ، وللا تحبى أنادى ع الظابط وأخبره ان انتِ ولا خطيبتى ولا شى .. يللا .

وقف وجهها ساكناً تماماً ، وجسدها الملتف يتحرك بـــبطء نحو الخروج من الحجرة ، أعطته ظهرها من جديد وهى تمـــر

أمام عينيه ووجهه المنتفخ بالإنتشاء والألم ، بالفوز الساحق أمام عقلها والهزيمة النكراء أمام جسدها ، وتمايل خصرها كما لم يفعل أبداً وكانه مودعاً .. ودوى صوت كعبيها فى الحجرة يشير كدقات الساعة إلى دنو نهاية لقاؤهما .. وقف ممسكاً بسيجارته الفاخرة متماسكاً منتصراً فسحب نفساً عميقاً وأطلقه فى الهواء وكأنه يرميها من داخله مع النفس المسموم ، و فتحت هى الباب الخشبى لتغمر الشمس كل شيء ، غابت فى الضوء النهارى وهى تبتعد عن الحجرة المظلمة .. ولوهلة ظن أنها قد رحلت ، ولكنها إلتفتت له عبر الباب الضيق المفتوح على مصراعيه .. وهى تفكر أن الشريط الذى يصور عملية تبادل السلاح لا يزال بحوزتها ، وفيه يظهر إسماعيل بوضوح تام ..

تلاقت أعينهما مع التفاتتها للمرة الأخيرة فى هذا اليوم .. وشعر بأن فى نظرتها له وعداً باللقاء من جديد .. وعداً لم يفهمه فى لحظتها و لم ينجح بالنظر فى عينيها فى إستقصاء معانيه...

***

احتوى قلب مريم تلك الجدران الصغيرة التى تحوطه فى كل فترات الحياة ، رافقتها تلك الجدران وهى لا تزال صبية .. مشاعر وإنفعالات تدغدغ جميع حواسها وتفاصيلها ، وتمحو عن رأسها شعوراً بالطفولة لترسم مكانه رقصات مراهقة حالمة تدير رؤوس العشاق — ولو حتى فى خيالها — وتترك أثيراً ساحراً فى المكان الذى تذهب اليه .. رافقتها تلك الجدران وهى ترى زهور اللوز و المشمش ترتفع متضرعة إلى سحابات

الصيف العابرة ترجوها البقاء قليلاً .. وهي تـــرى الأمطـــار اللؤلؤية تنغرس في البيوت الرمادية في الشتاء لتحيط الأســـرار بغلاف من الغموض .. وكتمت في كـــل تلـــك الأوقـــات مشاعرها ، لم تخذلها قط ، و لم تـــبح بهمـــساتها الناعمـــة لأي شخص مهما كان ، حتى وإن كان أبيها ، نمت علاقتها بجدران قلبها يوماً بعد يوم وإعتبرت أنها قادرة على أن تخبيء عواطفها خلف أقنعة مزيفة كما يحيا الجميع في تلك الحيـــاة المتناقـــضة الملأى بالمثيرات والمنفرات حتى في أقرب من نحب ... آمنت أن لكل قلب من قلوب الآخرين جدران مماثلة تخفى خلفها الحب والحقد والغيرة والوفاء والغدر والإثم ، بل أن هـــذه الجـــدران تمنعنا أحياناً من أن نفهم بعضنا البعض ، أو نـــشعر ببعـــضنا البعض.. حتى وإن تشاركنا الفهم والإدراك بمنثور الكـــلام.. واليوم لا مكان لهذه الجدران .. هي ثورة داخليـــة ! إقتلعـــت مريم من جذور أفكارها ، لتجعلها ترقص مـــن الفـــرح دون خشية أو خوف، ودون أن تعبأ بهذه الجدران المزعومة التي تسد عليها الهواء الطلق والعبير الناعم .. وتمنع صوت غنائهـــا مـــن الوصول للقلوب الأخرى .. خلعت تلك الجدران مرة واحدة وكأنها تتجرد من ثيابها لتصير الهة إغريقية عارية تركض علـــى الشاطيء فتهز أوتار القلوب بشعور قوى طاغ لا يحده رادع ، ولا يحنى رأسه في خجل أمام المجتمع الذى صنعه الآخـــرون.. تمزقت من داخلها وهي تفجر بركاناً لم يكن خامداً يوماً ، بل كان يغلى من الداخل كمرجل أحكم إغلاق غطائه إلى حـــد

الإختناق .. وشعرت أنها تتجمع من جديد لتفهم للمرة الأولى فى حياتها معنى أن يولد المرء يوماً ما من جديد ، تهرع أقدامها الحافية فجراً حتى عتبة المنزل لتودع أبيها فى ذهابه إلى عمله ، فتشعر أنهما قدمان جديدتان أكثر خفة حتى وكأن بهما طاقة تجوب العالم ركضاً دون تعب !. تصفق بيديها فيتقارع الكفان فى مبارزة ودية مرحة الأصداء وهى تستمع غناء النساء فى الميكروباص الكبير فكأنهما يدان جديدتان ! تمسك بالفستان من فوق الفراش ، وتلف به الحجرة الواسعة حتى تتركه ينساب على جسدها وهى تتحضنه بكفيها فتشعر أن هذا جسداً جديداً .. وأن فستان الفرح هو أول غلاف يحوط هذا الجسد الوهاج قبل أن يسلمه الليله لصاحبه الأول والأخير ، ذلك الرجل الذى إختارته دوناً عن جميع الرجال فى العالم ليكون من يفك تلك اللفافات البيضاء الحريرية وترطدم يداه بجسدها فينتج رنيناً ممتعاً وكأنه لالآف الأجراس التى تعزف أنشودة لم يعرف الكون سرها بعد .. كانت حواسها طازجة ، ترى من جديد وتسمع من جديد وتتكلم من جديد .. قادتها عاليا أم نجيب من يديها على مدخل منزلهم و هى تكاد تطير من السعادة ، وأفردت لها إحدى الغرف لتلبس وتتزين .. وتعرفت على فتيات العائلة الذين قدموا من كل مكان بلبنان لحضور الزفاف، وتعرفت تلك الفتيات بصديقاتها اللاتى جلبتهن معها من فلسطين .. وذاب الجليد سريعاً ليترك الفتيات يتشاورن حول الماكياج المناسب للعروس ، ويتأملن الشبكة التى قام نجيب

بشرائها فى إنبهار وغبطة بزعم وجوب أن يروا ما ستـرتديه العروس من زينة وحلى لكى يتمكنوا من تحديد لـون " الآى شادو " أو أحمر الشفاه وكميته و تصفيفة الشعر المناسبة لهـذا النوع من الحلى ، و امتلأت صالة البيت بالمقاعـد إسـتعداداً لإستقبال المدعوون فى المساء بعد الزفة التى ستقام فى مـدخل الشارع وعلى سلالم العمارة ، وإنطلقت الأغنيات الفرحة من النوافذ طوال النهار .. و أخذن الفتيات اللاتـى لم يجـدن أى عمل لهن فى تزيين العروس يتبادلن الرقص والغناء على نغمات الأغانى ..

.. اللى بتقصر التنورة .. اللى بتقصر التنورة ..

بتلحقها عيون الشباب .. وهى بحالها مغرورة ..

لابلقلها الكعب العالى ، هوا غربى وشمالى ..

تنورتها شبر ونص .. وبلوزتها بتلالى ..

لالى لالى لالى .. حالى حالى حالى ..

وعلى عكس كل الفتيات الجالسات بداخل الحجـرة مـع مريم ، اللائى كن جميعـاً منـهمكات فى التـزيين والـرقص والحديث .. كانت تشرد هى كل حـين وعيناهـا معلقتـان بعقارب الساعة المعلقة بأعلى الحائط ، كلما مرت عدة دقـائق ينبض قلبها بقلق وليد وهى تتسائل عن سر تأخر والدها عـن العرس .. لم تكن الشمس قد غربت بعـد ولكـن تعجلـها لحضوره جعلها أكثر إحساساً بالوقت المنصرم فى بطء شديد .